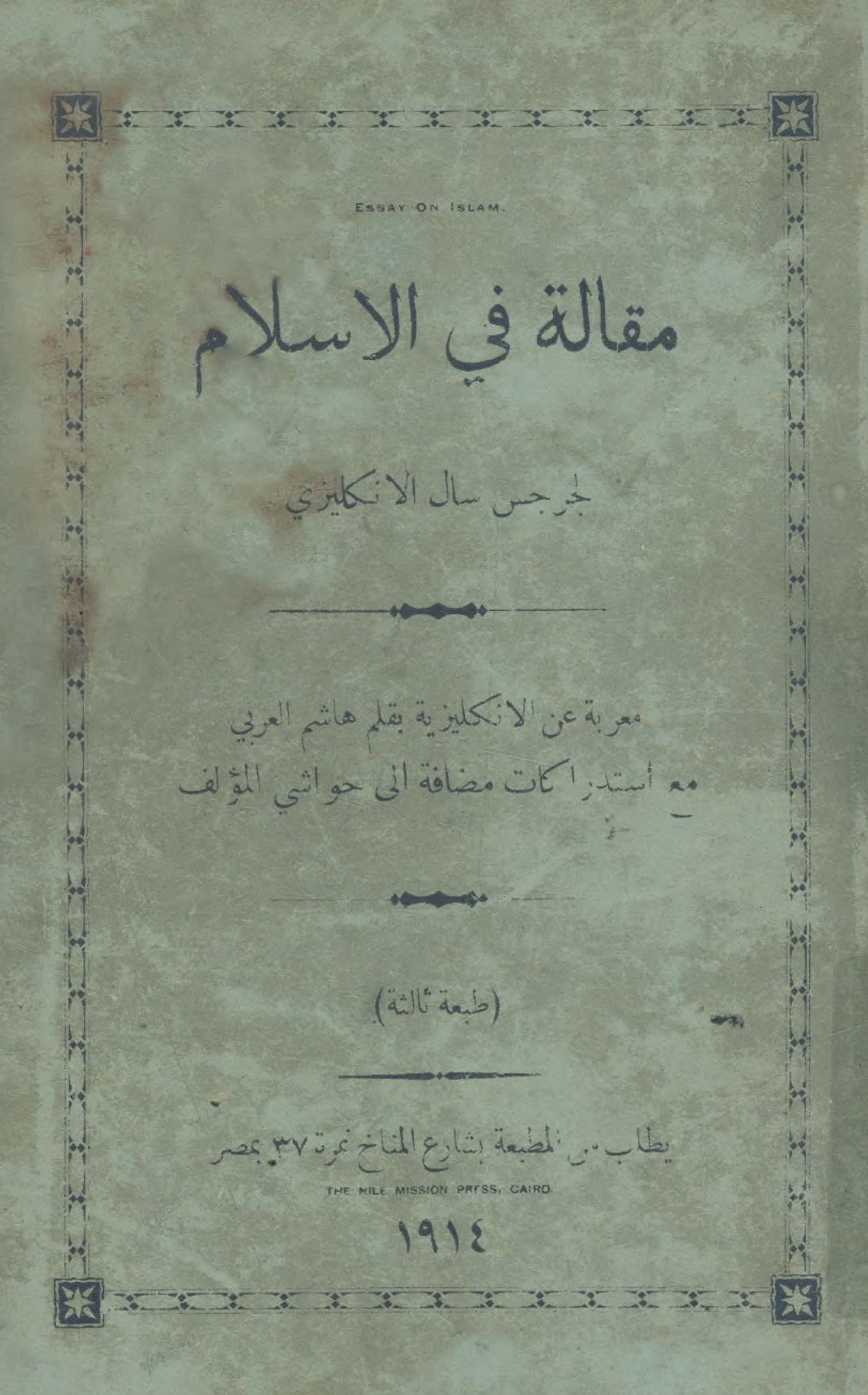


ESSAY ON ISLAM.

مقالة في الاسلام

لجرجس سال الانكليزي

معربة عن الانكليزية بقلم هاشم العربي
مع استدراكات مضافة الى حواشي المؤلف

(طبعة ثالثة)

يطلب من المطبعة بشارع المناخ نمرة ٣٧ بمصر
THE NILE MISSION PRESS, CAIRO.
١٩١٤

ESSAY ON ISLAM.

مقالة في الاسلام

لجرجس سال الانكليزي

معربة عن الانكليزية بقلم هاشم العربي
مع استدراكات مضافة الى حواشي المؤلف

« طبعة ثالثة »

يطلب من المطبعة الانكليزية الاميركانية ببولاق مصر
THE NILE MISSION PRESS, CAIRO.
١٩١٣

ترجمة المؤلف

هو جرجس سال الانكليزي مولداً ومنشأ ولد في اواخر القرن السابع عشر للمسيح ومات سنة الف وسبعمائة وست وثلاثين وله من العمر نحو من اربعين سنة. وكان من المشتغلين بعلم الفقه الا انه اولع بدرس لغات المشرق ولا سيما اللغة العربية وعلومها خاصة فبلغ منها مبلغاً عظيماً. وله بلسان قومه مصنفات في التاريخ واللغة ولكنه اشتهر اكثر بنقل القرآن الى لسان الانكليز وبما الحق به من حواش تكشف الغطاء عن مبهمات الاصل انتقى اكثرها من كلام ثقات اشهر المفسرين فاحسن الاختيار وظهر بذلك فضله. ثم ضم الى ذلك مقالة تدل على غزارة مادته وسعة علمه وتجرد في تاريخ العرب وادابهم وعاداتهم تحرى فيها التدقيق فيما قاله عنهم في الجاهلية والاسلام وفيما تكلم به عن القرآن واوامره ونواهيه والاسلام والفرق التي ظهرت فيه وتوخى في مقالته من التزام النصفة والنزاهة عن الهوى ما حمل الغلاة في الدين من مواطنيه على اتهامه بالمروق من النصرانية وابدى من العلم وسعة الاطلاع في العربية

ما أكبره علماء عصره حتى زعم العلامة ڤولتير ومن اخذ اخذه انه لا بد ان يكون قد قضى لا اقل من خمس وعشرين سنة من عمره في بلاد العرب. وهذا محض وهم فانه رحمه الله لم تطأ قدمه بلاد العرب قط ويوشك ان لا يكون قد خرج من بلاده

ولما ظهر نقل القرآن وانتشرت المقالة الملحقة به احدثا تغييراً بيناً عند علماء الافرنج في طريقة درس العربية وعلومها والبحث في الاسلام واركانه لان المؤلف ذلل لهم عقبات كثيرة كانت تعترضهم في البحث ونهج لهم طريقاً جديدة لدرس هذه اللغة ومطالعة كتبها والاستفادة من علومها فاقتفوا اثره ونسجوا على منواله



تنبيه للمعرب

اعلم وفقك الله اني لما تصفحت المقالة المشار اليها وجدتها حرية بان يطلع عليها المتكلمون بلغتنا العربية لانها جمعت بين قلة اللفظ وكثرة الفائدة واشتملت من مودعات كتب الدين والتاريخ والسيرة المحمدية على اهمها وقعاً واصحها رواية عند اهل التدقيق وجهابذة النقد. فعمدت الى تعريبها وحذوت حذو المصنف بان اشرت الى اسماء الكتب والمؤلفين الذين اخذ عنهم كلما امكن ذلك وكان الكتاب او الكاتب عربياً او معروفاً عند العرب. غير انه لما كان اكثر كلامه في فرق المسلمين مأخوذاً عن كتاب الملل والنحل للعلامة الشهرستاني اهملت الاشارة اليه في كل المواضع واكتفيت بتنبيه المطالع هنا الى ان ما قيل في الفصل الثامن من المقالة عن فرق المسلمين يكاد يكون كله مأخوذاً عن الشهرستاني. وقد حاولت ان ارد ما أخذه عن مؤلفي العرب الى اصله العربي بالفاظ المؤلف نفسه فتهيأ لي ذلك في بعض المواضع وتعذر في بعض فحرصت على المعنى دون اللفظ واحترزت من مظنة التحريف عمداً بتنبيه القارئ الى ان ما ينقل عن مؤلف عندي كتابه انما هو المعنى المستفاد من كلامه لا الحرف

وبعد ان فرغت من تعريب المقالة اضفت الى كل واحد من الفصول الثلاثة الاولى تذييلاً استدركت فيه ما فات المصنف او ما لم يكن البحث عنه من ولايته وانتقدت بعض ما نقله مؤرخو المسلمين من تاريخ العرب الاقدمين ودحضت ما يدعيه علماؤهم من ان القرآن كلام الله ونفيت عنه صفة الاعجاز ببراهين معقولة ومنقولة فجاءت مقالة المؤلف بهذه الزيادة كتاباً برأسه كبير الفائدة على صغر حجمه يغني مطالعه عن كثير من مطولات الكتب العربية ويقفه على المهم من تاريخ العرب وعلومهم وادياتهم وعاداتهم ويلخص له بوجيز العبارة ما هو الاسلام من حيث اركانه ومبانيه واوامره ونواهيه وفرقه والشيع التي ظهرت فيه. هذا واني لست ادعي لهذا التعريب العصمة فان المعصوم من عصمه الله لكني اقول اني تحريت فيه التدقيق ما استطعت حتى يكون مطابقاً للاصل فما كان فيه من خطإٍ او ضعف تأليف فهو مني وما كان فيه من اصابة فالفضل فيها للمؤلف رحمه الله

تنبيه — كل شيءٍ في الحواشي احيط بهاتين العلامتين «—» فهو للمعرب وما كان غفلاً منها فهو للمؤلف

الفصل الاول

في عرب الجاهلية وتاريخهم واديانهم وعلومهم وعاداتهم

اعلم ان اسم العرب وبلادهم التي تدعى جزيرة العرب مشتق من لفظة عربة وهي ارض بتهامة دعيت بذلك اخذاً من يعرب بن قحطان جدّ العرب الاولين ثم توطنها اسماعيل بن ابرهيم بعد ذلك بقرون[1]. واعلم ان قدماء المؤرخين النصارى كثيراً ما يدعون العرب بالشرقيين ولعل ذلك لان بني يقطان وهو قحطان العرب كانوا يسكنون الشرق على ما جاء في التوراة[2] بناء على أن بلاد العرب تكون شرقاً باعتبار موقعها من بلاد اليهود

وقد يطلق اسم جزيرة العرب توسعاً على جميع الارض التي يحدها الفرات وخليج العجم شرقاً وبحر الهند وخليج عدن

---

(١) دليس هذا بثبت لان في فلسطين موضعاً يسمى عربة ايضاً كما مراصد الاطلاع. وبعد فان التوراة (تكوين ١٤:٢١ و١٢:٢٥—١٨) قد عينت موضع سكنى اسمعيل وهو في غير بلاد العرب»

(٢) تكوين ١٠:٣٠

جنوباً وبحر القلزم وبحر الروم غرباً وهي الارض التي كانت العرب من بعد الطوفان قد تملكت جانباً كبيراً منها اي نحواً من ثلثيها وهو ما يدعى اليوم بلاد العرب بحصر اللفظ ثم تغلبوا على الباقي فتحاً او رحل اليه بعض قبائلهم فتوطنوه ولذا كان الترك والفرس في يومنا هـذا يدعون تلك الارض باجمعها عربستان اي بلاد العرب

اما حدود بلاد العرب عند اهل الجغرافية فلا تتجاوز شمالاً الخط الذي فرضوه بين ايلة وخليج العجم ولا تتعدى تخوم الكوفة وهـذا على التقريب ما كان الروم يدعونه بلاد العرب الميمونة اي السعيدة[١] . اما الجغرافيون الشرقيون فيدخلون قسماً مما ندعوه نحن بلاد العرب البترية[٢] في حدود مصر وقسماً في حدود الشام ويدعون صحراء بلاد العرب بادية الشام . ويقسمون جزيرة العرب الى خمسة اقسام هي اليمن والحجاز وتهامة ونجد واليمامة ويزيد بعضهم قسماً سادساً يدعى

---

(١) «فكانهم نقلوا الى لغتهم معنى الاسم دون لفظه فقالوا فلكس اي سعيدة او ميمونة لان اليمن بالعربية هو السعد ومنه دعت العرب ناحية من بلادها يمناً» (٢) وسترى زيادة ايضاح لهذا اللفظ في التذييل

البحرين ان المدققين منهم يدخلون البحرين في العراق. وقسم بعض الجغرافيين جزيرة العرب الى قسمين فقط هما اليمن والحجاز فجعلوا تهامة ونجداً واليمامة داخلة في الحجاز

فاليمن ولعله دعي بذلك لوقوعه عن يمين الكعبة او ليمن موقعه وخصب تربته يمتد على ساحل بحر الهند من عدن الى رأس الحد ويحده بحر القلزم غرباً وجنوباً والحجاز شمالاً . وهو على اقسام منها حضرموت والشحر حيث يخرج اللبان ومنها عمان ونجران وغير ذلك وقصبته صنعاء وهي مدينة قديمة جداً وكان يقال لها في الاعصر الخالية اوزال[١] . وقد اشتهرت بحسن موقعها وبهجته الا ان امير البلاد تحول عنها في ايامنا هذه الى موضع يقال له حصن المواهب على خمسة فراسخ من شمالي صنعاء وهو لا ينقص عنها في حسن البقعة . وقد اشتهر اليمن من قديم الزمان بجودة الهواء وبالخصب وكثرة موارد الثروة وهذا ما سوّل للاسكندر بعد عودته من غزوة الهند ان يحدث نفسه بفتحه وتحويل دار الملك اليه فحال موته دون غايته على ان كثيراً من المستغلات التي كان الاقدمون يتوهمون انها

(١) «انظر كتاب مراصد الاطلاع»

من اليمن لم تكن في الحقيقة الا مجلوبة اليه من الهند وسواحل افريقية . وذلك ان قدماء المصريين وهم الذين انفردوا بتجارة بلاد العرب يتعاطونها عن طريق بحر القلزم كانوا يحرصون اشد الحرص على كتم تجارتهم ويمنعون فرضهم من الاجانب حتى لا يصلوا الى تلك البلاد ولا يبلغهم عنها خبر . فلذلك ولسبب الصحارى التي يتعذر اجتيازها على الغرباء كان اليونان والروم يجهلون احوال بلاد العرب الا قليلاً

ثم ان اليمن انما هو طيب الهواء مخصب التربة في الجبال فقط اما ما حاذى بحر القلزم من الارض الى مسافة عشرة فراسخ او اثني عشر فرسخاً منه فهو صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا نبات فاذا جاوزتها صرت الى جبال كثيرة المياه فهي لذلك في ربيع دائم وفيها كثير من انواع الفواكه والنبات . وهذا فضلاً عن البن الذي هو من خاص غلال اليمن . ويكثر فيها ايضاً القمح والكرم وانواع الافاويه الا انه ليس في اليمن انهار كبيرة وانما هو مسايل وجداول تحدر من جباله في بعض فصول السنة وتغور في رمال الساحل قبل ان تبلغ البحر

اما الاقسام الاخرى من بلاد العرب فهي دون اليمن

في الخصب ومعظم ارضها رمل او وعر يتخللها بقاع مخصبة ينتفع بمياهها ونخيلها

اما مكة وقد تدعى بكة ايضاً وكلا الاسمين مترادف ومعناها الازدحام فهي من اقدم مدن المعمور[1] وفي ظن بعضهم انها ميشا المذكورة في التوراة[2] وهذا اسم لا تجهله العرب ويظن انه مأخوذ عن اسم احد اولاد اسمعيل[3] وهي واقعة في بطن واد وعر مجدب تكتنفه الجبال من كل الجهات وطولها من الشمال الى الجنوب نحو ميلين وعرضها من اسفل

---

[1] «هذا من المحتمل لان الكعبة بيت عبادة قديم الوجود في بطن مكة ولعله كان قبل ان تنعدل العربية عن السريانية ان كان ما حكاه الازرقي صحيحاً وهو انه وجد في حجر من الاساس كتابة بالسريانية . اما كون الكعبة بيت عبادة للاصنام فيؤيده قول البيروني نقلاً عن ابي معشر البلخي ان الكعبة واصنامها كانت للصابئة وان عبدتها كانوا من جملتهم وان اللات كان باسم زحل والعزى باسم الزهرة»

[2] سفر التكوين ١٠ : ٣٠ «وفي النسخة المطبوعة في رومية تدعى ماسا»

[3] تكوين ٢٥ : ١٥ «ولكن هذا الظن مردود بدليل ان الاسم كان قد وضع من قبل ان يخلق اسمعيل فان كان ثم اتفاق بين لفظ ميشا او ماسا ارض الكعبة ولفظ مسا اسم ابن اسمعيل فالاولى ان يقال ان اسم الرجل مأخوذ من اسم البقعة لتقدم التسمية لا بالعكس»

اجياد الى ظهر قعيقعان نحو ميل [١] وبناؤها من حجارة يقطعونها من الجبال المجاورة . وليس في مكة آبار يصلح ماؤها للشرب الا بئر زمزم وهي وان كانت خير تلك الآبار الا ان ماءها زعاق ومن ادمن شربه ظهرت في جسمه البثور ولذا اضطر السكان ان يشربوا من ماء المطر يجمعونه الى مصانع الا انه لا يفي بحاجتهم ولذا تصدى قوم منهم لاجراء الماء الى البلد من الضواحي في قنوات تعمل له . ففي ايام محمد حاول الزبير وهو من اشراف قريش ان يجري الماء الى مكة من عرفات وانفق في ذلك مالاً طائلاً فلم يقدر عليه ثم تصدت له من عهد قريب زوج السلطان سليمان العثماني [٢] فتم على نفقتها وكانوا قبلها باعصر قد شرعوا في عمل قناة يأتي فيها الماء الى مكة من مسافة بعيدة واقاموا في البناء مدة متطاولة فتم في خلافة المقتدر [٣]

وارض مكة عقيمة قاحلة ليس فيها شجر يثمر ولا ينبت هناك الا شجر البادية غير ان للشريف اليوم عن قصره المسمى بالمربعة بستاناً صالحاً يقضي فيه اكثر اوقاته وهو من مكة على

---

(١) الشريف الادريسي (٢) هي كريمته لا زوجه . انظر كتاب الاعلام للنهرواني وكان معاصراً لسليمان (٣) الاصطخري

ثلاثة اميال الى الغرب. ولما كانت ارض مكة لا تغل شيئاً مما يقتات به اضطر اهلها ان يجلبوا الميرة من البلاد الاخرى[١] ولما تولى هاشم وهو ابو عبد المطلب جد محمد الامارة على قريش جعل لهم رحلتين احداهما تسافر في الصيف والاخرى في الشتاء لجلب الميرة وهاتان الرحلتان مذكورتان في القرآن[٢] وكان ما تأتيان به من الميرة يوزع عليهم مرتين في العام وذلك في رجب وعند قدوم الحاج ثم يأتيهم من البلاد المجاورة شيء كثير من التمر ويأتيهم العنب من الطائف وهو بلد على ستين ميلاً من مكة اذ لا يكاد ينبت شيء منه في مكة

واغلب اهل مكة موسرون وذلك لكثرة ما يربحون في تجارتهم مع الحجاج الذين يتقاطرون اليها من كل فج ومن كل امة لحج البيت فتقام حينئذ سوق تنفق فيها كل السلع. وكذلك لهم شيء كثير من السائمة ولا سيما الابل غير ان من كان منهم فقيراً فهو في ضنك من العيش ولا بدع فانهم في بلد قليل الخير لا يكادون ينالون فيه ما يحتاجون اليه لقيام الحياة الا شراء. وما ذكرناه من الجدب فانما هو مقصور على ارض مكة اعني

---

(١) الشريف الادريسي (٢) سورة قريش

ما يدعى بالحرم فاذا جزته قابلتك عيون وآبار وبساتين كثيرة واودية ذات خضر ومزارع[١] وسيمر بك بعد هذا ذكر الكعبة وما ذاع من بركة تلك البقعة

اما المدينة فكانت قبل هجرة محمد اليها تدعى يثرب ومساحتها تبلغ نحو النصف من مكة ويحيط بها سور وهي في سهل من الارض تكتنفه جبال منها أحد شمالاً وعير جنوباً وبينهما مسافة فرسخين وكثير من هذا السهل سباخ الا انه في بعض المواضع لا يخلو من خصب ويكثر فيه التمر خصوصاً بالقرب من الجبال. وفي هذا البلد مدفن محمد وهو قبر ضخم تعلوه قبة وهو ملاصق للجدار الشرقي من المسجد والمسجد في وسط البلد[٢]

اما تهامة ودعيت بذلك من التهم اي شدة الحر لما فيها من الرمال المحرقة[٣] كما دعيت بالغور ايضاً لانخفاضها فيحدها بحر القلزم غرباً والحجاز شمالاً واليمن جنوباً. ويدخل تحت اسم تهامة كل ما كان بين مكة وعدن من الارض

---

(١) ابن حوقل (٢) ابن حوقل (٣) «ولا يبعد ان تكون دعيت كذلك من تصوب ارضها الى البحر لان التهم له هذا المعنى ايضاً»

واما نجد ومعناه الارض المرتفعة فهو بين اليمامة واليمن والحجاز ويحده من الشرق العراق. واما اليمامة ويقال لها عروض باعتبار موقعها من اليمن كأنها معترضة فهي بين نجد وتهامة والبحرين وعمان والشحر وحضرموت وسبا وحاضرتها مدينة اليمامة وبها دعي القسم كله وكانت في القديم تدعى جواً وهي مقام مسيلمة الكذاب الذي بارى محمداً في النبوة[١]

اما العرب سكان هذه الارض المتسعة واصحابها منذ عهد قديم جداً فهم عند مؤرخيهم طبقتان العرب البائدة والعرب الباقية. اما العرب البائدة فكان عددهم كثيراً وكانوا قبائل متعددة بادت قاطبة او اختلطت بقاياها بغيرها. وليس بين ايدينا من اخبارها ما يوثق به ولكن كان الخلف يروي عن السلف بطريق التناقل اخبار عظائم ونكبات نزلت ببعض القبائل منها فلما جاء الاسلام اقر القرآن ما كان دائراً من ذلك على السن الناس. واشهر هذه القبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الاولى وعماليق

---

[١] «وسيأتي خبره بعد»

اما عاد فهي ذرية عاد بن عوص[1] بن ارم[2] بن سام بن نوح قالوا انه سكن حضرموت من الاحقاف بعد بلبلة الالسن فنمت فيها ذريته . وكان شداد بن عاد اول ملوكهم وعنه يروي مؤرخو المسلمين قصصاً كثيرة اغربها انه اتم بناء مدينة عظيمة كان ابوه قد اختطها وشرع في بنائها وانه شاد بها قصراً وجمله بجنات انيقة لم يدخر في تزيينها والتأنق فيها نفقة ولا عناء يريد بذلك ان يحمل رعيته على اعتقاد الربوبية فيه[3] وسمى جنته هذه بجنة ارم وقد ذكرها القرآن[4] وتهافت المصنفون من المسلمين على التلميح اليها[5] وهم يزعمون انها لا تزال قائمة باذن الله في برية عدن شاهدة بعدله لكن لا يكاد يراها من العباد احد الا من يمن الله عليه بذلك . وكان في خلافة معاوية رجل يقال له عبد الله بن قلابة زعم انه رآها فدعاه الخليفة ليتحقق منه ذلك فقص عليه انه بينما كان ينشد راحلة له

---

(١) وهو عوز في بعض نسخ التوراة انظر سفر التكوين ١٠: ٢٢و٢٣

(٢) انظر تفسير سورة الفجر للبيضاوي (٣) «الذي يرويه المسلمون انه اراد ان يضاهي جنة ربه والقولان يتلاقيان» (٤) سورة الفجر

(٥) «لا يكاد يخلو من ذكرها تاريخ ولا تفسير وليس في علماء المسلمين من نبذ هذه القصة سوى ابن خلدون»

قد ضلت اذا به عند ابوابها فدخلها فلم ير بها دياراً فارتاع ولم يقم بها الا ريثما التقط بعض احجار كريمة اراها الخليفة

ثم ان عاد مرقت بتمادي الزمان من الدين الحق وعبدت الوثن فبعث الله اليهم النبي هود (وهو باجماع العلماء عابر الذي يدعوه اليهود نبياً) لينذرهم ويردهم عن الكفر فكذبوه فسلط الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية [١] قصفت سبع ليال وثمانية ايام حسوماً تدخل في خياشيمهم وتخرج من ابدانهم حتى هلكوا الا نفراً منهم كانوا قد آمنوا بالنبي هود فانصرف بهم الى موضع آخر ثم عاد الى حضرموت ومات ودفن بالقرب من حاسك ولا يزال هنالك في ايامنا هذه بلدة صغيرة تدعى قبر هود [٢] الا انه قبل نزول هذا العقاب الشديد بعاد عمد الله الى تذليلهم لعلهم يتعظون بانذار نبيه فابتلاهم بالقحط اربع سنين متوالية حتى هلكت انعامهم كلها واوشكوا هم انفسهم ان يهلكوا فارسل لقمان (وهو غير لقمان الذي كان في عصر داود النبي) وستين

---

[١] سورة الحاقة وتفسيرها للبيضاوي [٢] «وجاء في رحلة ابن بطوطة انه رأى على مقربة من ظفار اليمن بنية فيها قبر مكتوب عليه هذا قبر النبي هود»

رجلاً معه الى مكة يستمطرون فلم يمطروا واقام لقمان ونفر من اصحابه بمكة فنجوا من الهلاك الذي احاق بالقبيلة. ثم نشأت منهم قبيلة ثانية تدعى بعاد الاخرى فسخها الله بعد ذلك نسناساً[١] وزعم جماعة من المفسرين[٢] ان عاد الاول كانوا جبابرة طوالاً حتى ليكون ارتفاع قامة اطولهم مائة ذراع ولا تنقص قامة اقصرهم عن ستين ذراعاً ويحاولون ان يثبتوا زعمهم بنص من القرآن[٣]

واما ثمود فهم ذرية ثمود بن جاثر[٤] بن ارم عبدوا الوثن فبعث اليهم النبي صالح ليردهم الى عبادة الاله الحق وذلك في الفترة التي بين هود وابرهيم وعليه فلا يمكن ان يكون صالح هذا هو شالح كما توهم قوم ومن الناس من يظن انه فالغ وذلك الى الصواب اقرب. فلم يؤمن به سوى نفر منهم واقترح عليه باقوم آية وهي ان يخرج لهم من الصخرة ناقة عشراء[٥] ففعل

---

(١) انظر قاموس الفيروزابادي في لفظة نسناس (٢) ومنهم الزمخشري والسيوطي (٣) الاعراف :٦٧ «وانظر ايضاً الباب ٣٧ من مروج الذهب» (٤) تكوين ١٠:٢٣ (٥) «الاعراف :٧١ والاسرى :٦١ وتفسيرها وانظر ايضاً الباب ٣٨ من مروج الذهب»

باذن الله ولما خرجت الناقة ولدت لساعتها فصيلا ومع ذلك لم يؤمنوا به بل ضربوا عرقوب الناقة وعقروها فسلط الله عليهم بعد ثلاثة ايام رجفة وصيحة من السماء هائلة يزعم قوم انها صوت جبريل فتقطعت منها قلوبهم وهلكوا [١] ونجا صالح ومن كان آمن به منهم وتحول الى فلسطين ومنها الى مكة فمات فيها [٢] وكانت ديار ثمود باليمن فلما اجلاهم عنه حمير بن سبا سكنوا الحجر من الحجاز ولا تزال ثم الى اليوم بيوتهم التي كانوا ينحتونها من الجبال [٣] وكذلك لا يزال يرى صدع الصخرة الذي خرجت منه الناقة وعرضه ستون ذراعاً كما زعم ابو موسى الاشعري الذي ادعى انه عاينه. الا ان هذه البيوت ليست باعظم من سائر البيوت المألوفة وبهذا دفع بعضهم ما قيل عن طول قامات ثمود مما تقدم قريباً [٤]

واما طسم وجديس فالاولى ذرية لود بن سام والثانية ذرية جاثر بن ارم بن سام [٥] وكانت هاتان القبيلتان مختلطتين اشخاصاً

---

[١] «تفسير الآية ٧٦ من سورة الاعراف للبيضاوي» [٢] ابن الشحنة
[٣] سورة الحجر ٨٢: [٤] «انظر مروج الذهب الباب ٣٨»
[٥] تاريخ ابي الفداء «وانظر ايضاً سفر التكوين ١٠: ٢٢ و٢٣»

ومساكن وكان الملك عليهم في طسم واستمروا على ذلك دهراً حتى افضى الملك من طسم الى رجل عات غشوم فجعل سنته ان لا تهدى بكر من جديس الى بعلها حتى يفترعها هو اولا فانفت من ذلك جديس واتفقوا على ان دفنوا سيوفهم في الرمل ودعوا ملك طسم وخواصه الى طعام فلما كانوا على الطعام في قصف ولهو قامت اليهم جديس فقتلوهم كافة وابادوا اكثر طسم الا انهُ نجا منهم نفر فاستنصروا ملك اليمن وهو يومئذ ذو حبشان بن عقران فسار بهم على جديس واوقع بهم حتى افناهم عن آخرهم ولم يبق للقبيلتين ذكر بعد ذلك

واما جرهم الاول وهم في زعم قوم ذرية واحد من الثمانين الذين نجوا مع نوح واهل بيته في السفينة كما جاء في الاثر المحمدي فكانوا معاصرين لعاد وبادوا قاطبة

واما عماليق فهم ولد عماليق بن اليفاز بن العيس[١] وزعم قوم ان عماليق هو ابن حام بن نوح وقال آخرون انه ابن لود بن سام[٢] ومهما يكن من هذا الاختلاف في نسبه فالمتفق عليه هو ان ذريته قويت شوكتهم واستفحل امرهم[٣] حتى قادهم

(١) تكوين ٣٦:١٢ (٢) ابن الشحنة (٣) سفر العدد ٢٤:٢٠

ملك لهم اسمه الوليد الى غزو مصر فزحفوا عليها وافتتحوها وكان ذلك قبل زمان يوسف بن يعقوب . وزعم جماعة من مؤرخي المشرق ان الوليد هذا هو اول من تلقب بفرعون ولعلهم يعنون بهؤلاء العمالقة امة تدعى في تواريخ مصر القديمة بالرعاة الفينيقيين[١] فبقيت مصر تحت سلطانهم دهراً حتى نهض اهلها فاجلوهم عنها ثم ابادهم بنو اسرائيل عن بكرة ابيهم[٢] هذا ما اثره الخلف عن السلف من اخبار العرب البائدة . واما العرب الباقية فهم في قول مؤرخيهم متفرعون من جذمين احدهما قحطان وهو يقطان بن عابر[٣] والآخر عدنان من ذرية اسمعيل. فالقحطانية يدعون بالعرب العاربة أي العرب الخلص[٤] والعدنانية يدعون بالعرب المستعربة اي الدخلاء في العربية الا ان قوماً يزعمون ان العاربة هم العرب البائدة ولذلك يدعون القحطانية بالمتعربة اي الدخلاء في العربية الا ان دخولهم متقدم

---

(١) انظر رد يوسيفوس المؤرخ اليهودي على ابيون (٢) سفر الخروج ١٧:١٨ وسفر صموئيل الاول ١٥:٢ و٢٧:٨ وسفر الايام الاول ٤: ٤٣ (٣) تكوين ١٠:٢٥ (٤) «هذا على حد ما يسمى بولس نفسه عبرانياً من العبرانيين واراد بذلك انه عبراني خالص «انظر رسالته الى اهل فيلبي ٣:٥»

على دخول المستعربة. وعلى هـذا فليس لذرية اسمعيل وجه في دعواهم انهـم عرب خلص لان جدهم اسمعيل كان عبرانياً مولداً ولساناً وانما صاهر جرهماً اذ تزوج بابنة لمضاض احد ملوكهم فانتمى اليهم وانتحل عاداتهم ولسانهم فاختلطت ذريته بهم وصارت معهم امة واحدة. والنسابون منهم لا يكادون يعرفون شيئاً مما بين جدهم عدنان واسمعيل ولذلك فهم قلما يتجاوزون عدنان هذا في سياقة الانساب اذ كانت لا خلاف فيها من عدنان فنازلاً.
هـذا ما ذكره مؤرخو العرب عن قبائلهـم وهي كلها من نسل سـام غير ان هناك قبائل أخر من العرب جدهم الاعلى قوش ابن حام والتوراة كثيراً ما تدعو العرب قوشيين وبلادهم بلاد قوش الا ان مسـاكنهم لم تكن في الواقع ببلاد العرب نفسها أعني جزيرة العرب بل كانت بشطوط الفرات وسواحل خليج العجم واصلهم من شوشن وهي خوزستان موطن جدهم قوش ولعلهم قد اختلطوا على تمادي الزمان بالعرب السـاميين الا ان المؤرخين الشـرقيين لا يكادون يذكرونهم

ثم ان العرب العاربة الذين فيهم كلامنا استمروا دهراً طويلا وحكامهم من القحطانية وذلك ان يعرب احد بني قحطان

هو مؤسس مملكة اليمن وجرهم وهو ابن آخر له مؤسس مملكة الحجاز. وكان اليمن او اكثره ولا سيما سبأ وحضرموت يتولى الحكم فيه ملوك من ذرية حمير ثم انتقل الملك منهم الى ابناء عمهم اي الى ذرية كهلان اخي حمير فاستمر بنو كهلان يدعون انفسهم ملوك حمير ويتلقبون كلهم بالتبابعة جمع تبع وتفسيره خلف[١] وقد خص ملوك حمير بهذا اللقب كما خص ملوك الروم بلقب قيصر وملوك المسلمين بالخليفة. ثم ان اليمن كان فيه عدة اقيال عدا ملوك حمير الا انهم كانوا كلهم أو جلهم في طاعة ملك اليمن يدعونه الملك الاعظم ولذلك لم يكن عنهم في التاريخ شيء يهم ذكره

وكان سيل العرم اول نازلة نزلت بعرب اليمن واعظمها وقد شاع ذكر هذا السيل كثيراً في تواريخهم وكان حدوثه بعد عهد الاسكندر بقليل ولاجله اضطرت ثماني قبائل منهم ان

(١) « هذا ان صح ما يزعمه اهل اللغة من ان لفظ تبع عربي وانه معدول عن تابع لكن هذا الزعم ليس يثبت والصحيح ان اللفظ حبشي وتفسيره القوي كما ان حمير لفظ حبشي ايضاً وتفسيره الاحمر وستقف على ذلك في موضعه من التذييل ان شاء الله»

ينزحوا عن بلادهم فنشأ عنهم مملكتان هما غسان والحيرة وسيأتي ذكرهما. ولا يبعد ان يكون بكر ومضر وربيعة وهم ثلاثة من امرائهم قد ارتحلوا بقبائلهم على اثر هذه النازلة فحلوا بالجزيرة اي ما بين النهرين واتخذوها وطناً وبهم لقبت ثلاث كور منها بديار بكر وديار مضر وديار ربيعة ولا تزال تدعى كذلك الى يومنا هذا. اما خبر السيل فانه لما اختط عبد شمس وهو الذي يعرف بسبأ ايضاً المدينة التي دعيت سبأ باسمه ثم سميت بعد ذلك بمأرب ابتنى فيها سداً او مصنعاً عظيماً تجتمع اليه المياه المنحدرة من الجبال فينتفع بها اهل المدينة وتكون فضلاً عن سد حاجاتهم من الشرب وسقي الارضين سبباً يملكون به قياد الامم التي قهروها اذ يكون امر الماء بيدهم. فكان هذا السد كجبل مشرف على المدينة وكانوا من الثقة بمتانته بحيث لم يخامرهم ادنى خوف من امكان تصدعه او تهدمه بل كان كثير منهم يبنون بيوتهم عليه[1] وكان الماء يرتفع فيه الى علو عشرين

---

[1] هكذا عبارة المؤلف ولو قال كانوا يبنون بيوتهم مستنداً اليه لكان اقرب الى الصواب. قال ابن خلدون في اوائل الكتاب الثاني من تاريخه في الخبر عن ملوك .لبين ان اهل مأرب اقاموا في جنات العرم

باعاً وكان لكل اصحاب بيت سقي اي حظ من الماء يصل اليهم بقنوات تتشعب من السد. قالوا ثم كان من امر اولئك القوم ان عتوا وتجبروا فسخط الله عليهم وقضى بقهرهم وتشتيتهم فارسل السماء عليهم بسيل شديد صدم السد فتهدم واندك ليلاً والناس نيام وجرف السيل مأرب وما حولها واهلها جميعاً. واستمر من بقي في اليمن من القبائل بعد هذه النازلة على طاعة ملوكهم الى نحو سبعين سنة قبل ظهور محمد وفي تلك السنة وجه النجاشي جيشاً الى اليمن لينقذ من فيه من النصارى من اضطهاد ملكهم الملقب بذي النواس وكان يهودياً غالياً في دينه فضيقت عليه الحبشة حتى اضطر ان يقتحم البحر بفرسه فغرق وذهب ملكه. وتعاقب على اليمن من بعده اربعة من ملوك الحبش الى ان قام سيف بن ذي يزن الحميري واستنجد بكسرى انوشروان وحصل منه على مدد كان التمسه اولاً من هرقل قيصر الروم ولم ينله فاستعاد الملك من الحبشة واجلاهم عن اليمن الا انه بقي فيه نفر منهم فقتلوه غيلة وصار الاكاسرة بعد ذلك يولون الملوك على اليمن حتى ظهر محمد واستولى عليه فخضع له باذان آخر

عن اليمين والشمال الى ان اجحفهم السيل»

ملوكه واسلم . قال ابو الفداء استمرت مدة ملك اليمن الفي سنة وعشرين سنة وقال غيره (١) انها استمرت ثلاثة آلاف سنة وانما وقع الخلاف في هذا لان مدة ملك كل من ملوكه لا تعلم على التحقيق

وقد تقدم ان الذين نزحوا من اهل اليمن على اثر سيل العرم اسسوا مملكتين خارجاً عن جزيرة العرب هما غسان والحيرة . اما مملكة غسان فانشأها قوم من الازد نزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا اليه وكان بالشام قبلهم عرب يقال لهم الضجاعمة من سليح فاخرجهم الغسانيون عن ديارهم ونزلوا مكانهم وبقيت البلاد في سلطانهم اربعمائة سنة وقيل ستمائة سنة وقال ابو الفداء بل ستمائة وست عشر سنة بالحساب المدقق. وكان من ملوكهم خمسة يسمى كل واحد منهم بالحارث (٢) وعامل احدهم على دمشق هو الذي امر ان تؤخذ ابواب المدينة ليقبض على بولس الرسول (٣) ثم تنصروا واستمروا على دين النصرانية الى ان

(١) الجنابي واحمد بن يوسف (٢) واليونانيون يخطئون في رسم هذا الاسم فيكتبونه وينطقون به ارتاس (٣) انظر رسالته الثانية الى اهل كورنثوس ١١:٣٢ واعمال الرسل ٨:٢٤

كان آخر ملوكهم وهو جبلة بن الايهم فرأى من هبوب ريح العرب ما حمله على ان يظهر الاسلام في خلافة عمر بن الخطاب لكنه لم يلبث ان ناله من عمر ما ساءه فارتد الى النصرانية ولحق بالقسطنطينية . اما مملكة الحيرة فقد اسسها مالك بن فهم من ولد كهلان في ارض الكلدان وهي العراق فتعاقب عليها بعده ثلاث ملوك ثم افضت بطريق المصاهرة الى الملوك اللخميين الملقبين بالمناذرة فما زالوا عليها بلا انقطاع يعتد به حتى قام خالد بن الوليد في خلافة ابي بكر فانتزع الملك من يد آخر ملوكهم وهو الذي كان يدعى بالمغرور ومدة هذه المملكة ستمائة سنة واثنتان وعشرون سنة وثمانية اشهر وكان ملوكها عمالاً للاكاسرة على العراق مثلما كان ملوك غسان عمالاً للقياصرة على الشام

اما الحجاز فاول ملوكه جرهم بن قحطان ثم تعاقب الملك في ولده الى ايام اسمعيل فلما تزوج اسمعيل بابنة ملكهم مضاض ولد له منها اثنا عشر ولداً فانتقل الملك الى واحد منهم وهو قيدار وذلك ان اخواله الجرهميين نزلوا له عنه وتوجوه. وجاء في بعض الروايات ان ذرية اسمعيل اخرجت جرهم عن ديارهم فنزحوا

الى جهينة وتقلبت بهم الاحوال فما زالوا يشقون تارة ويسعدون أخرى حتى بادوا قاطبة بسيل اصابهم الا ان ملك الحجاز لم يثبت بعد جلائهم عنه في يد امير واحد بل كانت كل قبيلة يسوسها رئيسها كحال عرب البادية في يومنا هذا وكان الحكم في مكة من نوع المشيخة وزمام امرها بيد قريش ولا سيما بعد اخذ قريش سدانة الكعبة من خزاعة ولبثت على ذلك الى ايام محمد

وكان في بلاد العرب عدا ما ذكرناه من الممالك الكبيرة عدة ممالك صغيرة وهي قبائل مستقلة وعليها امراء منها واهمها كندة ولكني اضرب عن تعدادها صفحاً اذ ليس من قصدي ان اكتب تاريخاً مطولاً للعرب ولا في ذلك كبير فائدة لما نحن فيه

ولبثت بلاد العرب بعد محمد في ايدي خلفائه زهاء ثلاثة قرون الى ان كانت سنة خمس وعشرين وثلثمائة للهجرة فاصبح قسم كبير منها في ايدي القرامطة وهم فرقة ظهرت لذلك العهد وعتا اصحابها وعاثوا حتى في مكة نفسها واضطر الخلفاء ان يؤدوا اليهم ضرباً من الجزية كي لا يتعرضوا للحجاج وسأعود الى الكلام عليهم في الفصل الثامن من هذه المقالة . ثم تولى امر

اليمن بعد ذلك امراء من آل طباطبا العلويين وكان ابتداء امارتهم على اليمن فيما يقوله بعض المؤرخين من عهد شرلمان . وسواء صح ذلك ام لا فمما لا شك فيه انه كان في المائة العاشرة للميلاد على اليمن ومصر امراء علويون او ممن يدعون انهم علويون[١] اما في ايامنا هذه فاصحاب دولة اليمن هم على الارجح من الايوبيين وذلك ان نفراً منهم كانوا قد استولوا على اليمن في القرن الثالث عشر للميلاد وتلقب كل واحد منهم بالخليفة والامام ولا يزالون يلقبون انفسهم بذلك الى يومنا هذا ولكن ليس كل اليمن في طاعتهم لان فيه ممالك مستقلة اشهرها فرتخ. ثم ان ملك اليمن لا يرثه الابن عن ابيه وانما يرثه من بيت الملك من يورثه وجوه الامة بالبيعة او من كان له منهم الحزب الاقوى

اما مكة والمدينة فلهما امراء من ذرية محمد وقد خلعوا ربقة الطاعة للخلفاء كما فعل ملوك اليمن وصار زمام الامر على التعاقب في واحد من بيوت اربعة من العلويين اي من ولد الحسن بن علي يدعون بالشرفاء لشرف نسبهم وهم بنو قادر وبنو موسى

(١) « لعل المؤلف يشير هنا الى الدولة الفاطمية »

وبنو هاشم وبنو قتادة . وقد مضى اليوم على بني قتادة خمسمائة سنة وامير مكة واحد منهم . اما المدينة فامراؤها من بني هاشم وكانوا على مكة قبل بني قتادة

وملوك اليمن اليوم كامراء مكة والمدينة في الأستقلال والخروج عن طاعة سلاطين الترك خلافاً لما زعم واحد من المؤلفين المحدثين. نعم انهم لكثرة ما انتشب بينهم من الحروب مهدوا السبيل لسليم الاول وابنه سليمان فبنيا اسطولاً بالسويس واغارا به على السواحل الشرقية من بحر القلزم فاستحوذا عليها وعلى قسم من اليمن ايضاً لكن خلفاءهما لم يقدروا على ضبط هذه الفتوح في ايديهم وليس للترك اليوم في بلاد العرب شيء سوى فرضة جدة الا ان عاملهم عليها قلما يطاع له امر

ومن هذا تعلم ان العرب لم ينفكوا منذ الطوفان الى يومنا هذا على استقلال تام وتشهد لهم بذلك آثار قديمة ليس لكثير من الامم مثلها فكم من قائد جيش زحف عليهم فعاد عنهم بالفشل وقد حاول ملوك بابل ونينوى ان يجعلوا لانفسهم في بلاد العرب قدماً راسخة فعجزوا عن ذلك خلافاً لما توهم قوم كما عجز الاكاسرة ان يضربوا على العرب الجزية وان اوهم ذلك ما كان

العرب يهادونهم به من اللبان في كل عام اذ لم تكن هذه المهاداة الا من وجه الموادَّة والمجاملة . ويدلك على انه لم يكن لهم شيء من الولاء على العرب ان كامبيس الفارسي لما سار بجيشه على مصر اضطر ان يستأذنهم في الاجتياز ببلادهم . وكذلك الاسكندر لما كسر شوكة الفرس هابته سائر الامم المجاورة وارسلت اليه الوفود الا العرب فانهم لم يهابوه ولم يرسلوا اليه وفداً فاحفظه ذلك عليهم ومن جراه وكذلك طمعاً منه في الاستيلاء على بلادهم الكثيرة موارد الثروة نوى فتحها وضمها الى مملكته فادركته المنية قبل ان يقدم على ما نواه ولو فعل لعله كان يلقى من العرب ما يثبت عنده انه ليس بالغلاَّب الذي لا يغلب ولا اعلم ان احداً ممن خلفه على الملك في مصر وآسيا تصدى للعرب بشيء . وكذلك قياصرة الروم لم يستطيعوا ان يفتحوا شيئاً من بلاد العرب نفسها وجهد ما قدروا عليه هو ان احدهم الذي يقال له يجي ضرب الجزية على بعض عرب الشام . ولم يتوغل احد من قوادهم او قواد غيرهم في بلاد العرب توغل ايليوس على عهد القيصر اوغسطس ولكنه لم يقدر على فتحها كما وهم قوم بل اضطر ان يقفل عنها خائباً من جلّ قصده وهلك

معظم جيشه بالامراض او بطوارق اخرى ولعل اخفاق سعي هذا القائد هو الذي ثبط الروم بعد ذلك عن التصدي لقهر العرب . ولا عبرة بما ضربه عاهلهم تريانوس من النقوش تذكراً لانتصاره على العرب كما انه لا يعتد بما قاله في ذلك خطباؤه ومؤرخوه الذين جعلوا ألسنتهم واقلامهم وقفاً على اطرائه فانه لم يستطع في الحقيقة ان يقهرهم حتى ان القطعة التي يقال انه اخذها من بلادهم وضمها الى مملكته لا تكاد تجاوز طرف البلاد الشمالي من ديار ثمود. وقال واحد من المؤرخين انها لما انتقضت عليه بعد ذلك زحف عليها بخيله ورجله ليردها الى الطاعة فلقي من اهلها ما اضطره الى القفول عنها خائباً

اما دين اكثر العرب في الجاهلية فهو الوثنية لان معظمهم كانوا صابئين وان كان فيهم كثير من النصارى واليهود والمجوس . واكتفي من الكلام على هذه الطائفة اعني الصابئين بتلخيص مقالاتهم وعباداتهم على وجه الايجاز دون الخوض في اصل دينهم وما قيل فيه اذ ليس ذلك من غرضي في هذا الموضع . فهم وان كانوا من جهة موحدين وكانت مقالاتهم في التوحيد على غاية من الاحكام الا انهم كانوا من جهة اخرى

مشركين يعبدون النجوم او الملائكة والعقول التي كانوا يزعمون انها حالة فيها وانها تدبر العالم عن امر الاله الاعظم. وكانوا يلتزمون فضائل النفس الاربع ويزعمون ان نفس الفاسق تعذب تسعة آلاف دور ثم تصير الى رحمة الله تعالى. وقد فرض عليهم ثلاث صلوات اولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة او اقل من ذلك بحيث ينقضي مع الطلوع ثماني ركعات في كل ركعة ثلاث سجدات. والثانية صلاة الظهر وهي خمس من تلك الركعات وسجداتها وتنقضي مع الزوال. والثالثة كالثانية وتنقضي مع الغروب. وكان لهم ثلاثة صيامات في السنة اولها ثلاثون يوماً والثاني تسعة ايام والثالث سبعة. وكانوا يكثرون من القرابين غير انهم ما كانوا يأكلون منها شيئاً بل كانوا يحرقونها وكذلك ما كانوا يأكلون الباقلى والثوم وبعض البقول والقطاني[1] وقد اختلف المؤرخون في تعيين قبلتهم فقال ابن العبري انها القطب الشمالي وقال غيره انها القطب الجنوبي وقال آخر انها مكة وقال رابع انهم انما كانوا يستقبلون النجم الذي اليه يصلون ولعل الصحيح في ذلك انهم ما كانوا في امر القبلة على

[1] قاله ابو الفرج الملطي المعروف بابن العبري

سنن واحد . وكان لهم حج بالقرب من حرّان بالجزيرة وهي ما بين النهرين حيث كان يسكن خلق كثير منهم وكانوا ايضاً يعظمون كعبة مكة واهرام مصر متوهمين ان هذه الاهرام مقابر شيث وابنيه ادريس[1] وصابي الذين يزعمون انهم وضعوا دين الصابئة اولاً ونشروه. فكانوا يضحون عند تلك الاهرام بديك وعجل اسود ويصعدون بخوراً. اما كتبهم فما عدا كتاب الزبور الذي لا يقرأون غيره من صحيح الكتب المنزلة قد كان لهم كتب اخرى يعتقدون انها منزلة مثله ومنها كتاب بالكلدانية يشتمل على كثير من المواعظ الادبية يدعونه كتاب شيث . ويزعمون انهم انما تلقبوا بالصابئة من صابي بن شيث المتقدم ذكره لكن الارجح انهم دعوا بذلك من لفظ صبا او صباوت اي الجنود السماوية التي كانوا يعبدونها. وكثيراً ما يدعوهم اهل السياحة بنصارى يوحنا المعمدان وهم انفسهم يدعون انهم من تلاميذه ولهم ضرب من المعمودية هي اعظم مشابهة فيهم للنصارى وهذا الدين هو واحد من الاديان التي تغاضى محمد

---

[1] « وهو اخنوخ »

عنها بشرط اداء الجزية وكثيراً ما يذكر القرآن اصحابه في جملة اهل الكتاب

فعلى هذا تكون وثنية العرب باعتبار كونهم صابئة منحصرة في عبادة النجوم والملائكة وتماثيلهم وهم يكرمونهم من حيث هم آلهة ثانية عندهم ويستشفعونهم الى الاله الاعظم وهو الله تعالى وذلك ان العرب ما كانوا يعترفون الا باله واحد اعظم هو خالق الاكوان ورب العالمين وكانوا يدعونه الله تعالى اما معبوداتهم الاخرى فهي دونه وكانوا يدعونها الالاهات. ولما لم يفهم اليونانيون معنى هذه الكلمات اي الله تعالى والالاهات اتبعوا ما جرت به عادتهم من رد اديان الامم كافة الى اصل واحد هو دينهم اي دين اليونان ومن ثم وضعوا لكل امة آلهة من عندهم تقابل آلهتها فزعموا انه لم يكن للعرب سوى الهين او معبودين هما ارتلت وأليلات كما يكتب عندهم لفظ الله تعالى والالاهات خطأ وادعوا ان هذين المعبودين ليسا سوى باخوس واورانيا. وانما خصصوهما بالعرب دون سواهما من آلهتهم لان احدهم باخوس وهو من اعظم معبوداتهم نشأ في بلاد العرب على ما زعموا وثانيهما اعني اورانيا وتفسيره

السماء او الفلك انما توهموه من معبودات العرب لما عاينوا من شدة تكريمهم للنجوم. ولنا على ما قلناه من ان العرب ما كانوا يعترفون الا باله واحد ادلة جمة نكتفي بواحد منها وهو قولهم في التلبية لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك[١] اذا علمت هـذا تبين لك انهم لم يكونوا يعدون طواغيتهم آلهة تستحق العبادة في انفسها وان كانوا يقربون لها القرابين كما كانوا يقربون لله بل كثيراً ما كانوا يخصونه باقل الانصبة منها حتى طعن فيهم محمد[٢] وذلك انهم كانوا اذا غرسوا غرساً او حرثوا حرثاً خطوا في وسطه خطاً فقسموه اثنين وقالوا ما دون هـذا الخط لالهتهم وما وراءه لله فان سقط مما جعلوه لآلهتهم شيء في ما جعلوه لله ردوه وان سقط مما جعلوه لله شيء في ما جعلوه لآلهتهم اقروه واذا ارسلوا الماء في الذي جعلوه لآلهتهم فانفتح في الذي سموه لله سدوه وان انفتح من ذلك في هـذا قالوا اتركوه فانه فقير اليه وليس الله فقيراً الى شيء[٣] وكذلك اذا رأوا ان النصيب الذي عينوه لله ازكى من الذي عينوه لآلهتهم بدلوا بينهما لكنهم لم يبدلوا

(١) الشهرستاني (٢) «سورة ٦:١٣٧ وما يليها» (٣) كتاب نظم الدر

بينهما اذا اتفق الخلاف[1] فلما جاء محمد نهى قومه عن هـذه الوثنية اي عبادة آلهة ثانية هي شركاء الله كما كانت العرب تدعوها وردهم الى عبادة الاله الحق وحده. ومن هنا تعلم جهل من رمى المسلمين بالوثنية[2] فما هم بوثنيين وان كان في دينهم ما يطعن فيه من وجوه اخرى. وانما انقاد العرب بسهولة الى عبادة النجوم لما رأوه من تغيير الرياح عند طلوعها وافولها وهي ما يدعونه بالانواء وذلك بعد ان رصدوا حركاتها مدة متطاولة حتى افضى بهم الامر الى ان عزوا اليها قدرة الربوبية وتوهموا انها هي التي تتفضل عليهـم بالغيوث التي تعد منة من اعظم المنن في بلاد قاحلة كبلادهم وقد لمح القرآن الى هذا الاعتقاد الباطل

وكان للعرب كما كان لاهل الهند (اذ بين هاتين الامتين عظيم مشابهة في المعتقدات) سبعة بيوت عبادة شهيرة للسيارة السبعة احدها يدعى بيت غمدان بناه الضحاك في صنعاء اليمن تعظيماً للزهرة فهدمه الخليفة عثمان[3] وبقتل عثمان هـذا تمت

---

(١) البيضاوي في تفسير الآية ١٣٧ وما يليها من سورة ٦

(٢) «قال المعرب لعل له عذراً وانت تلوم الا ترى تهافتهم على تقبيل الحجر الاسود»

(٣) الشهرستاني

النبوة التي زعم الجنابي انها كانت منقوشة على البيت وهي غمدان هادمك مقتول ويقال ان الكعبة كانت معبداً لزحل[١]

ومع ان هذه النجوم والكواكب كانت معبودات للامة كلها عامة فقد كان لكل قبيلة واحد منها تنفرد بعبادته خاصة فكانت حمير تعبد الشمس وميسم[٢] الدبران ولخم وجذام المشتري وطيء سهيلاً وقيس الشعرى العبور[٣] واسد عطارد وقد شاع بين عبدة الشعرى ذكر رجل يقال له ابو كبشة وزعم قوم انه وهب جد محمد لامه وقال غيرهم انه من خزاعة. فافرغ ابو كبشة جهده في رد قريش عن عبادة اصنامهم ودعاهم الى عبادة الشعرى فلقب محمد بابن ابي كبشة لانه حاول كجده ان يردهم عن اصنامهم وقد لمح القرآن تلميحاً خصوصياً الى عبادة الشعرى[٤]

اما الملائكة او العقول التي كانت العرب تعبدها فقد ذكر

---

(١) الشهرستاني (٢) «لعل هذا الاسم مصحف عن سليم او تميم او تيم» (٣) «قال في صبح الاعشى هما شعريان العبور والغميصاء فالعبور هي التي كانت تعبد في الجاهلية» (٤) سورة النجم آية ٥٠ وتفسير البيضاوي

القرآن منها ثلاثة مؤنثة الاسماء[1] وهي اللات والعزى ومناة وكانوا يدعونها إلاهات وبنات الله. ولم يكونوا يقصرون هذه الالقاب على الملائكة المعبودة فقط بل كانوا يلقبون بها تماثيلها ايضاً لاعتقادهم ان الروحانية تفيض من عند الله على هذه التماثيل او انها هياكل للملائكة تحيا بهم. وانما عبدوا تلك الالاهات لانهم توهموا انها تشفع فيهم عند الله تعالى فكانت ثقيف تعبد اللات وكان لها بيت عبادة في نخلة فوجه محمد المغيرة وابا سفيان وذلك في السنة التاسعة من هجرته فكسرا الصنم فحزن الثقفيون اهل الطائف ولا سيما نساؤهم اشد الحزن عليه ولشدة تعلق قلوبهم به سألوا محمداً عند عقد الصلح ان يدع لهم اللات ولا يهدمها الى ثلاث سنين فابى هذا الشرط فنزلوا الى شهر فلم يجبهم[2] ولاشتقاق هذا الاسم اوجه شتى لكن اقربها الى الصواب انه مشتق من المادة المشتق منها اسم الله فيكون معناه الالاهة على التأنيث[3]

---

(١) سورة النجم ايضاً (٢) تاريخ ابي الفداء (٣) «تاء اللات ليست اصلية بل هي هاء تأنيث وانما كره البدل فيها لئلا تشبه اسم الله كما ذكره ابن دستوريه»

اما العزى فكانت لقريش وكنانة ولقوم من بني سليم[١] وقال الفيروزابادى انها سمرة عبدتها غطفان اول من اتخذها ظالم ابن اسعد بنى عليها بيتاً وسماه بساً وكانوا يسمعون فيها الصوت فبعث محمد اليها خالد بن الوليد في السنة الثامنة من الهجرة فهدم البيت وقطع السمرة واحرقها فخرجت سادنتها ناشرة شعرها داعية ويلها واضعة يدها على رأسها فجعل خالد يضربها بالسيف حتى قتلها لكنه قال في موضع آخر ان زهير ابن جناب هو الذي هدم البيت وقتل ظالماً لانه بناه ليصرف الحجاج عن مكة ويجتزيء الناس به عن الكعبة. والاسم مشتق من العزة وهو مؤنث الاعز

اما مناة فكانت تعبدها هذيل وخزاعة وهما قبيلتان منازلهما بين مكة والمدينة وقال بعضهم عبدتها الاوس والخزرج وثقيف ايضاً[٢] وكانت صخرة عظيمة فكسرها رجل اسمه سعد[٣] وذلك في السنة الثامنة للهجرة وهي سنة شؤم على اصنام العرب. واسم مناة مشتق من منى اي اراق لما يراق عندها

---

[١] الجوهري والشهرستاني [٢] الشهرستاني وابو الفداء وغيرها
[٣] البيضاوي والزمخشري في تفسيريهما

من دماء الاضاحي ومن هذا الاصل ايضاً اشتق اسم وادي منى بالقرب من مكة حيث ينحر الحجاج هديهم في يومنا هذا

وقد جاء في القرآن ايضاً ذكر خمسة اصنام للعرب وهي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر فنذكرها اولاً ثم نأخذ في ذكر باقي اصنامهم . زعموا ان هذه الاصنام متقدمة على الطوفان وان نوحاً كان ينذر الناس ليردهم عن عبادتها وانها كانت تماثيل اناس صالحين اتقياء في عصرهم وكانت العرب باديء بدء تكرم تماثيلهم تكريماً دنيوياً فقط ثم عبدوها على توالي الزمان وألّهوا اصحابها. وكان ود على صورة رجل يرمز به الى السماء وكانت كلب تعبده بدومة الجندل . اما سواع فكانت في صورة امرأة وكانت تعبدها همدان وقيل بل عبدتها هذيل بالرقة . وقيل ان الطوفان دفن هذا الصنم فلبث تحت الماء ما شاء الله حتى استثاره ابليس فعبدته هذيل وحجت اليه. وكان يغوث في صورة اسد وكانت تعبده مذحج وغيرها من عرب اليمن واسمه مشتق من الغوث . وكان يعوق لمراد وقال غيره لهمدان وكان في صورة فرس . زعموا انه كان رجلاً تقياً عابداً فمات فجزعوا عليه جداً فجاءهم ابليس في صورة

انسان وضمن لهم ان يعيده الى الحياة وزين لهم تخفيفاً لجزعهم عليه ان يصوروا صورته في محراب مسجدهم فيكون نصب اعينهم عند الصلاة فصوروه من صفر ورصاص ووضعوا معه في مساجدهم تماثيل سبعة رجال آخرين من صالحيهم ثم تمادى بهم الامر الى ان اتخذوا تلك التماثيل اصناما يعبدونها[1] والاسم مشتق من عاقة اي ثبطه. اما نسر فكانت تعبده حمير بذي الكلاع وكان في صورة نسر كما يدل على ذلك اسمه

وكان في مدينة باميان من عمل كابلستان صنمان طول كل واحد منهما خمسون ذراعاً زعم قوم انهما يغوث ويعوق او مناة واللات. وقالوا ايضاً ان هنالك بالقرب منهما صنماً آخر اصغر منهما قليلاً يقال له نسرم او نسر وهو في صورة عجوز وان هذه الاصنام الثلاثة كانت جوفاً وذلك لاجل الكهانة والعرافة غير انه يترجح عندنا انها اصنام غير اصنام العرب المتقدم ذكرها. وكان ايضاً في مدينة سومنات بالهند صنم اسمه لات او اللات طوله خمسون باعاً من حجر واحد وقد جعلوه في وسط بيت عبادة تدعمه ست وخمسون اسطوانة

---

[1] تلخيص ما في القاموس والمستطرف

من الذهب المصمت [1] فلما فتح محمود بن سبكتكين ذلك القطر من الهند كسر الصنم بيده

وكان للعرب اصنام كثيرة غير التي عددناها الا ان وصفها بالتفصيل يطول ولما كان القرآن لم يذكرها باسمائها كانت بمعزل عما نحن فيه وحسبنا ان نقول اجمالاً ان كل اهل دار اتخذوا في دارهم صنماً يعبدونه فاذا اراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب وكان ذلك آخر ما يصنع اذا توجه الى سفره واذا قدم من سفره بدأ به قبل ان يدخل الى اهله [2] وكان لهم بالكعبة وما حولها ثلاثمائة وستون صنماً على عدد ايام سنتهم [3] وكان اعظمها هبل وهو صنم قدم به من البلقاء عمر بن لحي وزعم انه يمطرهم اذا استمطروه وكان في صورة رجل من العقيق الاحمر فانكسرت احدى ذراعيه بعارض ما فجعلت له قريش ذراعاً من ذهب. وكان بيده سبعة ازلام وهي سهام

---

[1] «قال المعرب هذا من اوهام القصاص المولعين بالغريب فاعل الاساطين كانت مغشاة بصفائح الذهب اذ ليس من المحتمل ان تكون كلها ذهباً مصمتاً» [2] المستطرف والجنابي [3] الجنابي وابو الفداء والشهرستاني

بلا نصل ولا ريش كانت العرب في الجاهلية تستقسم بها[١]
وزعم قوم انه صورة ابراهيم التي كسرها محمد في سنة ثمان
للهجرة وذلك حين فتح مكة ودخل الكعبة فوجدها فيها[٢]
وكان حولها عدد كثير من تماثيل الملائكة والانبياء وفيهم
اسمعيل نفسه وفي يده الازلام[٣]

ومن اصنامهم ايضاً اساف في صورة رجل ونائلة في
صورة امرأة جيء بهما من الشام ووضع احدهما في الصفا
والآخر في المروة وزعمت العرب انهما جرهميان وان اساف
هو ابن عمرو ونائلة بنت سهل فقجرا في الكعبة فمسخهما الله
حجرين[٤] ثم عبدتهما قريش واشطوا في ذلك وغلوا حتى ان
محمداً مع انكاره هذه العبادة عليهم لم يسعه الا اقرار عادتهم في
زيارتهما فادعى انهما من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا
جناح عليه ان يطوف بهما[٥] وآخر ما نذكره من اصنامهم قطعة
حيس[٦] اتخذتها حنيفة صنماً في الجاهلية غير انهم لم يكونوا

---

[١] صفي الدين بن عبد الحق [٢] ابو الفداء [٣] «المسعودي»
[٤] الجنابي وابن الاثير «والمسعودي» [٥] سورة البقرة ١٥٣ [٦] «هو
تمر يخلط بسمن واقط فيعجن ويدلك حتى يمتزج ثم يندر منه نواه»

يأكلونها الا اذا ادركتهم مجاعة[١]

ولم يكن اكثر اوثان العرب ولا سيما مناة سوى احجار كبيرة غير متقنة الصنعة واول من ادخل عبادتها بينهم بنو اسمعيل وذلك انهم نموا وتكاثروا حتى ضاقت بهم ارض مكة فاضطر كثير منهم ان يتخذوا منازل جديدة ينزحون اليها فكانوا اذا انتزحوا حملوا شيئاً من حجارة هذه الارض المباركة وكانوا في اول امرهم ينصبونها ويطوفون بها كطوافهم بالكعبة ثم افضى بهم ذلك مع توالي الزمان الى عبادة وثنية محضة ونسيت ذرية اسمعيل دين ابائهم كل النسيان حتى طفقوا يعبدون كل ما استحسنوه من الحجارة[٢]

واعلم ان الوثنيين من العرب اصناف فمنهم من انكر الخلق والبعث وعزا الاول الى الطبع المحيي والثاني الى الدهر المفني ومنهم من اقر بكلا الامرين[٣] فكان بعض هؤلاء اذا حضره الموت اوصى انه تشد راحلته عند قبره ليحشر راكباً والا حشر راجلاً وذلك من العار عندهم فكانوا يربطون الناقة معكوسة الرأس الى مؤخرها ويتركونها هكذا بلا علف ولا ماء حتى

---

(١) المستطرف والجوهري (٢) الجنابي (٣) ابن العبري والشهرستاني

تموت[1] ومنهم من يعتقد التناسخ فيقول اذا مات الانسان او قتل اجتمع دم الدماغ فانتصب طائراً يسمى هامة فيرجع الى رأس القبر كل مائة سنة وقيل ايضاً ان هـذا الطائر نفس وانه ينشط من جسم الانسان اذا قتل ولا ينفك يصرخ اسقوني اسقوني اي بدم قاتلي حتى يأخذ بثار القتيل فيطير[2] وقد حرم محمد هذه العقيدة.اما استيفاء الكلام على غير ذلك من عادات العرب وعقائدهم الباطلة التي حرم محمد بعضها واباح بعضاً فليس هذا موضعه

ولنغادر الآن الوثنيين من العرب ولنلتفت الى من كان يدين منهم بدين اقرب الى العقل من الوثنية فنقول ان الفرس كانوا لقرب بلادهم من بلاد العرب وكثرة مخالطتهم لهم قد ادخلوا المجوسية في بعض القبائل وخاصة في تميم[3] وذلك من قبل الاسلام بمدة متطاولة . ولم يكن محمد يجهل هذا الدين بل اخذ عنه شيئاً كثيراً كما ستقف عليه في موضعه ان شاء الله . ولما زحف الروم على اليهودية في اواخر المائة الاولى للميلاد

---

(1) الشهرستاني والمستطرف (2) الشهرستاني والمستطرف
(3) المستطرف

واهلكوها هاجر كثير من اليهودية الى بلاد العرب فهودوا كثيراً من قبائلها ولا سيما بني كنانة وبني الحارث بني كعب وكندة[1] ثم قويت شوكتهم فيها على كرور الدهر فتملكوا عدة بلاد وحصون . وكانت اليهودية معروفة عند العرب قبل ذلك بمائة سنة او نحوها وفي ظن بعضهم ان اول من دخلها في مشركي حمير منهم ابو كرب اسد الملمح اليه في القرآن[2] وكان ملكاً على العرب قبل محمد بسبعمائة سنة وكان بعض خلفائه يهوداً ايضاً ومنهم يوسف الملقب بذي نواس الذي اشتهر بالغلو في الدين وشدد الاضطهاد على كل من لم يتهود من رعيته حتى كان يعيثهم باصناف من العذاب وكان يتخذ اخاديد من النار يقذفهم فيها فلقب لذلك بصاحب الاخدود وقد ورد ذكر هذا الاضطهاد في القرآن[3] وكذلك النصرانية كانت منتشرة في هذه الامة قبل محمد ومن الناس من يزعم ان بولس الرسول هو اول من دعا العرب الى النصرانية الا ان ذلك مما لا نعلمه يقيناً لكنه من المحقق ان ما ألمّ بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد

---

(1) المستطرف (2) الدخان :٣٦ وسورة ق : ١٣ (3) البروج :٦ « وانظر ايضاً كتاب المعارف لابن قتيبة »

واختلال الاحوال في صدر المائة الثالثة للميلاد قد اضطر كثيرين من نصاراها ان يلجأوا الى بلاد العرب طلباً للحرية وكان معظمهم يعاقبة فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة[١] واهم القبائل التي تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيء وقضاعة واهل نجران والحيرة[٢]

اما اهل نجران فانهم تنصروا على عهد ذي نواس[٣] ولعلهم بعض من تنصر على اثر الحادثة الآتية وقد جرت في عهد ذي نواس او قبله بقليل هذا ان صح انها جرت . حكي والله اعلم ان يهود حمير دعوا من يليهم من النصارى الى مناظرة تجري على مسمع ومرأى من الملك وخواصه وعامة الناس فاجابوا واستمر الجدال ثلاثة ايام وكان غرجنتيوس اسقف ظفار يناظر عن النصارى وحبرٌ يقال له هربانوس يناظر عن اليهود . ففي ثالث ايام المناظرة اقترح هربانوس على النصارى تحدياً لها انه ان كان يسوع الناصري حياً في الحقيقة وهو في السماء كما تزعم عباده يسمع تضرع دعاته ويستجيب ابتهالهم فليتجلى لهم من السماء فيؤمنوا به وهتف اليهود طراً بصوت

---

[١] ابن العبري [٢] المستطرف [٣] الجنابي

واحد ارونا مسيحكم فنتنصر . فثارت للحين زوبعة في الجو وتلألأ البرق وقصف الرعد وظهر المسيح في الجو تكتنفه هالة من اشعة المجد وهو يخطر على غمامة ارجوانية وبيده سيف وعلى رأسه اكليل يفوق كل ثمن ونطق على رؤوس الملأ بهذه الكلمات هأنذا الذي صلبني اباؤكم انجلي لابصاركم ثم غيبه السحاب عنهم . فعج النصارى هاتفين يارب ارحم وعمي اليهود كافة ولم يرتد اليهم بصرهم حتى صبغوا بماء المعمودية متنصرين

اما نصارى الحيرة فقد زاد عددهم كثيراً بمن انضم اليهم من العرب الذين لجأوا الى الحيرة هرباً من اضطهاد ذي نواس وكان ملك الحيرة النعمان ابو قابوس الذي قتل قبل مولد محمد ببضعة اشهر قد تنصر على اثر الحادثة الآتية وذلك انه سكر ذات يوم وكان له نديمان يحبهما محبة شديدة فامر في سكره بدفنهما حيين ولما صحا ندم على ما فعل واشتد جزعه عليهما وبنى فوقهما بنائين طويلين يقال لهما الغريان وجعل لنفسه كل سنة يوم بؤس ويوم نعيم يجلس فيهما بين الغريين فكان يكرم من وفد عليه في يوم النعيم ويقتل من وفد عليه في يوم البؤس ويطلي الغريين بدمه وجعل ذلك سنة له . فاتفق ان وفد عليه في يوم

البؤس رجل من طيّ كان قد قراه وآواه في يوم خرج النعمان فيه يتصيد فذهب به فرسه في الارض وانفرد عن اصحابه فلما نظر اليه النعمان ساءه وفوده في ذلك اليوم لانه وجد نفسه بين امرين اما ان ينقض سنته بتخلية سبيله واما ان ينتهك بقتله حرمة الضيافة التي كانت العرب اشد الناس حرصاً على صون حقوقها. فعرض الطائي عليه ان يؤجله حولاً كاملاً من ذلك اليوم الى مثله في القابل بشرط ان يقيم له ضميناً يضمن رجوعه في نهاية الاجل ليقتل فرق له واحد من خاصة الملك وقال للنعمان ابيت اللعن علي ضمانه فرضي النعمان بذلك وامر للطائي بخمسمائة ناقة فانصرف الى اهله ولما حال الحول ولم يرجع امر النعمان ان يجردوا الضمين ليقتل فقال له وزراؤه ليس لك ان تقتله حتى يستوفي يومه فتركه وهو يشتهي ان يقتله ليسلم الطائي فبينما هم في ذلك اذا بالطائي قد اقبل فلما نظر اليه النعمان قال له ما الذي جاء بك وقد افلتّ من القتل قال الوفاء قال وما دعاك الى الوفاء قال ديني قال وما دينك قال النصرانية قال فاعرضها علي فعرضها عليه فتنصر النعمان واهل الحيرة جميعاً وترك تلك السنة من ذلك اليوم وامر بهدم الغريين وعفا عن الطائي

والضمين وقال ما ادري ايكما اكرم واوفى اهـذا الذي ضمنه وانا لا اكون ألأم الثلاثة[١]

وليس النعمان اول من تنصر من ملوك الحيرة فقد كان جده المنذر نصرانياً وبنى الكنائس العظيمة في دار ملكه[٢] ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد في بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد انه كان للنصارى اساقفة في مواضع جمة منها لتنتظم بهم سياسة الكنائس وقد تقدم ذكر اسقف ظفار وقال بعضهم كانت نجران مقام اسقف[٣] وكان لليعاقبة الذين اسلفنا ان معظم نصارى العرب منهم اسقفان في بلاد العرب تحت رئاسة مفريانهم (اي مطرانهم) وكان احدهما يدعى اسقف العرب باطلاق اللفظ وكان مقامه باكولة وهي الكوفة عند ابن العبري او بلدة اخرى بالقرب من بغداد عند ابي الفداء[٤] وثانيهما يدعى اسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة اما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى اسقف

---

(١) الميداني وغيره (٢) تقويم البلدان لابي الفداء (٣) صاحب مراصد الاطلاع « ومن اساقفتها قس بن ساعدة خطيب العرب وفصيحها » (٤) تقويم البلدان

واحد تحت رئاسة بطريركهم[١]

هـذه اشهر اديان العرب في الجاهلية الا انه لما كانت بلادهم بلاد حرية نشأ عن ذلك بالطبع اتساع المجال لآرائهم في الدين فذهب بعضهم في امره مذاهب اخرى. ففشا في قريش خاصة المذهب المعروف بالزندقة[٢] وهي بدعة يظن انها كثيرة المشابهة لبدعة الصادوقيين بين اليهود ولعلها لا تختلف كثيراً عن مذهب الفلاسفة الذين يؤمنون باله واحد وان انكروا الوحي اذ كان في قريش قبل محمد خلق كثير يؤمنون بالله وحده ولا يشوبهم شرك او وثنية وما كانوا مع ذلك يدينون بشيء من الاديان الفاشية في بلادهم

وكانت العرب قبل محمد كما لم يزالوا بعده طبقتين اهل مدر وهم الحواضر وسكان القرى واهل وبر وهم الذين يعيشون في البر تحت الخيام وكان اهل المدر يرتزقون من الزرع والنخيل والماشية وانتحال كثير من الحرف ولا سيما التجارة التي اشتهروا بطول الباع فيها منذ القديم اي من زمن يعقوب[٣]

---

(١) السمعاني في المكتبة الشرقية (٢) المستطرف (٣) داشارة الى تجار العرب الذين اشتروا يوسف بن يعقوب من اخوته كما جاء في

فكان لقريش شديد انصباب عليها وكان محمد في حداثة سنه يرشح نفسه لها اذ كانت عادة العرب ان يتبع الابن منهم حرفة ابيه . اما اهل الوبر فكانت معيشتهم من رعي السائمة ونهب ابناء السبيل احياناً وكان قوتهم من البان الابل ولحومها وكانوا ينتجعون منابت الكلا ويرتادون مواقع القطر فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه فلا يزالون في حل وترحال وكان ذلك دأبهم زمان الصيف والربيع فاذا جاء الشتاء واقشعرت الارض انقبضوا الى ارياف العراق واطراف الشام . وانما اختار معظم ذرية اسمعيل هذا الضرب من العيش لانه اشبه بما كان ابوهم عليه ومن احب الوقوف على تفاصيل عيش البداوة فليطلبه من مواضعه من الكتب المسهبة في هذا الشأن

اما العربية فلا شك في انها من اقدم اللغات وقد ابتدأت بعد قليل من بلبلة الالسن في بابل اذا لم نقل انها ابتدأت اذ ذاك وكان فيها لغات تختلف احداهن عن الاخرى اختلافاً كثيراً اشهرهن الحميرية لسان حمير وغيرهم من العرب العاربة

التوراة » (انظر سفر التكوين ٣٧ : ٢٨ و٢٩)

ثم لغة قريش الا ان الحميرية هي اقرب تلك اللغات الى الاصل السرياني اذ العرب انفسهم يقرون بان جدهم يعرب هو اول من انعدل لسانه عن السريانية التي ولد فيها الى العربية وبأن السريانية اقدم[1] وهو ما عليه جمهور الشرقيين. ومع ذلك فلغة قريش هي التي تعرف بالعربية الفصحى او اللسان العربي المبين كما دعاها القرآن[2] الذي بها كتب. وفي رأي احد علمائنا انها انما كانت كذلك لان اباهم اسمعيل الذي تعلمها من جرهم قربها الى الاصل العبراني لكن الارجح عندي ان ما في لغة قريش من السلاسة والفصاحة مسبب عن كونهم سدنة الكعبة ومقامهم في مكة التي هي في وسط بلاد العرب بحيث كانوا بمعزل عن مخالطة الاعاجم وما يدخل بسببهم على اللغة من الفساد وهذا فضلاً عن انها كانت مجمعاً للعرب يختلفون اليها من كل فج لا لحج البيت فقط بل لاصلاح ذات بينهم ايضاً فكانت قريش تأخذ من اشعارهم وخطبهم كل ما تراه فصيحاً رقيقاً وتضمه الى لغتها حتى اجتمع فيها من باقي اللغات كل ما كان ناصعاً جزلاً

---

(1) انظر جمهرة ابن دريد وصحاح الجوهري (2) سورة الاسرى ١٠٥

ثم ان العرب كثيراً ما يطنبون في مدح لسانهم ولعل اطنابهم لا يخلو من حق فان العربية تفضل كثيراً من اللغات الاخرى وذلك من عدة اوجه فانها من الاتساع بحيث لا يقدر ان يحيط بجميع علمها انسان غير نبي[١] وهذا فضلاً عما فيها من بلاغة العبارة وهم مع ذلك يقولون ان اكثرها قد فقد. ونحن اذا اعتبرنا انه قد اتى على هؤلاء القوم دهر طويل لم يكن لهم فيه حظ من فن الكتابة لم نستغرب قولهم. نعم ان ايوب الصديق وهو ابن بلادهم كان له المام بهذا الفن[٢] وكانت حمير ايضاً تعرفه من قبل محمد بقرون كما تدل على ذلك آثار ونقوش عليها كتابة بالخط المسند حروفها منفصلة انفصالاً غير بين ولم يكونوا يعلمونها ولا يبيحون استعمالها للعامة الا باذن[٣] الا ان باقي العرب وخاصة اهل مكة لم يكن لهم بالكتابة ادنى المام اللهم الا من كان منهم يهودياً او نصرانياً. واول من استنبط صور الحروف العربية مرامر ابن مرة الانباري فاخذها بشار

(١) «جاء في مقدمة تاج العروس قول بعض الفقهاء كلام العرب لا يحيط به الا نبي» (٢) سفر ايوب ١٩: ٢٣ «وقد انكر قوم ان يكون من العرب» (٣) مقدمة ابن خلدون في فصل الخط والكتابة

الكندي عن اهل الانبار فيما يقال ونقلها الى مكة وذلك قبل الاسلام بقليل وهي غير الحروف الحميرية وبها كتب القرآن في اول الامر. ومضى على العرب دهر طويل وهم يستعملونها على قلة ما كان فيها من الاحكام اذ هي ان لم تكن عين الخط الكوفي الذي يرى به الى يومنا هذا كثير من النقوش والكتب القديمة فهي لا تبعد عنه كثيراً. اما الحروف المتقنة الجميلة الصورة التي يكتبون بها الآن فقد استنبطها من الكوفي ابو علي محمد بن مقلة وزير المقتدر والقاهر والراضي من الخلفاء العباسيين وذلك بعد الاسلام بزهاء ثلثمائة سنة ثم هذبها ونقحها علي بن هلال المعروف بابن البواب وهو متأخر عن ابن مقلة بنحو قرن فطار لذلك صيته في الآفاق [١] الا انه يقال مع ذلك ان الذي نقلها الى الصورة الحاضرة هو ياقوت المستعصمي كاتب المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ولذلك لقب بالخطاط [٢]

---

[١] وقيل ان اخا ابن مقلة واسمه ابو عبد الله الحسن هو الذي نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين وان ابن العميد الكاتب اتقنها وهذبها بعد ان كان عبد الحميد قد غير فيها وبدل حتى جعلها على الصورة الحاضرة. وانظر ترجمة ابن البواب في وفيات الاعيان

[٢] « قال بعضهم قصارى ما فعله ياقوت انه زاد طريقة ابن مقلة

وكانت العرب تفتخر بثلاثة اشياء . اولها الفصاحة في لسانهم. ثانيها المهارة في الفروسية وحمل السلاح . ثالثها الجود وقرى الضيف فالفصاحة كانوا يمرنون انفسهم عليها بتأليف الخطب او نظم الشعر وكانت خطبهم نوعين منظومة ومنثورة تشبيهاً لها بمنظوم الدر ومنثوره وكانوا يحرصون على التبريز في كلا النوعين فكان من استطاع منهم في المحافل ان يستميل قومه الى الاقدام على امر ذي بال او الاحجام عن امر ذي تهلكة او بذل لهم النصح يلقب بالخطيب وهذا لقب يطلق اليوم على الواعظ. وكان اسلوبهم في الخطابة مخالفاً لخطباء اليونان والروم فكانت فقراتهم كجواهر منثورة لا ارتباط لبعضها ببعض ولذا كانت اكثر ما تروع مستمعيها بجزالتها ونصاعة الفاظها ودقة حكمها . وكانوا من الاقتناع بتبريزهم على غيرهم في هذا الاسلوب بحيث يزعمون انه ليس في الامم كلها من يعرف فن الخطابة حق معرفته سوى العرب والفرس الا ان العرب اخطب منهم . واما الشعر فكانوا ينزلونه منزلة عالية حتى كانوا اذا استطاع الرجل منهم ان يقول الشعر المنسجم الرقيق في نازلة

اتقاناً وتحسيناً »

ما عدّ ذلك منه كياسة ودليلاً على كرم محتده بل كانوا في محاوراتهم الاعتيادية كثيراً ما يتمثلون بالابيات السائرة من نظم فحول الشعراء. وكان الشعر عندهم بمنزلة ديوان يحفظون به المكارم والمناسب ويقيدون فيه الايام والمناقب ويستودعونه حفظ حقوق القبائل فلذلك كان الشاعر المجيد يحسب فخراً لقبيلته وكانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر صنعت الاطعمة واتت القبائل فهنأتها بذلك واجتمعت النساء يضربن بالمزاهر كما يصنعن في الاعراس وتتباشر الرجال والولدان لانه حماية لاعراضهم وذود عن احسابهم وتخليد لمآثرهم وصيانة للسانهم ورشادة لذكرهم[1] كل ذلك كان في شعرهم فهو ديوان علمهم ومنتهى حكمتهم به يأخذون فيما يعرفونه من امر المعاش والمعاد واليه يرجعون في كل ما يشجر بينهم فلا غرو ان يكون ذلك باعثاً على التهانئ. وكان التهنئة شيئاً عزيزاً عندهم لا يبذلونه الا في احوال ثلاثة يعدونها خليقة به فكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد او شاعر ينبغ فيهم او فرس تنتج. ثم انهم حرصاً على بقاء روح المفاخرة والمنافسة

---

(١) « ابن رشيد في العمدة وانظر ايضاً في مقدمة شرح الحماسة ما قاله التبريزي في ذلك »

في صدور شعرائهم كانت قبائلهم تجتمع مرة في كل سنة بعكاظ وهو موضع قد اشتهر بذلك وكانت تقام فيه ايضاً سوق في يوم الاحد من كل اسبوع فكان اجتماعهم يستمر شهراً كاملاً يتبايعون فيه ويتناشدون الشعر ويتعاكظون اي يتفاخرون ومن هذا دعي الموضع بعكاظ . وكانت القصائد التي يحكم لها بالتبريز تعلق في خزانة الملك كما علقت القصائد السبع المشهورة ومن اجل ذلك دعيت بالمعلقات لا من اجل تعليقها في الكعبة كما قال قوم . على انها كانت ايضاً تعلق في الكعبة بامر الامة مكتوبة في ثوب قبطي بماء الذهب ولذلك تدعى بالمذهبات ايضاً. فلما جاء الاسلام ابطل محمد كلا من الاجتماع السنوي والسوق الاسبوعية في عكاظ .

وكان العرب في ايامه ومن بعده بضع سنين قد تشاغلوا عن الشعر بالجهاد والفتوح فلما تم لهم الفتح واطمأنوا بالامصار راجعوا الشعر والتفتوا معه الى غيره من المعارف ونفقت عندهم سوق العلم وعنوا بالفنون واتقنوا كثيراً منها لكن معظم اشعارهم القديمة كانت قد فقدت اثناء تشاغلهم بالفتوح لانهم لقلة معرفتهم فن الكتابة في الجاهلية لم يكونوا يعتمدون في حفظ الشعر الا

على الرواية[١] على انهم مع كونهم قد عرفوا نظم الشعر من عهد قديم لم يكن لا وائلهم منه الا الابيات يقولها الرجل في حاجته ولم يكن لعلم العروض عندهم قانون يضبط قواعده ويقرر اصوله وانما تم لهم ذلك بعد محمد ببضع سنين[٢] اي حينما ظهر الخليل بن احمد الفراهيدي في خلافة الرشيد العباسي ودون اصول العروض

اما السيف والفروسية فقد اضطرهم استقلال قبائلهم الى التمرن عليها والندب اليهما وذلك انهم لكثرة ما كان يشجر بينهم كادوا ان يكونوا في حرب مستمرة يحسمون في ساحتها مادة النزاع بحد السيف وكانوا يقولون ان الله ميزهم باربعة ابدلهم العمائم من التيجان والخيام من الدور والجدران والسيوف من الخنادق والشعر من كتب الشرائع

---

(١) المزهر للسيوطي

(٢) روى الصفدي ان عروضياً يدعى ابا جعفر جلس ذات يوم عند مقياس النيل في سنة لم يرتفع الماء فيها الى علوه المألوف وكان لذلك يخشى القحط فيها فاخذ يقطع بيت شعر على تفاعيله فمر به رجل ولما لم يفهم غايته من هذا التقطيع توهم انه يتلو سحراً على الماء حتى لا يرتفع فقذفه في النهر فغرق

واما الجود وقرى الضيف فقد كان لهم قانوناً متبعاً وكانوا يعظمون امر الجود جداً حتى اصبحت شواهده عندهم تفوق كل ما عند غيرهم منها وحسبنا من اجوادهم ذكر حاتم الطائي وحصن الفزاري اللذين طار ذكرهما في الآفاق. وكانوا يستقبحون البخل غاية الاستقباح حتى ان احد الشعراء اراد ان يرمي اهل واسط بما يعد اشنع العيوب فلم يزد على ان قال فيهم

ما فيكم كلكم واحد ... يعطي ولا واحدة تمنع

ولم ينقص جود العرب في الاسلام عما كان عليه اسلافهم في الجاهلية وعندي لهذه المنقبة المحمودة فيهم شواهد جمة لو شئت اوردتها كلها لكني اقتصر منها على ايراد شاهدٍ واحد واضرب عن الباقي صفحاً. روي عن الهيثم بن عديّ انه قال تمارى ثلاثة نفر في الاجواد فقال احدهم اسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر فقال الآخر اسخى الناس قيس بن سعيد بن عبادة فقال الآخر بل اسخى الناس اليوم عرابة الأوسي فتنازعوا بفناء الكعبة فقال لهم رجل لقد افرطتم في الكلام فليمض كل واحد منكم الى صاحبه يسأله حتى ننظر بم يعود فنحكم على العيان. فقام صاحب ابن جعفر فوافاه وقد وضع رجله

في ركاب راحلته يريد ضيعة له فقال الرجل يا ابن عم رسول الله
ابن سبيل ومنقطع به فاخرج رجله وقال له ضع رجلك واستو
على الناقة وخذ ما في الحقيبة وكان فيها مطارف خز واربعة
آلاف دينار واوصاه ان يحتفظ بسيف كان ايضاً فيها فانه سيف
عليّ بن ابي طالب . ومضى صاحب قيس فوجده نائماً فقالت
له جارية لقيس ما حاجتك فقال ابن سبيل ومنقطع به فقالت له
الجارية حاجتك اهون من ايقاظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار
ما في دار قيس اليوم غيرها وامض الى معاطن الابل فخذ راحلة
من رواحله وما يصلحها وعبداً وامض لشأنك. قيل ان قيساً لما
انتبه اخبرته الجارية بما صنعت فاعتقها ويروى انه قال لها لو نبهتني
لزدت في العطاء ولو لم تعلم ان ذلك يرضيه لما جسرت ان تفعله
فخلق خدم الرجل مقتبس من خلقه . ومضى صاحب عرابة
فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة ومعه عبدان يقودانه
فانه كان كفيف البصر فقال له الرجل يا عرابة ابن سبيل
ومنقطع به فرفع عرابة يديه عن العبدين وصفق يمناهما على
اليسرى وقال اواه اواه والله ما اصبح عند عرابة شيء ولا
تركت له الحقوق مالاً ولكن خذ هذين العبدين فقال الرجل

والله ما كنت بالذي يسلبك عبديك فقال ان اخذتهما والا فهما حران فان شئت نخذ وان شئت فاعتق وخلاهما وعاد الى منزله متلمساً طريقه من الجدران كعادة العميان فاخذهما الرجل ومضى. ثم اجتمعوا وذكر كل واحد منهم قصته فحكموا اجماعاً لعرابة لانه اعطى على جهد[١] ولقد انصفوا فيما حكموا

وللعرب مناقب اخرى حميدة فكثيراً ما مدحهم الاقدمون برعاية الذمام وصلة الرحم وقد عرفوا منذ القديم بالذكاء والالمعية واتقاد القريحة ولا سيما اهل البادية منهم. ولكن كما ان لهم خصالاً محمودة فكذلك لهم كغيرهم من الناس خلال مذمومة وقد اقر مؤلفوهم انفسهم ان من خصائصهم الحرب وشن الغارة وسفك الدماء والفظاظة والنهب وانهم اهل حقد شديد فلا يكادون ينسون تِرةً وهذا ما يعزوه واحد من الاطباء الى الاغتذاء بلحوم الابل[٢] وهي لاهل البادية غذاء مألوف فهم لذلك اشد حقداً من الحضر لان الجمل حقود طبعاً وان صح هذا فيكون للتمييز بين اللحوم وجه مقبول

---

[١] من المستطرف وغيره

[٢] قاله صاحب الكتاب المسمى بالشامل في فصل الضان

ولكثرة ما يفعله العرب من نهب التجار وابناء السبيل اصبح اسمهم وهو بئس الاسم عند الافرنج وهم يعرفون ذلك ولكنهم يحتجون عنه بما ناب جدهم اسمعيل من الحنف فانه طرد من بيت ابيه وحرم قسطه من الميراث فورثه الله البوادي والصحارى واباح له كل ما تقع عليه يده فيها فلذلك يرون انه يحل لهم انتزاع كل ما وصلت اليه ايديهم تعويضاً من حقهم الذاهب . الا انهم لا يقفون في ذلك عند ذرية اسحق وحدهم بل الناس كلهم فيه سواء عندهم كأنهم يفترضون ان بينهم وبين كل من ينهبونه ضرباً من النسب . واذا رووا احاديث نهبهم وسلبهم اكتفوا بتغيير التعبير فلا يقول احدهم نهبت كيت وكيت بل يقول غنمته . ولكن لا يسوغ لنا ان نستنتج من ذلك انهم غير امناء في حق اخوانهم او من ينزلونه منهم منزلة الصديق فهم لعمري من اشد الناس حرصاً على رعاية الامانة في خيامهم حيث كل شيء سائب لكنه لا يسرق شيء البتة

اما العلوم التي كان اكثر عناية العرب بها قبل الاسلام فهي ثلاثة . اولها علم انسابهم وتاريخ قبائلهم . ثانيها شيء من علم الفلك بقدر ما يدلهم على الانواء . ثالثها علم تعبير الرؤيا . وذلك

انهم لما كانوا كثيري التفاخر بشرف انسابهم كثرت المنافسات بينهم فكان ذلك داعياً لحرصهم على توضيح النسب . واما ما عرفوه بفرط العناية وطول التجربة لا على طريق تعلم الحقائق [١] وكانوا مثل اهل الهند في الحرص على رصد الثوابت خلافاً لغيرهم من الامم الاخرى التي كانت على رصد السيارة احرص وكانوا يحكمون الاحكام بمقتضى خصائص النجوم دون طبائعها [٢] ومن هنا نشأ الاختلاف الذي ذكره بعض العلماء بين وثنية اليونان والكلدان الذين كانوا يعبدون السيارة ووثنية الهنود الذين كانوا يعبدون الثوابت . اما النجوم التي كانت العرب تستدل بها على تغير الجو فهي التي يدعونها بالانواء او منازل القمر وعدتها ثمانيـة وعشرون منزلا تنقسم بها دائرة البروج الى ثمانية وعشرين قسماً ينزل كل ليلة بواحدة منها فاذا سقط نجم منها في المغرب مع الفجر طلع آخر يقابله في المشرق من ساعته وهذا يكون في كل ثلاث عشرة ليلة . ومن سقوط هذه النجوم وطلوعها توصلوا بعد طول الرصد الى معرفة ما يحدث من التغير في حالة الجو وافضى بهم ذلك آخر الامر الى

---

[١] ابن العبري [٢] الشهرستاني .

ان يتسبوا قدرة الربوبية الى هذه النجوم كما تقدم فكانوا يقولون مطرنا بنوء كذا فنهاهم محمد عن هذا القول بما كان له عندهم من المعنى الا اذا ارادوا به المجاز بمعنى ان ذلك من فعل الله وتدبيره بحيث انه اذا نزل القمر بهذا المنزل او بذلك او اذا طلع هذا النجم او سقط كان مطر او ريح حر او برد

ويتحصل مما مرّ ان العرب المتقدمين لم يزيدوا في علم الفلك (وهو العلم الذي برع فيه متأخروهم) على مراقبة تأثير النجوم في الاحوال الجوية ووضع اسماء لهذه النجوم مما حداهم عيشهم في الخلاء ليلاً ونهاراً يرعون الماشية ولذا كان في غالب الاسماء التي وضعوها للنجوم اشارة الى قطعان الماشية وقد حرصوا كل الحرص على التمييز بين هذه النجوم بان افردوا لكل واحد منها اسماً خاصاً به حتى صارت العربية اكثر لغات الارض اسماء نجوم وصور. نعم ان متأخريهم اخذوا عن اليونان اسماء صور شتى الا ان غالب الاسماء هو عربي الاصل واقدم وضعاً من الاسماء اليونانية وخاصة اسماء النجوم النيرة في الصور وكذلك اسماء الصور الصغيرة التي تتضمنها الكبيرة مما

لم يرصده اليونان ولا اسم له عندهم[1]

هـذا تلخيص ما كانت عليه العرب قبل محمد اي فيما يدعونه بالجاهلية وقد اوجزت العبارة فيه واجملتها بقدر الاستطاعة . وسأشرح في البحث بالايجاز عما كان من حال الدين في المشرق وحال المملكتين العظيمتين اللتين كان ذلك القطر مقتسماً بينهما ايام ادعى محمـد النبوة وما اتفق حين ذاك من الاحوال التي اعانت على نجاح الامر الذي كان آخذاً فيه

[1] انظر آثار البلاد للقزويني عند كلامه في الافلاك



الفصل الثاني

في البحث عما كانت عليه حال النصرانية واليهودية ايام ظهور محمد والطرق التي سلكها محمد لتأسيس دينه وما اعانه على ذلك من الشؤون

اذا انعمنا النظر فيما كتبه مؤرخو الكنيسة منذ القرن الثالث للميلاد الفينا حال الامة النصرانية لذلك العهد بعيدة جداً عما وصفها به بعض المصنفين وذلك انها فضلاً عن كونها لم تكن مؤيدة بالنعمة الفعالة والغيرة والتقوى راسخة على اساس التعليم الصحيح وعلى الاتحاد وثبات الايمان كما زعموا كان رعاتها مشتغلين بالمطامع الشخصية يتخذون العويص من مسائل الدين ذريعة للمشاجرات والمماحكات وقد انقسموا فيها الى فرق وبدع لا تعدّ ونفوا من صدورهم ما ندب اليه الانجيل من الموادعة والمحبة والمؤاساة وعدلوا الى المناوات والضغائن وسائر انواع المفاسد حتى انهم بينما كانوا يتماحكون في اوهامهم في الدين اضاعوا جوهر الدين نفسه وكادت مشاجراتهم فيه تستأصله بتة ومعظم ما ننكره الآن على بعض فرق النصرانية من باطل العقائد والفساد انما نشأ وتأصل في تلك الاعصر

المظلمة فعاد بالنفع على الاسلام واعان على انتشاره ونخص من تلك العقائد بالذكر عبادة القديسين والصور فانها كانت قد بلغت وقتئذ مبلغاً يفوق كل ما نراه اليوم عند بعض فرق النصارى

اما الكنيسة الشرقية فانها اصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوي مرتبكة بمناقشات لا تكاد تنقضي وانتقض حبلها بمماحكات الاريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من اهل البدع على ان الذي ثبت بعد البحث ان كلاً من بدعتي النساطرة واليعاقبة كانت بان تدعى اختلافاً في لفظ التعبير عن المعتقد اولى من ان تدعى اختلافاً في المعتقد نفسه وبان تدعى حجة يتعنت بها كل من المتناظرين على الآخر اولى من ان تدعى سبباً موجباً لالتئام مجامع عديدة يتردد اليها جماعة القسس والاساقفة ويتماحكون ليعلي كل واحد منهم كلمته ويحيل القضايا الى هواه. ثم ان نافذي الكلمة منهم واصحاب المكانة في قصر الملك كان كل واحد منهم يختص نفراً من قواد الجيش او من اصحاب الخطط يكون له عليهم الولاء ويتقوى بهم وبذلك صارت المناصب تنال بالرشى والنصفة تباع وتشترى جهاراً

اما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك داماسوس

واورسكينوس في المشاحة على منصب الاسقفية اي اسقفية رومة ما افضى الى احتدام نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيهما حتى ان الوالي لما رأى انه لا قبل له بقمع هذا الشر انصرف عن المدينة وترك المتنازعين وشأنهما وكان الفوز بعد ذلك لداماسوس . قيل استحر القتال في الناس في هذه النازلة حتى بلغ عدد القتلى في كنيسة سيكينيوس وحدها مائة وسبعة وثلاثين في يوم واحد . ولم يكن من العجيب ان يشتد حرصهما على تبوّؤ ذلك المنصب المهم لانه كان من يتبوأه يصبح ذا دنيا عريضة وينال من صلاة السيدات الرومانيات ثروة وافرة فيخرج في المواكب والابهة بالمركبات والحفات مسرفاً في ترف العيش ولا اسراف الملوك خلافاً لما كان عليه اساقفة المدن الصغيرة من الاقتصاد والزهد ولو بعض الشيء .

وكان اكثر ما تنشأ هذه المناقشات عن القياصرة انفسهم ولا سيما القيصر قسطنطيوس فانه اذ لم يقدر ان يميز بين صحيح الدين المسيحي وخرافات العجائز ربك الدين بكثير من المسائل الخلافية بدلاً من ان يلم شعث اهل الخلاف فيه فاسعر بذلك نار مشاحنات عديدة كلما خمدت اضرمها بغيرها مما لا نهاية له .

ثم ازدادت هذه الحال سوءاً على عهد يوستنيانوس فانه لم يؤثر ان يقصر في الغيرة على الدين عن اساقفة القرن الخامس والسادس حتى كان اذا قضى بقتل من يخالفه في المذهب لا يرى انه جاء شيئاً فرياً

فلما فشا في اولياء الامور وارباب الدين هذا الفساد في العقائد والاخلاق والسيرة نشأ عنه بالطبع فساد سيرة العامة من الناس فاصبحوا على اختلاف طبقاتهم وليس لاحدهم همّ سوى جمع الاموال من الوجوه المحللة او المحرمة ثم اتلافها في سرف العيش وانتهاك حرمات الله

هذا ما كان عليه حال النصرانية في غير بلاد العرب اما حالها في بلاد هذه الامة التي هي موضوع بحثنا فلم تكن خيراً من ذلك فقد اشتهرت هذه البلاد منذ القديم بكثرة البدع ولعل ذلك مسبب عن حرية القبائل واستقلالهم . فكان في نصارى العرب قوم يعتقدون ان النفس تموت مع الجسد ثم تنشر معه في اليوم الآخر وقيل ان اريجانوس هو الذي دس فيهم هذا المذهب . وكم وكم من بدعة انتشرت في جزيرة العرب حتى لا نقول نشأت فيها فمن ذلك بدعة كان اصحابها

يقولون بالوهية العذراء مريم ويعبدونها كانما هي الله ويقربون لها اقراصاً مضفورة من الرقاق يقال لها كلّرس وبها سمي اصحاب هذه البدعة كليريين

وهذه المقالة بالوهية مريم كان بعض اساقفة المجمع النيقاوي يقولون بها ايضاً فانهم كانوا يزعمون ان مع الله الآب الهين هما عيسى ومريم ومن هذا كانوا يدعون بالمريميين. وكان بعضهم يذهب الى انها تجردت عن الطبيعة البشرية وتألهت . وليس هذا ببعيد عن مذهب قوم من نصارى عصرنا قد فسدت عقيدتهم حتى صاروا يدعونها تكملة الثالوث كانما الثالوث ناقص لولاها. وقد انكر القرآن هذا الشطط لما فيه من الشرك[1] ولا جرم ثم اتخذه محمد ذريعة للطعن في عقيدة التثليث

وفضلا عن ذلك فقد اجتمع ايضاً في جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الاسماء لجأوا اليها هرباً من اضطهاد القياصرة فادخل محمد كثيراً من عقائدهم في دينه كما سترى

اما اليهود الذين كانوا في سائر البلاد اذلآء لا يعتد بهم

(١) سورة المائدة : ١١٦

فقد قويت شوكتهم في بلاد العرب حيث لجأ كثير منهم على اثر خراب بيت المقدس وهوّدوا كثيراً من ملوك العرب وقبائلهم . ولذا كان محمد في بادئ امره يداريهم حتى انه اخذ عنهم كثيراً من مقالاتهم ورسومهم وعاداتهم تألفاً لهم لعلهم يشايعونه لكنهم جرياً على سنتهم المألوفة في العناد لم ينقادوا له بل ناصبوه العداوة وكانوا من اشد خصمائه يحاربونه ويكايدونه دائماً ولم يتأتَّ له قهرهم الا بعد المشقة والعناء وتعريض نفسه لمهالك اودت به آخر الامر . وما ذكرناه من شدة بغضهم له ولد في قلبه آخر الامر بغضة لهم تضاهيها فصار يعاملهم في باقي عمره باقبح مما كان يعامل به النصارى ويكثر الطعن فيهم في قرآنه وقد تابعه المسلمون على ذلك الى يومنا هذا فهم يفرقون بين اليهود والنصارى ويعدون اليهود احقر امة على وجه الارض واذلها

وقد قال بعض من اشتهر بسداد الرأي في السياسة انه لا يتسنى لاحد ان يسوذ قوماً وينشئ دولة ما لم تساعده الفرص فاذا علمت هذا جزمت بان اختلال احوال النصرانية كان من الفرص التي اعانت محمداً من الجهة الواحدة على نيل مآربه كما

ان وهن قوى الروم والفرس اطمعه من الجهة الاخرى في الظفر بمراده فيما يقدم عليه من هاتين المملكتين اللتين كانتا قبل ذلك من القوة على ما هو معلوم ولو كانتا باقيتين على بأسهما لكانتا ولا شك حطمتا الاسلام وهو في مهده . لا جرم أنه لم يكن له أعون على النشوء من النجاح الذي فازت به العرب حينما تصدوا لفتحهما وهم ينسبون فوزهم ذلك الى دينهم الجديد والعون الالهي الذي وصل اليهم بسببه.اما مملكة الروم فكانت قد اخذت في الوهن والانحطاط من بعد قسطنطين حتى كان اكثر خلفائه لا يعرفون الا بذميم الخلال ولا سيما الجبن والفظاظة. ولما ابتدأ امر الاسلام كان برابرة القوط قد اغاروا على القسم الغربي من المملكة المتكارية وتغلبوا عليه واما القسم الشرقي فكان برابرة الترك يغزونه من الجهة الواحدة والفرس من الاخرى حتى اصبح وليس للروم فيه طاقة على دفع عدو قوي يهاجمهم فلذا اضطر القيصر موريقس ان يؤدي الجزية الى خاقان الترك. ولما خرج الدمستق فقاس على هذا القيصر وقتله ثار بعض الجند على بعض فتفانوا عن بكرة ابيهم حتى اذ هرقل لما تبوأ منصب العاهلية بعد ذلك بسبع سنين لا غير ورام ان

بجمع فلهم لم يجد حياً سوى اثنين فقط من كل الجنود الذين كانوا تحت السلاح حينما اغتصب فقّاس السلطان. ومع ان هرقل هذا كان ولا شك رجلاً هماماً ذا رأي وتدبير وقد افرغ جهده في لم شعث الجيش ورده الى الطاعة وظهر على الفرس حتى اخرجهم عما كانوا قد استولوا عليه من بلاد الروم وتغلب ايضاً على قسم من بلادهم الا ان مقاتل المملكة كانت قد اصيبت حتى لم يكن قط وقت أشأم عليها من هذا ولا أيمن منه لما كانت العرب تنويه بها فكأن الله جلت حكمته رام ان ينتقم من نصارى المشرق لتنكيبهم عن نهج الدين الاقدس الذي وضعه لهم فارسل عليهم هؤلاء العرب ضربة يضربهم بها

ومما زاد في خور قوى الروم انهماكهم كافة في الترف وتخنثهم وانحطاطهم عن فتوّة آبائهم وزاد على ذلك الرهبانية والاضطهاد وكلاهما من اعظم اسباب الدمار

اما الفرس فانهم كانوا قد اخذوا في الانحطاط من قبل محمد بمدة وذلك لانشقاق عصاهم بسبب المذاهب المنكرة التي نشرها في بلادهم ماني ومزدك. اما مذهب ماني فمعروف[1]

[1] ظهر ماني في ايام سابور بن ازدشير وقتله بهرام بن هرمز بن

واما مزدك فانه ادعى النبوة على عهد خسرو قباذ وزعم ان الله بعثه ليأمر بشيوع النساء والاموال بين الناس كافة لانهم كلهم اخوة اولاد اب واحد[1] وكان يتوهم ان ذلك يحسم اسباب المنازعات من بينهم لانها انما تحدث بسبب النساء والمال فانقاد قباذ الى مذهب هذا المضل واباح له على ما تقتضيه هذه السنة الجديدة ان يخلو بالملكة زوجته الا ان ابنه انوشروان الجأ مزدك بعد الجهد الجاهد الى العدول عن ذلك ولو لم يتلاف الامر بعد ابيه بقتل مزدك واصحابه والمانوية ايضاً لافضت هذه البدع بمملكة الفرس الى وشيك الدمار . وفي عهد انوشروان هذا ولد محمد

وكان انوشروان يلقب بالعادل وهو لعمري خليق بهذا اللقب وهو آخر من كان من الاكاسرة أهلاً للملك لان

سابور سنة ٢٧٧ للميلاد، اخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية وكان يقول بنبوة عيسى وينكر نبوة موسى

قال محمد الوراق صاحب الفهرست ان ماني زعم ان العالم مصنوع من اصلين قديمين هما النور والظلمة وانهما ازليان سرمديان وانه ما من شيء الا وهو من اصل قديم . انظر ايضاً كتاب الملل والنحل»

(٢) الشهرستاني

خلفاءه ما زالوا يتنازعونه من بعده حتى دمرته العرب . وذلك ان هرمز ابنه كان شديد الفظاظة والعنف حتى ابغضته الرعية وثار عليه اخوة زوجته فسملوا عينيه واضطر ان ينزل عن الملك لابنه ابرويز وكان قد خرج عليه باغراء بهرام ثم مات هرمز مخنوقاً. اما ابرويز فانه اضطر بعد ذلك بقليل ان ينزل عن الملك لبهرام لكنه استنجد بموريقس عاهل الروم فاسترده وبقي فيه زمناً ثم اظهر الجور في آخر مدته فابغضته الرعية وراسلوا العرب في ذلك سراً وآخر الامر خلعه ابنه شيرويه وسجنه ثم قتله وتعاقب على المملكة بعده ستة ملوك في مدة ست سنين ينازع احدهم الآخر فتضعضعت لذلك احوال الفرس بتة . ولا عبرة بما فعلوه ايام ابرويز من الاغارة على الشام ونهب بيت المقدس ودمشق لان ذلك لم يكن لقوتهم بل لوهن الروم يومئذ حتى اذا زحف عليهم هرقل بجيش الروم اخرجهم عما كانوا استولوا عليه من بلاده وعن شيء من بلادهم أيضاً . وكذلك لا يعتد بما كان لهم من قليل السلطان في اليمن ايام كانت العرب مستضعفة لتفرق كلمتها حتى نصبوا فيه الملوك الاربعة المتقدمين على محمد فانه لما اجتمعت كلمة العرب بالاسلام غلبوهم وهزموهم في كل

المواقع ولم يمض الاَّ قليل من السنين حتى قهروهم تمام القهر وثلوا عرشهم

وبينما كان الروم والفرس على ما وصفنا من الضعف والانحطاط ايام محمد كان العرب يستفحل امرهم وينمو عديدهم بمن كان ينضم اليهم من مملكة الروم نفسها اذ كان عنف الحزب المتغلب فيها يضطر كثيراً من اهلها ان يهاجروا الى بلاد العرب اذ كانت وقتئذ بلاد الحرية وملجأ اميناً لمن لم يكن له في بلاده حرية في دينه ولا راحة في دنياه . ثم ان العرب فضلاً عن كثرة عددهم لم يكن ترف الروم والفرس ورخاء عيشهم معروفاً عندهم بل كانوا بعكس ذلك متعودين جميع انواع المشاق وشظف العيش والتقتير لا يكادون يأكلون لحماً ولا يشربون خمراً ولا يفترشون غير الارض . وكان ماهم عليه من الهيئة السياسية من اعون الذرائع لنجاح محمد في مأخذه الذي شرع فيه وذلك ان تشعب قبائلهم وعدم انقيادهم لرئيس واحد يجمع كلهم كان مما لا بد منه في اول الامر لاذاعة دينه وتأسيس سلطانه اذ لو كانوا متضامين متحدين مجتمعي الكلمة لما كان من المحتمل ان يتأتى له ذلك لكنهم لما دانوا بدينه اصبح اجتماع القبائل وتضامها

مما لا بد منه ايضاً اذ لم يكن لولاه ليتأتى لهم من الفتوح وعظمة الشأن ما تأتى

والذي يترجح عندي ان هذه الحال اعني ما كان عليه المشرق من الاضطراب في امور السياسة والدين لم تكن خافية على محمد فانه لكثرة تجوله في البلاد في اوائل ايامه بقصد التجارة لا بد ان يكون قد وقف على الكثير منها حق الوقوف ولست اقول انه كان يطمح ببصره من اول وهلة الى المدى البعيد الذي سمت اليه نفسه بعد ذلك حينما ساعده الحظ ولكن لا يبعد انه بسبب اختلال تلك الاحوال كان يحدث نفسه بشيء من النجاح فيما يتصدى له اذ كان من الحذق والدهاء بمكان حتى كان قادراً على الانتفاع بكل حادثة تحدث وعلى ان يحول الى فائدة نفسه ما عساه ان يكون تهلكة لغيره

واعلم ان طريقه لم تكن في اول امره سهلة بل كانت وعرة منذ مولده الا انه دمثها في قليل من الزمان . وذلك ان اباه عبد الله وهو ثالث اولاد عبد المطلب لا بكرهم كما وهم قوم ادركته الوفاة في حياة عبد المطلب وترك زوجته وابنه محمداً في فاقة

لانه لم يكن له من المال سوى خمسة ابعرة وجارية حبشية [١]
وكان محمد عند وفاة ابيه طفلاً فكفله جده عبد المطلب مدة
حياته ولما حضرته الوفاة اوصى به ابا طالب وهو بكر اولاده
واخو عبد الله من نفس امه فكفله ابو طالب احسن كفالة
ودربه في التجارة لانه كان تاجراً واستصحبه لذلك الى الشام
ولم يكن له من العمر وقتئذ سوى ثلاث عشرة سنة ثم حسن
لخديجة وهي ارملة ذات شرف ونسب ان تتخذه فيخرج في
تجارتها فخدمها محمد خدمة ارضتها حتى تزوجت به اخيراً فجعلته
بذلك نداً لاغنى اهل مكة

فلما حصل بهذا الزواج السعيد على ثروة واسعة وقع في
خلده ان يضع ديناً جديداً او كما قال هو ان يعيد الدين الحق
القديم دين آدم ونوح وابرهيم وموسى وعيسى وسائر النبيين [٢]
بان ينسخ ما كان عليه اكثر قومه من الشرك ويستأصل البدع
التي زعم ان متأخري اليهود والنصارى قد احدثوها في ذلك
الدين ورده الى ما كان عليه من الخلوص اي الاقتصار على
عبادة اله واحد لا غير

[١] ابو الفدآء [٢] سورة البقرة : ١٢٢ — ١٣١

وليس من غرضي هنا ان اقطع بالسبب الذي دفع محمداً الى ركوب هذا الامر هل كان محض هوس منه في امر الدين أم رام ان يتذرع به الى الرئاسة وقضاء شهوات البدن كما ذهب اليه جمهور مؤلفي النصارى . على انه لا يمتنع عندي ان يكون الامر كما قالوا ولكنه من المحتمل ايضاً ان هذا الرجل لم يقصر مطامعه من اول وهلة على ادراك تلك الغاية الشخصية لا غير ولا ينكر ان المقصد الذي بنى عليه دعوته وهو ردّ الوثنيين من العرب الى معرفة الاله الحق وعبادته دون غيره هو مقصد حميد شريف خلافاً لما زعم احد علمائنا المتأخرين من انه ابدل قومه من وثنيتهم ديناً آخر هو مثلها في القبح

ومما لا شك فيه ان محمداً كان معتقداً حق الاعتقاد صحة الركن الاعظم من دينه اعني ركن التوحيد ولذا كان جل اهتمامه موجهاً اليه واما ما سواه من سائر اركان الاسلام وفروضه فانما هي توابع وملحقات نشأت عن ذلك الاصل بحكم الضرورة ولم تكن مما تعمد وضعه

فاذا تقرر ان محمداً كان في سريرته مقتنعاً بصحة ركن التوحيد من دينه وهو الركن الذي زعم انه قد زاغ عنه الناس

طراً لا الوثنيون فقط بل النصارى ايضاً على اختلاف فرقهم ممن اتخذوا عيسى الهاً على ما هي حقيقة مذهبهم وممن فسدت عقيدتهم حتى عبدوا العذراء مريم والقديسين والصور وكذلك اليهود الذين جعلوا عزرا ابناً لله كما قرفهم القرآن[١] سهل علينا ان ندرك كيف خيل له انه اذا انقذ الناس من وهدة هـذه الضلالات فيكون اتى عملاً صالحاً يستحق المثوبة وكيف استدرجته المخيلة المتقـدة التي لا يخلو منها اعرابي ان يتوهم ان العناية الالهية قد ناطت به القيام بعبء هذا الامر الخطير ولعل هذا الوهم كان يزداد تأصلاً في مخيلته بما كان عليه من حب العزلة حتى طفق يجاور في غار حراء بالقرب من مكة شهراً في كل عام

ولمنكر هذا الهوس من محمد ان يقول كيف يكون محمد ذا هوس وقد ابدى من الحزم والحصافة في تتبع مقصـده ما لا يبديه ذو هوس في الدين ولا يعقل صدوره من رجل مختل الدماغ . فنجيب نعم ان المهوسين لا يسلكون كلهم على نهج الرزانة والتحرز الذي سلكه محمد الا اننا كثيراً ما رأينا اناساً قبله قد حادوا عن مقتضى المعقول من جهة واحدة او في امر

(١) سورة براءة : ٣٠

واحد وكانت افعالهم فيما سوى ذلك غاية في الحزم والسداد
وبعد فانه لما كان انتشار الاسلام بغتة ونشأ عن تغلب اصحابه
على النصارى اندثار كنائس المشرق التي كانت قبله زاهية
مزهرة كانت كراهية النصارى لهذا الدين الذي عاد عليهم بالوبال
امراً لا بد منه فلا عجب والحالة هذه ان يفرغوا جهدهم في
تقبيحه وتهجين واضعه ووصفهما باقبح الاوصاف. الا ان الحق
يقال ان الضرر الذي لحق بالنصرانية بسبب محمد كان على
الاكثر ناشئاً عن جهله لا عن خبث طويته لانه لم يكن له
معرفة تامة بالنصرانية النقية الصحيحة وانما عرف من عقائدها
ما كان في غاية الفساد على عهده[1] فلا بدع ان يبطل اصالة ما
ظن ان اصلاحه مستحيل

اما انه كان يتمنى اشد التمني ان ينظم في عداد الرجال الخارقي
العادة فمما لا يشك فيه احد ولما رأى انه لا يبلغ ذلك الا بان
يدعي انه رسول من الله مبعوث الى الناس ليبلغهم اوامر ربهم
عمد الى هذه الدعوى فانتحلها ولعل مطامعه كانت في اول الامر

[1] «اي مذهب المريميين والنساطرة وغيرهم من اصحاب البدع
اللاجئين الى بلاد العرب كما مر»

واقفة عند هذا الحد لا تتعداه ولو ان قومه عاملوه بالحسنى ولم يلجئوه بالاضطهاد الى الفرار منهم ثم الى حمل السلاح لدفع اذاهم عن نفسه لم يبعد انه كان يقيم بين ظهرانيهم كاحد الناس ويقنع منهم بالتجلة والاحترام الواجبين لمقامه النبوي لا غير لكنه لما اصبح بسببهم وعنده كتيبة من الجند والفوز مقارن لمساعيه طمح بصره ولا عجب الى التصدي لامر لم يكن قبل ذلك ليخطر له ببال

واما انه كان كسائر بني جلدته شديد الميل الى النساء فطرة فطرت عليها العرب فهو نفسه قد اقر بذلك[1] وكثيراً ما عابه به خصومه من اهل الجدل منا واتخذوا من تعدد ازواجه حجة قاطعة على فرط شبقه وهذا ما يلزم عنه عندهم انه كان شريراً ومن كان كذلك فهو بحكم الضرورة كذاب وقد غرب عنهم ان تعدد الزوجات وان حرمته النصرانية كان في ايام محمد امراً مألوفاً عند العرب وغيرهم من امم المشرق وما كان يعد من المنكرات ولا يحط مقام من يأتيه فلذا اباحه محمد

---

[1] «وذلك قوله حبب الي من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة»

بعض الاباحة لامته وهؤلاء يحتجون في اثبات حله بحجج كثيرة اخصها انه قد استحله رجال قد شهد لهم الناس كافة بالصلاح وكان بعضهم انبياء[١] وفضلاً عن ذلك فالفروض والاحكام المتعلقة بالنكاح والطلاق والخصائص الاخرى التي خولها محمد لامته بنص القرآن قد اخذت كلها عن شرع اليهود كما سترى ولذا ساغ له ان يعدها عادلة سديدة اذ هي مما يعلمه ويعمل به اصحاب دين موحى به من الله

ومهما كانت الاسباب التي حدت محمداً الى ما اقدم عليه فلا شك انه قد توفرت فيه الشرائط التي لا بد منها لانجاز ما شرع فيه وقد شط مصنفو المسلمين في اطرائه واطنبوا في مدح فضائله ديناً واخلاقاً كالتقوى والصدق والعدل والسماحة والعفو والاتضاع والاقتصاد وقالوا انه قد بلغ من سخائه انه قلما كان يبقى بيده ما يزيد على حاجة عياله بل كان كثيراً ما يعطي الفقراء مما اعده لعياله حتى كان لا يحول عليه الحول الا وقد نفد كل ما كان عنده وفي صحيح البخاري ما معناه ان الله عرض عليه مفاتيح كنوز الارض فردها. ومع ان هذا الاطراء

(١) «اشارة الى آباء العهد القديم كابرهيم وداود وسليمان وغيرهم»

لا تخلو عندي من مظنة الغلو لورود الكثير منه عن تلقين الهوى فمن الجائز ان نعتبر ان محمداً وهو رجل اعرابي قد نشأ في الوثنية ولم يكن عارفاً بما يجب عليه حق المعرفة كان صالح الاخلاق ولم يكن من الشر والخبث على ما يصفه به خصومه. لا جرم ان من كان من الخبث والدعارة بحيث يزعمون فهيهات ان يتأتى له ان ينجح في امر كالامر الذي تجشمه محمد اذ لا بد له من شيء من الرياء والتستر اما خلوص طويته فليس البحث عنه من ولايتي

ولا خلاف في انه كان في غاية الحذق والذكاء بارعاً في فن التحبب والتودد الى الناس وقد وصفه المؤرخون الشرقيون بحصافة العقل وقوة الذاكرة وعزز هذه المواهب الطبيعية بما اكتسبه من معرفة الناس والخبرة بهم وبما استفاده في اسفاره من الاختبار. قالوا وكان قليل اللغو دائم البشر لين الجانب سهل الخلق انيساً يؤلف اصحابه كثير التواضع لمن هم دونه (١) وزاد على ذلك كله ما كان عليه من حسن الخلق وظرافة الخلق والتلطف في العشرة وهذه ولا شك صفات قد اعانته كثيراً على ان يكون مقبولاً عند الذين يحاول استمالتهم

(١) ابو الفداء

اما المعارف التحصيلية فمن المقرر انه لم يكن منها على شيء البتة وذلك انه نشأ وتربى على ما الفته قبيلته من عدم الاكتراث بدراسة فنون البلاغة بل الاستخفاف بها لزعمهم ان لسانهم افضل الالسنة وهم انما كانوا يتقنون معرفته بالممارسة لا بالدراسة ويقتصرون في تزيينه على حفظ قصائد من الشعر مما يرون ان فيه فائدة لهم في احوال التقلب والمعاش. على ان امية محمد هذه فضلاً عن انها لم تعد عليه بالضرر ولا صدته عما كان شارعاً فيه فانه حولها الى نفعه فزعم ان ما جاء به من القرآن انما هو وحي من عند الله وانه يستحيل ان يكون هو الذي اختلقه وزوره اذ لا تقوم في العقل ان أمياً يستطيع ان يصنف كتاباً فيه ما في القرآن من البراعة لفظاً ومعنى [١] وبذلك دفع عن نفسه حجة دامغة من حجج خصومه وصار اهل ملته يفتخرون بامية صاحبهم بدلاً من ان يخجلوا منها واتخذوها برهاناً مبيناً يثبت انه رسول الله ولا يستنكفون من ان يدعوه النبي الامي كما دعاه القرآن [٢]

[١] انظر سورة العنكبوت : ٤٧—٥٠ وتفسيرها

[٢] سورة الاعراف : ١٥٦—١٥٨

اما الدين الذي جاء به والغاية التي توخاها فيما ادعى نزوله عليه من الوحي الذي احكم وضعه على وفاق اغراضه فذلك سيكون موضوع بحثنا في الفصول التالية. اما ما بقي من هذا الفصل فسأتكلم فيه بما يمكن من الايجاز عن الطرق التي سلكها لاتمام الامر الذي شرع فيه وما عرض له من الحوادث التي اعانته على انجاح مسعاه. وذلك انه قبل ان يتصدى للدعوة العامة رأى انه لا بد له ان يبتدئ اولاً بدعوة اهل بيته فلما كان ذات يوم معتزلاً مع عترته في غار حراء الذي مرّ ذكره كما كان يفعل من قبل كاشف زوجته خديجة بمبعثه واعلمها بظهور جبريل له وبانه اخبره ان الله بعثه رسولاً ثم تلا عليها بعض فقرات [١] وادعى ان الله انزلها عليه على يد جبريل وقص عليها ما جرى له مع جبريل المذكور في ظهوره هذا الاول كما هو مسطور في كتب السيرة المحمدية ففرحت خديجة بذلك وقالت له ابشر فوالذي نفسي بيده اني لارجو ان تكون نبي هذه الامة وللوقت اخبرت ابن عمها نوفل بن ورقة بما سمعته وكان نوفل نصرانياً فكان يقرأ ويكتب بالحروف العبرانية وكان

[١] وهي الفقرات الخمس الاول من سورة العلق

له ايضاً حظ من العلم بالتوراة والانجيـل فوافقها على ما ذهبت اليه من امر بعلها وقال لها ان الناموس [١] الذي كان يأتي موسى النبي قد اتى الآن محمداً [٢] وكان هذا في شهر رمضان من السنة الاربعين من عمر محمد فدعيت سنة مبعثه ثم لما آنس حسن هذه البداءة جرّأه ذلك على استتمام مسعاه فشرع اولاً في دعوة الافراد لانه خشي ان يخاطر بالامر كله ان اعلنه للناس بغتة فلم يمض الا قليل من الزمان حتى آمن به نفر من اهل بيته وهم زوجته خديجة ومولاه زيد ابن حارثة (فاعتقه [٣] فصار اعتاق العبيد اذا اسلموا سنة للمسلمين) وابن عمه علي ابن ابي طالب وهو وقتئذ مراهق فكان بعد ذلك يقول عن نفسه انه اول المؤمنين غير معتد بخديجة وزيد. ثم تصدى بعد هذا لدعوة عبد الله بن ابي قحافة المكنى ابا بكر وهو من ذوي الوجاهة في قريش وكان محمد قد ادرك ان انقياد هـذا الرجل لدعوته مما يروج بضاعته كما جرى الامر بعد قليل فانه لما آمن به ابو بكر استمال نفراً من وجهاء مكة وهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن

---

[١] قال المعرب الناموس لفظ معرب من اليونانيـة واصله فيها نومس ومعناه شرع [٢] ابو الفداء [٣] ابو الفداء

بن عوف وسعد بن ابي وقاص والزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله الى الاقتداء به وهؤلاء الستة من زعماء الصحابة مع نفر آخرين هم الذين آمنوا بمحمد في مدة السنين الثلاث الاول من مبعثه فلما رأى في نهاية هذه المدة انه قد صار له حزب كاف للقيام بنصرته كف عن كتمان دعوته وصرح ان الله امره ان يقوم فينذر [١] اقرب الناس لحمة به فدعا لذلك علي بن ابي طالب وامره ان يصنع صاعاً من طعام وان يجمع له بني عبد المطلب حتى يكلمهم ويبلغهم ما أمر به فدعاهم وهم نحو من اربعين رجلاً فلما همّ محمد ان يكلمهم نهض عمه ابو لهب فخاطبهم بما حملهم على التفرق قبل استماع كلامه فاضطر ان يدعوهم ثانية في الغد فلما اجتمعوا خاطبهم فقال ما اعلم انساناً في العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد امرني ربي ان ادعوكم اليه فأيكم يوازرني على هذا الامر على ان يكون اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاحجم القوم جميعاً حتى قام علي فقال انا اكون وزيرك عليهم فاخذ محمد برقبته وقال ان هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا فاندفع القوم يقهقهون

(١) سورة المدثر : ٢ وتفسيرها

ويقولون لابي طالب قد امرك ان تسمع لابنك وتطيعه [١] فلم يزد ذلك محمداً الا جراءة فاقبل يدعو الناس علناً وكانوا في اول الامر يستمعون له بطول اناة حتى اخذ يعيبهم ويعيب آباءهم على كفرهم وعنادهم فساءهم ذلك واجمعوا على ان يناصبوه العداوة ولولا ان عمه ابا طالب ذب عنه لآل امره منهم الى البوار فاتى اشراف قريش ابا طالب يسألونه ان يخذل ابن اخيه وحذروه سوء عاقبة الامر الذي شرع فيه فلم يجبهم الى ملتمسهم فرجعوا عليه بالتهديد وقالوا لئن لم تردعه لنصلينك واياه لظى الحرب حتى يهلك احد الفريقين فعظم ذلك على ابي طالب وافرغ جهده في كف محمد عن التمادي بالامر وحذره ما يحيق به وبقومه من التهالك اذا لم يكف عما هو فيه فلم يكن ذلك ليثبط من عزمه وقال والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الامر فلما رأى ابو طالب منه ذلك كف عنه ووعده ان يكون معه على اعدائه [٢]

ولما رأت قريش انه لا يؤثر فيه لين الكلام ولا التهديد صمموا على اخذه بالعنف والقهر فاقبلوا يؤذون اصحابه حتى لم

---

[١] ابو الفداء [٢] ابو الفداء

يبق لهم امان على انفسهم في مكة فاذن محمد لمن ليس له منهم عشيرة تحميه ان يهرب فهرب في السنة الخامسة من مبعثه اثنا عشر رجلاً واربع نسوة الى بلاد الحبشة وكان فيهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت محمد فهؤلاء اول من هرب ثم لحق بهم غيرهم حتى صار عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة سوى الصغار[1] فاكرم النجاشي وفادتهم وابى ان يسلمهم الى من ارسلت اليه قريش في طلبهم لا بل دان هو نفسه بالاسلام كما زعم مصنفو العرب كافة

وفي السنة الخامسة لمبعثه تقوى حزبه باسلام عمه حمزة[2] وهو رجل باسل همام وباسلام عمر بن الخطاب وهو رجل جليل خطير وكان قبل اسلامه شديد العداوة لمحمد

ولما كان الاضطهاد مما يعين على انتشار الدين اخذ الاسلام يفشو في قبائل العرب بما حمل قريشاً على ان يتحالفوا على بني هاشم وبني عبد المطلب يرومون بذلك ان يمحقوه ان استطاعوا فتعاهدوا على ان لا يناكحوهم ولا يبايعوهم وكتبوا بذلك صحيفة على انفسهم اودعوها الكعبة وكان ذلك في السنة

(١)و(٢) ابن الشحنة وابو الفداء وغيرهما من المؤرخين

السابعة لمبعث محمد[١] فصارت قريش طائفتين وانحاز بنو هاشم كافة الى زعيمهم ابي طالب ولم يتخلف عنهم سوى عبد العزى المكنى ابا لهب فانه من شدة بغضه لمحمد ابن اخيه ولدينه خرج عن بني هاشم وانحاز الى الطائفة الاخرى التي كان زعيمها ابا سفيان بن حرب من بني أمية

واستمر هـذا الشقاق بين الطائفتين ثلاث سنين فلما كانت السنة العاشرة لمبعث محمد اخبر محمد ابا طالب ان الله لم يرض عن التحالف الذي عقدته قريش وانه سلط على الصحيفة أرضة (اي دودة الشجرة) فلم تدع فيها غير اسماء الله ولا يبعد ان يكون ذلك امراً قد بلغه اليه احد الناس سراً فخرج ابو طالب الى قريش واعلمهم بما سمع وعرض عليهم انه ان كان الامر كذباً دفع اليهم ابن اخيه وان كان صدقاً فلينتهوا عن القطيعة وينقضوا تحالفهم على بني هاشم فرضوا بذلك ثم نظروا في الصحيفة فاذا هي كما قال فتعجبوا من ذلك جداً ونقضوا التحالف

وفي هـذه السنة مات ابو طالب وله من العمر بضع

---

(١) الجنابي

وثمانون سنة والذي عليه اكثر المؤرخين انه مات على الكفر الا ان آخرين يزعمون انه لما احتضر اسلم ويوردون ابياتاً من نظمه اثباتاً لزعمهم . وبعده بثلاثة ايام وقيل بشهر حل بمحمد رزئة اخرى وهي موت زوجته خديجة فدعيت تلك السنة عام الحزن[1] فازدادت قريش بعد موتها ايذاء لمحمد ولا سيما نفر منهم كانوا قبيل ذلك من اقرب الناس مودة اليه فاضطر ان يفر منهم الى موضع آخر فتحول الى الطائف وهي بلدة على ستين ميلاً الى الشرق من مكة ومعه مولاه زيد وهناك دعا رجلين من اشراف ثقيف سكانها الى دينه فلم يلبياه واقام مع ذلك بها شهراً فعامله قوم من اماثلها بالحسنى لكن الرعاع والعبيد ثاروا عليه والجأوه الى حائط[2] ثم اضطروه الى الانصراف عنهم فعاد الى مكة وحل في جوار مطعم بن عدي[3] .

فانخلعت قلوب اصحابه على اثر ذلك واما هو فبقي مستمراً

---

(1) ابو الفداء وابن الشحنة

(2) «قد وهم المؤلف هنا فقال انهم الجأوه الى سور المدينة. وذلك لانه فهم الحائط بمعنى الجدار او السور ولم يفطن الى معناه الآخر وهو البستان وهو المعنى الذي اراده المؤرخون الذين اخذ عنهم»

(3) ابن الشحنة

على ما كان عليه من عرض نفسه على القبائل في مواسم الحج فآمن به رهط من الناس وكان فيهم ستة من يهود يثرب من الخزرج فلما عادوا الى مدينتهم اقبلوا يثنون على دينهم الجديد ويدعون اليه اهلها

وفي السنة الثانية عشرة لمبعثه ادعى انه أسري به ليلاً من مكة الى بيت المقدس وعرج به منه الى السماء[1] وهما الاسراء والمعراج اللذان كثيراً ما يذكرهما كل من كتب سيرة محمد

قال واحد من علمائنا ان لم يكن محمد اختلق هذه القصة ليحقق اماني الذين كانوا يقترحون عليه معجزة تصح بها رسالته فقد رام بدعواه انه شافه ربه ان يؤيد الاحكام الشفاهية التي يتركها لقومه عن بعده ليكون حديثه عند المسلمين بمنزلة الشرع السماعي اي غير المدون عند اليهود. قلت يرد على هذا ان محمداً لم يكن من اول الامر يطمع في انه سيكون لحديثه من شديد الحرمة عند المسلمين ما صار له من ذلك بعد موته وانت تعلم ايضاً انه لم يدّع المعجزات قط فالاولى اذاً ان يقال انه جعل

---

[1] اول آية من سورة الاسرى . قال المعرب «انظر سياق البخاري لهذا الحديث الخليق بالصبيان»

هذه القصة حيلة يرفع بها جاهه عند قومه وذلك بان يدّعي انه شافهَ ربه في السماء كما شافههُ موسى في الطور وانه تلقى منه توًّا بعض فروض ورسوم وكان قبل ذلك يقنعه من امته ان يؤمنوا ان ذلك كان يأتيه على يد جبريل

ومهما يكن من هذا فان اصحابه وجدوا هذه القصة اشد سخفاً من ان يصدقها احد منهم وكانت سبباً لخذلانهم له حتى كادت تأول بامره الى البوار لو لم يقم ابو بكر بتزكيته فقال انه يصدقها[1] لان الصادق يعني محمداً قالها فعادت الى محمد ثقة اصحابه به بل زادت زيادة ضمنت له انه مهما قال بعد ذلك واقترح تلقي منه بالسمع والطاعة . وعندي ان هذه الخرافة على ما فيها من السخف والحماقة هي من ادق الحيل التي دبرها محمد واعظم شيء رفع قدره الى المنزلة العالية التي بلغها بعد ذلك

وفي هذه السنة وهي التي يدعوها المسلمون عام الرضوان اتى مكة اثنا عشر رجلاً من اهل يثرب عشرة من الخزرج واثنان من الأوس فبايعوا محمداً في العقبة وهي تل الى الشمال من مكة. وهذه البيعة تدعى بيعة النساء لا لانها كان فيها نساء

[1] « ولذلك دعي بالصديق »

بل لان المبايعين لم يلزمهم فيها حمل السلاح للدفع عن محمد او عن دينه كما لا يلزم النساء شيء من ذلك والحلف فيها هو عين الحلف الذي صارت النساء بعد ذلك يحلفن به كما تجده في القرآن[١] وهو ببعض تصرف ان لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا اولادهم[٢] ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين ايديهم وارجلهم ولا يعصوا النبي في معروف . فلما استوثق منهم في ذلك كله ردهم الى يثرب وبعث معهم واحداً من اصحابه اسمه مصعب ابن عمير ليفقههم في اصول دينهم الجديد ويعلمهم رسومه

فلما قدم مصعب يثرب استمال كثيراً من اهلها الى الاسلام وساعده على ذلك من كان قد اسلم بها من قبل وكان في من استمالهم رجل من اشرافها اسمه أسيد بن حضير وآخر اسمه سعد بن معاذ وهو امير الأوس ثم اخذ الاسلام بعد ذلك يمتد ويفشو سرعة حتى صار لا يخلو منه بيت في يثرب

وفي السنة التالية وهي سنة ثلاث عشرة لمبعثه عاد مصعب

(١) سورة ١٢:٦٠ . (٢) « وهو ما كان بعض عرب الجاهلية يفعلونه فيقتلون اولادهم خوف الاملاق »

الى مكة ومعه من مسلمي يثرب ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ونفر ممن لم يكن قد اسلم بعد فلما بلغوا مكة أرسلوا يعرضون على محمد ان يكونوا من انصاره وكان محمد وقتئذ شديد الاحتياج الى ذلك لان اعداءه كانوا قد اشتدوا عليه في مكة حتى اصبح مقامه بها ذا خطر عليه فلذلك قبل ما عرضه عليه هؤلاء الرجال وواعدهم الاجتماع بهم بالعقبة . فلما جنه الليل وافاهم اليها ومعه عمه العباس ولم يكن العباس وقتئذ مؤمناً بابن اخيه الا انه كان يود نجاحه فقام فيهم خطيباً وقال يا معشر الخزرج ان محمداً منا حيث علمتم وقد منعناه من قومنا وهو في عز ومنعة في بلده وانه قد ابى الانحياز اليكم واللحوق بكم فان كنتم تفون عندما دعوتموه اليه وتمنعونه ممن خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه. فقالوا بل نمنعه ممن خالفه ولا نخذله. فقال محمد ابايعكم اذن على ان تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم واولادكم ودار الكلام بينهم واستوثق كل فريق من الآخر ثم سألوا محمداً فقالوا ان قتلنا دونك فاي شيء لنا قال الجنة قالوا فابسط يدك

فبسط يده فبايعوه[١] ثم ردهم الى يثرب بعد ان اختار منهم اثني عشر رجلا جعلهم على الباقين نقباء كما كان الحواريون بالاضافة الى باقي تلاميذ عيسى[٢]

وكان محمد منذ ابتداء امره الى هذا الوقت[٣] انما يتذرع لنشر دينه بذرائع مقسطة لا تتوجه عليه فيها لومة لائم فكان نجاح امره قبل الهجرة يجب لهذه العلة ان يعزى الى الاقناع لا الاكراه لانه لم يكن مأذوناً له قبل هذه البيعة اعني بيعة العقبة الثانية ان يكره احداً على الاسلام بل كان في كثير من السور التي ادعى انها انزلت عليه وهو بعد في مكة يصرح بانه ما عليه سوى البلاغ والانذار وانه لم يؤمر باكراه احد على الدخول في دينه وانه سواء عليه آمن الناس ام لم يؤمنوا وانما الامر لله فقط . وفضلا عن انه لم يأذن لاصحابه في الاكراه كان يحضهم ان يصبروا على ما ينوبهم من الاذى بسبب ايمانهم ولما اضطهد هو نفسه آثر ان يهجر مكة مسقط رأسه وان ينصرف الى يثرب على ان يقاوم مضطهديه. غير ان هذا التجلد

---

(١) ابو الفداء (٢) ابن هشام (٣) « يريد وقت هجرته الى يثرب وهي الهجرة التي ابتدأ منها تاريخ المسلمين »

والاناة لم يكونا في السنين الاثنتي عشرة التي مرت منذ دعوى النبوة سوى نتيجة ضعفه وقوة اعدائه ولذلك فانه اول ما اشتد ساعده بانصاره من اهل يثرب وامكنه ان يناهض اعداءه صرح بان الله قد اذن له ولانصاره ان يدفعوا عن انفسهم اذى الكفار[١] ثم لما استفحل امره لم يلبث حتى ادعى انه قد اذن له ان يبادئهم القتال ويقطع الشرك ويقيم الدين الحق بالسيف[٢] وذلك انه تبين له بالخبرة انه لا يقدر ان يبلغ ما في نفسه بالسرعة المقصودة ما لم يكسر شوكتهم ويهد ركنهم دفعة واحدة كما عرف ايضاً ان كل من احدث امراً جديداً اذا كان اعتماده على قوته فقط وامكنه الاكراه فقلما يكون عليه منه خطر[٣] وبناء على هذا قال بعض اهل السياسة ان كل من كان من الانبياء شاكي السلاح فاز وكل من كان منهم اعزل خاب وان موسى وقورش ورومولوس وغيرهم لم يتأت لهم وضع شرائعهم

---

(١) سورة الحج : ٤٠ وتفسيرها (٢) سورة الانفال : ٤٠ « وجاء في الحديث قوله أمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله ».

(٣) « يريد انه لا خطر عليه من الاكراه اذا كان اعتماده على قوة السلاح »

واحكامهم وحمل الناس على الانقياد لها مدة مديدة لولا السيف
واول كلام من القرآن يبيح لمحمد حمل السلاح للدفع عن
نفسه هو قوله في سورة الحج اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا
وان الله على نصرهم لقدير . ثم انزل في ذلك بعد هذه الآية
آيات اخرى كثيرة

اما جواز استخدامه للسلاح في سبيل الدفاع عن نفسه
وكف عادية مضطهديه فالظاهر انه لا كلام فيه واما جواز اتخاذه
السيف بعد ذلك لاقامة دينه فامر لا اتعرض لبت الحكم فيه
في هذا الموضع على ان جواز تحكيم السيف في امور الدين او
وجوبه من المسائل التي لم يتفق عليها ولا ريب ان اكراه البشر
على الدخول في دين ما يدل على ان الدين الذي تتخذ مثل هذه
الوسائط لنشره ليس نعم الدين . ومن الغريب ان كلا من
اصحاب الاديان المختلفة ينكر الاكراه على غيره الا انه يستجيزه
لنفسه ولنشر دينه الخاص به زاعماً ان الدين الباطل لا يجب ان
يقوم بالسيف لكن ذلك واجب للدين الحق ولذلك ترى ان
الاكراه يأتيه من قدر عليه بمقدار ما ترى ان المكرهين يشكون
منه . ومهما يكن من هذا فمن جملة الحجج الدامغة على ان

الاسلام ليس من الله في شيء بل هو من وضع الناس انه ما قام ولا امتد الا بالسيف وان النصرانية هي من الله لانه لم يكن لها من سلاح غير الحق وبه غلبت قوات العالم كلها وذلك بعد ان لقيت ما لقيت من الاضطهاد وصدمات الاعداء في القرون الثلاثة الاولى فلم تتزعزع بل اضطرت قياصرة الروم انفسهم ان يعنوا لها في آخر الامر طائعين وتلك آية لم يبق بعد ذلك معنى لاستمرارها لان النصرانية اصبحت وهي متمكنة راسخة في البلاد والوثنية ملغاة شرعاً فاعان ذلك كثيراً في القرون التالية على انتشار النصرانية وبوار الوثنية

وقد خرج بنا هذا الاستطراد عما كنا فيه فنرجع الى ذلك ونقول انه لما امن محمد على نفسه بما ابرم مع اهل يثرب من عهد التناصر صيالا ودفاعاً امر اصحابه بالهجرة اليها[١] فخرجوا ارسالا وتخلف هو وابو بكر وعلي وادعى انه لم يؤذن له بعد في الهجرة فحذرت قريش عاقبة هذا التحالف ورأوا ان صد محمد عن الفرار الى يثرب مما لا يسعهم اهماله فاجتمعوا في دار الندوة

---

[١] « ولهذا دعوا بالمهاجرين كما دعي اهل يثرب بالانصار لمناصرتهم اياه بعد بيعة العقبة الثانية »

للتشاور في امره وعزموا على قتله بعد ان عرضت عليهم طرق اخرى اقل فظاعة من القتل يبلغون بها مأربهم فنبذوها[1] وعينوا لقتله غلاماً من كل بطن ليضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل كلها فلا تتصدى بنو هاشم للاخذ بثاره لانهم لا يقوون على قتال قريش كلها

فما كان تواطؤهم هذا يتم حتى بلغ محمداً فادعى حينئذ ان جبريل هبط عليه وكاشفه بما عزمت عليه قريش وامره بالهجرة الى يثرب ودعا علياً وامره ان ينام على فراشه ويلتحف ببرده الاخضر وانما رام بذلك ان يكيد اعداءه ففعل علي كما امر وهرب محمد بمعجزة خارقة كما زعموا الى دار ابي بكر ولم يشعر المتواطئون على قتله مع انهم كانوا قاعدين له عند باب داره ينظرون له من صير الباب لكنهم رأوا علياً نائماً فتوهموا انه محمد فما برحوا يحرسون الباب حتى اصبحوا فلما هب علي من نومه تحققوا انهم قد كيدوا وخدعوا

وسار محمد من دار ابي بكر الى غار ثور وهو جبل اسفل مكة الى الجنوب الشرقي منها وكان معه ابو بكر وعامر بن

---

(1) « وقد عددها البيضاوي في تفسير الآية ٣٠ من سورة الانفال »

فهيرة مولى ابي بكر ووثني اسمه عبد الله بن ارقط كانوا قد استأجروه ليدلهم على الطريق فتواروا في الغار ثلاثة ايام عن الذين ارسلت قريش في اثرهم وكادوا يقعون في ايديهم لولا ان الله نجاهم بمعجزة اخرى . قال قوم عمي القرشيون الذين كانوا يطلبونهم فلم يجدوا الغار . وقال آخرون لما دخل محمد وصاحباه الغار فرخت حمامتان عند مدخله ونسجت العنكبوت بيتها عليه فغطته فلم يفتشوا فيه ولما احس ابو بكر بطلوع قريش ورأى ما فيه محمد من الخطر حزن اشفاقاً عليه فعزاه محمد بقوله لا تحزن ان الله معنا[1] فلما انصرف اعداؤهم خرجوا من الغار وساروا قاصدين يثرب لكنهم نكبوا من الجادة واخذوا في طريق اخرى فنجوا بجدهم من الذين كانوا في طلبهم او بمعجزة كما يقول المسلمون وبلغوا يثرب سالمين وكان علي قد تخلف عنهم بمكة ليؤدي الودائع لاربابها فلما اداها وافاهم الى يثرب بعد ثلاث[2]

وكان اول شيء فعله محمد بعد بلوغه الى يثرب انه بنى مسجداً لعبادته وداراً لسكناه[3] وذلك في قطعة ارض كانت

---

(1) سورة براءة : ٤٠ (2) ابو الفداء (3) « فصارت بعد

قبل ذلك مربداً وقيل مقبرة وكانت في ملك يتيمين يقال لهما سهل وسهيل ابناء عمرو[١] ولما استقر مقامه بالمدينة واصبح فضلا عن الدفاع عن نفسه قادراً على مهاجمة اعدائه شرع يوجه سرايا قليلة العدد انتقاماً من قريش عما كانت تؤذيه به وكان اول بعث بعثه تسعة رجال فقط فاصابوا عيراً لقريش وانهبوها واسروا اثنين من رجالها. ولبث على ذلك الى ان كانت الحرب المشهورة بحرب بدر في السنة الثانية من الهجرة انتصر فيها على قريش نصرة عظيمة فاعتز من ذلك اليوم وعظم امره ولهذا اليوم ذكر مشهور في تواريخ المسلمين

واذ كان قصدي وصف النهج الذي اتخذه محمد للفوز في ما كان آخذاً فيه لا كتابة سيرته اضرب صفحاً عن تفصيل مغازيه وتعدادها ولكني اقول بالاجمال انها كانت كثيرة وقد احصاها بعض المؤرخين فكانت سبعاً وعشرين غزاة شيدها محمد بنفسه وقاتل في تسع منها[٢] وهذه سوى البعوث والسرايا التي سيرها لكنه لم يحضرها بنفسه[٣] وكان يقوم ببعض نفقة

استيطانه اياها تدعى المدينة اي مدينة محمد ونحن سندعوها كذلك فيما تقي من هذه المقالة» (١) ابو الفداء (٢) و(٣) المسعودي وابو الفداء

الجيش من الزكاة التي كان تابعوه يتبرعون بها في اول الامر لهذه الغاية ثم جعلها بحذقه المعهود احد اركان الاسلام اما الباقي فكان يقوم به من الفيء وهو خمس الغنائم فكان يجعله في بيت المال لهذا المقصد وهذا ايضاً ادعى انه مما امر به الله.[1]

ولم يمض على محمد الا بضع سنين حتى ازداد شأنه خطراً وشوكته قوة وذلك بما فاز به من الظفر في اكثر مغازيه وان كان قد اخفق في بعضها[2] وفي السنة السادسة من هجرته خرج معتمراً الى مكة في الف واربعمائة رجل وكان مسالماً لا يريد حرباً فلما بلغ الحديبية وهي موضع بعضه في الحل وبعضه في الحرم ارسلت اليه قريش يعلمونه انهم لا يأذنون له له في دخول مكة او يدخلها عنوة فجمع رجاله واخذ عليهم يمين الطاعة وبايعوه بيعة الرضوان وصمم على مناجزة القوم بمكة لكن جاءه من قبلهم عروة بن مسعود كبير الثقفيين[3] يسأله

---

[1] الانفال : ٤٢ [2] منها يوم احد اصيب فيه المسلمون وهزموا

[3] « كذا قال المصنف وقال غيره ان عروة هذا هو الذي ارسلوه اولاً ليقول لمحمد انهم لا يدعونه يدخل مكة اما الذي بعثوه في الصلح فهو سهيل بن عمرو »

الصلح فاتفقا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين وكتبا بذلك عهداً وكان من جملة ما في العهد ان من احب ان يدخل في عقد محمد دخل فيه ومن احب ان يدخل في عقد قريش دخل فيه

ولا بأس ان نذكر لك ههنا تبياناً لما كان عليه المسلمون منذ ذلك الوقت من شديد الاحترام والتعظيم لنبيهم ما قاله عروة بن مسعود لقريش بعد عودته اليهم قال اني جئت كسرى وقيصر في ملكهما فوالله ما رأيت ملكاً في قومه مثل محمد في اصحابه كان لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه ولا يبصق الا ابتدروا بصاقه ولا يسقط من شعره شيء الا اخذوه تبركا[١]

وفي السنة السابعة من هجرته شرع يفكر في نشر دينه فيما وراء جزيرة العرب فارسل الى من تاخمها من الملوك رسلاً بكتب يدعوهم فيها الى الاسلام فلم يخب سعيه تماماً. ان كسرى ابرويز ملك الفرس مزق كتابه وقال ايكاتبني بهذا وهو عبدي ورد الرسول من فوره ولما بلغ ذلك محمداً قال مزق الله ملكه. وبعد قليل من هذا جاءه رسول من قبل باذان ملك اليمن وكان

[١] ابن الاثير وابو الفداء وابن هشام والقاضي عياض

عاملا عليه للاكاسرة كما تقدم واعلمه ان ابرويز يأمر باشخاصه اليه فاخر محمد جوابه الى الغد فلما اصبحوا دعا رسول باذان واخبره انه اوحي اليه ليلته تلك ان الله قد سلط على ابرويز ابنه شيرويه فقتله[١] وقال له ايضاً سيبلغ ديني وسلطاني ملك كسرى فقل لباذان ليسلم فرجع الرسول الى باذان وبعد ذلك بايام قلائل وردت مكاتبة شيرويه الى باذان بقتل ابيه كسرى ابرويز وان لا يتعرض لمحمد فاسلم باذان ومن معه من الفرس[٢] لكن هرقل قيصر الروم اكرم رسول محمد كما يقول مؤرخو العرب ووضع الكتاب على مخدة وردّ الرسول رداً جميلاً وزعم بعضهم انه لولا خوفه على نفسه وملكه لاسلم[٣] وكتب كتاباً الى النجاشي يدعوه الى الاسلام مع انه فيما زعموا كان قد اسلم

---

(١) «كما تقدم في اول الفصل» (٢) ابو الفداء (٣) الجنابي وابن الاثير «وهاك صورة الكتاب على ما في الصحيحين . من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى اما بعد فاني ادعوك بدعاء الاسلام اسلم تسلم ويؤتك الله اجرك مرتين وان توليت فان عليك اثم الاريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون»

من قبل وكتب ايضاً الى المقوقس حاكم مصر فاكرم رسوله ورده بهدايا ثمينة وكان فيما اهداه اليه جاريتان احداهما وهي التي تدعى مارية القبطية حظيت عنده كثيراً[١] ثم ارسل بكتب الى كثير من ملوك العرب يدعوهم الى الاسلام منهم الحارث بن ابي شمر ملك غسان فلما قرأ كتابه قال ها انا سائر اليه فعندها قال محمد باد ملكه . ومنهم هوذة بن علي ملك اليمامة وكان نصرانياً قد اسلم اولاً ثم ارتد فاغلظ الجواب وقال ان جعل لي الامر من بعده اسلمت ونصرته فقال محمد لا ولا كرامة اللهم اكفنيه فمات بعد قليل ومنهم المنذر بن ساوة ملك البحرين فاسلم هو وكل عرب بلاده[٢]

وكانت السنة الثامنة من الهجرة ميمونة على محمد ففي اوائلها اسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وهما من رجال الحرب المبرزين والاول منهما هو الذي فتح الشام بعد ذلك بقليل كما فتح غيرها من البلاد والثاني فتح مصر . وفي اوائلها ايضاً سير محمد ثلاثة آلاف رجل على الروم ليأخذوا بثأر رسول له كان قد بعثه بكتاب الى عامل قيصر على بصرى يدعوه الى

(١) الجنابي (٢) ابو الفداء وغيره من المؤرخين

الاسلام كما بعث الى غيره من الملوك فقتله واحد من عرب غسان في مؤتة وهي بلدة بالبلقاء على مسيرة ثلاثة ايام من بيت المقدس فالتقى الفريقان بالقرب من هذه البلدة وكان الروم اكثر عدداً من العرب وذلك انهم كانوا في مائة الف مقاتل هذا اذا عددنا معهم من انضم اليهم من عرب الشام فهزموا المسلمين في اول صولة وقتلوا ثلاثة من قوادهم وهم زيد بن حارثة مولى محمد وجعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة فلما تولى قيادتهم خالد بن الوليد المتقدم ذكره هزموا الروم واثخنوا فيهم وغنموا منهم غنائم وافرة(١) وعلى اثر هذه الموقعة دعي خالد سيفاً من سيوف الله دعاه بذلك محمد(٢)

وفي هذه السنة ايضاً فتح محمد مكة بسبب نقض اهلها ما كانوا ابرموه من الصلح قبل ذلك بسنتين كما اسلفنا وذلك ان بني بكر وكانوا في عقد قريش لقوا بني خزاعة وكانوا في عقد محمد فقتلوا منهم نفراً واعانهم على ذلك قوم من قريش فخشيت قريش التباعة وندمت على نقض العهد وقدم ابو سفيان الى المدينة يريد تلافي الامر وتجديد العهد فخاب من قصده

(١) ابو الفداء (٢) البخاري

وذلك لان هذا الانتقاض سرّ محمداً فلم يأذن لابي سفيان في الدخول اليه فقصد ابا بكر وعلياً فلم يلبياه فرجع الى مكة خائباً وتجهز محمد من فوره ليفاجئ قريشاً قبل ان يتاهبوا وخرج اليهم بعد قليل في جيش كان يزداد يوماً فيوماً حتى بلغ عدده حين قارب مكة عشرة آلاف ولما لم يكن لاهلها قبل بمثل هذا العسكر الكثيف نزلوا على حكم محمد واسلم ابو سفيان فأمن على نفسه وقتل من المشركين ثمانية وعشرون رجلاً قاتلهم خالد خلافاً لامر محمد اذ كان قد نهى عن القتال فلما دخل محمد مكة واذعنت له قريش امن اهلها كافة الا ستة رجال واربع نسوة كانوا اشد جرماً عنده من غيرهم وكان بعضهم قد ارتد عن الاسلام فاهدر دماءهم لكن لم يقتل منهم سوى ثلاثة رجال وامرأة واحدة واسلم الباقون فعفا عنهم وفازت واحدة من النسوة بنفسها هرباً[١]

وقضى محمد ما بقي من هذه السنة في بعث السرايا حول مكة ليكسروا الاصنام ويدعوا العرب الى الاسلام فظفروا بمرادهم وهو غير عجيب في ذلك الوقت

(١) السيرة لابن هشام

اما السنة التالية وهي التاسعة من الهجرة فالمسلمون يدعونها عام الوفود وذلك ان العرب كانت قبلها في انتظار عاقبة الحرب بين محمد وقريش فلما اذعنت له قريش وهي اول قبائل العرب واعظمهن شأناً وذرية اسمعيل الصريحة لا تنكر العرب ذلك عرف باقي العرب انهم لا طاقة لهم بحرب محمد ولا عداوته فدخلوا في دينه افواجاً[1] وبعثوا اليه الوفود يبايعونه مدة اقامته بمكة وبعد قفوله عنها الى المدينة في هذه السنة نفسها وكان في جملة من اسلم وارسل الوفود للمبايعة خمسة من اقيال حمير[2]

وفي السنة العاشرة من هجرته ارسل علياً الى اليمن يدعو اهله الى الاسلام قالوا فاسلمت همدان كلها في يوم واحد ثم تابع اهل اليمن كلهم على الاسلام الا نصارى نجران فانهم آثروا اعطاء الجزية

وهكذا تأصل الاسلام وانقطع الشرك في بلاد العرب كلها عدا اليمامة ومحمد حي بعد لان وفاته كانت في السنة التالية وانما خرجت اليمامة عن سائر بلاد العرب لانه قام فيها رجل

---

(١) «وقد اشار الى ذلك في سورتي النصر والفتح»

(٢) ابو الفداء

يقال له مسيلمة وادعى النبوة مبارياً في ذلك محمداً فتبعه خلق كثير ولم يقدر المسلمون على قهره الا في خلافة ابي بكر [١] فلما قهر اجتمعت كلمة العرب على دين واحد وامير واحد فتأتى لهم من الفتوح ما تأتى وما افضى انتشار الاسلام في قسم كبير من المعمور

---

[١] «وسيمر بك في الفصل الثامن من هذه المقالة طرف من خبر مسيلمة هذا»



الفصل الثالث

في الكلام على القرآن وما تميز به عن غيره من الكتب وفي كيفية كتابته ونشره والغاية العامة المقصودة به

اعلم ان لفظة قرآن مشتقة من قرأ اي تلا تلاوة ومعناها ما يقرأ اي ما ينبغي ان يقرأ وهي عند المسلمين اسم للكتاب باسره ولكل جزء منه اياً كان ولكل سورة آية كانت وذلك اقتداء باليهود في اطلاقهم لفظ قراه او مِقرا اسماً على التوراة بجملتها وعلى كل جزء منها كائناً ما كان[١] وفي هذا ابطال دعوى جماعة من علماء المسلمين يزعمون ان كتابهم دعي قرآناً من قرأ الشيء اذا جمعه وضم بعضه الى بعض وذلك لما جمع فيه من سور او صحائف متفرقة كما يدحض حجة من زعم انه لا بد من ان يكون القرآن قد لفق دفعة ولم ينزل نجوماً في اوقات شتى على ما تقوله المسلمون وذلك لانه كثيراً ما يذكر ويدعى قرآناً في الكتاب نفسه[٢]

---

[١] واول ما دعي من التوراة باسم مقرا خمسة اسفار موسى فقط انظر سفر نحميا ص ٨ عد ٥ في الاصل العبراني

[٢] داي قبل ان يجمع على هيئة كتاب وبهذا ثبت انه مأخوذ من

وللقرآن زيادة على هذا الاسم الخاص به اسماء اخرى يشركه فيها باقي الكتب المنزلة فيقال له الفرقان اشتقاقاً من فرق اي فصل او ميز وذلك لا لانه مفرق اجزاءً وسوراً او لانه يفرق بين الحسنات والسيئات كما يزعم المسلمون بل للمعنى الذي يريده اليهود باستعمال لفظ فِرق او فِرقا للسفر او الفصل من التوراة[1] اذ كان اشتقاق لفظ فرقا العبراني ولفظ فرق العربي من مادة واحدة

ويقال للقرآن المصحف ايضاً وقد يدعى بالكتاب معرفاً

لفظ مقرا العبراني ومن ثم جاز ان يدعى كل جزء منه اياً كان قرآناً على التوسع كما جاز ان تدعى التوراة مقرا ولم تكن مشتملة بعد الا على اسفار موسى الخمسة وزد على ذلك ان اول فقرة زعم محمد انها انزلت عليه قد افتتحت بلفظ مشتق منه لفظ قرآن وذلك قوله في سورة العلق اقرأ»

[1] قال ابن ميمون وهو من مشاهير علماء اليهود كل فصل من كتاب المشنا يقال له عند اليهود فرق . «قال المعرب الاظهر من مراد المصنف ان القرآن انما سمي فرقاناً اقتداء باليهود الذين كان محمد يأخذ عنهم وكان بعضهم يكتب له ما يدعيه من الوحي كما سترى فلا يبعد ان يكون احد كتابه منهم سمى القرآن فرقاناً جرياً على عادة قومه في تسميتهم فصول المشنا فلزمه هذا الاسم»

بلام العهد تعظيماً لشأنه على حد ما كان يفعله اليونانيون من اطلاقهم لفظ ببلا معرفاً اي الكتاب على كل كتاب يريدون تعظيمه وكذلك يقال للقرآن الذكر وهو اسم شائع له وللانجيل ولاسفار موسى الخمسة

وقد قسم القرآن الى مئة واربعة عشر قسماً تختلف في الطول وتدعى سوراً واحدتها سورة وهي كلمة لا تكاد تستعمل لغير القرآن واصل معناها صف كما تقول صف آجر في البناء او صف عسكر ولها من الدلالة والاشتقاق ما للفظة شورا او تورا بالعبرانية[1] ويرادفها ايضاً في لغة اليهود لفظ سدر يجمعونه على سدريم ويدعون به الاقسام الثلاثة والخمسين المؤلفة منها اسفار موسى الخمسة[2]

وليس لسور القرآن اعداد متتالية كما لفصول اكثر الكتب[3] لكنها جميعاً ما عدا الفاتحة قد وضع لها اسماء تميز

---

[1] «ومنها اشتقاق التوراة» [2] ابن ميمون [3] «لكن المصنف قد وضع لها اعداداً في الترجمة الانكليزية تسهيلا لقراءتها على قومه وقد تابعه معرب هذه المقالة على ذلك في اكثر المواضع التي جاء فيها اشارة الى القرآن»

احداها عن الاخرى وهذه الاسماء اخذ بعضها عن قضية خصوصية جاءت في السورة او عن اسم انسان ذكر فيها وبعضها وهو الاكثر عن اول كلمة وردت في السورة ذات بال وذلك على حد ما فعله اليهود في وضعهم اسماء للسدريم . الا ان بعض السور لا تأتي فيها الكلمة التي دعيت بها الا بعد مسافة طويلة اي في اواسط السورة واحياناً عند منتهاها وهو مستغرب ولعل سببه ان الآية التي وردت فيها تلك الكلمة قد انزلت وكتبت متقدمة في التاريخ على اخواتها متأخرة عنهن في النسق وسميت بها السورة قبل تكامل آياتها او قبل انتساقها على النظام الذي هي عليه اليوم فانهم لما جمعوا القرآن ونسقوا السور وآياتها لم تقع تلك الآية دائماً في اول السورة . ولبعض السور اسمان او اكثر وذلك لاختلاف النسخ

والسور التي انزلت في مكة تدعى مكية والتي انزلت في المدينة تدعى مدنية غير ان كثيراً من السور قد انزل بعض آياتها في مكة وبعضها في المدينة وكثيراً منها قد اختلف المفسرون في هل هي مكية او مدنية

وتنقسم السورة اقساماً ثانية غير متساوية في الطول

ندعوها نحن فقرات وتدعى بالعربية آيات واحدتها آية وهي عين لفظة اوثوث بالعبرانية ومعناها علامات او معجزات لتضمنها ذكر اسرار الله وصفاته وافعاله واحكامه وفرائضه وقد وضع لبعض هذه الآيات اسماء[1] على حد ما فعلوا بالسور .

واعلم ان تقسيم السور الى آيات امر شائع معروف عندهم ومع ذلك لم يقع اليَّ بعد مصحف قد أعلمت آياته بالعدد فعلاً ولكنهم يذكرون في بعض المصاحف عدد آيات كل سورة بعد ذكر عنوانها ولعل ذلك لتحرّج المسلمين عن ان يفصلوا فعلاً بين آية واخرى اذ كان جل الاختلاف في نسخ القرآن انما هو على تقسيم آياته وعددها

واذ قد ذكرنا اختلاف النسخ تعين علينا ان نعلمك ان ثمَّ سبع نسخ اولية او اصلية لهذا الكتاب اثنتان منها كتبتا ونشرتا في المدينة وقرأ بهما اهلها والثالثة تنسب الى مكة والرابعة الى الكوفة والخامسة الى البصرة والسادسة الى الشام والسابعة تدعى العامة او الشائعة. وعدد الآيات في الاولى ستة

(١) «كآية الكرسي وآية السيف وذلك لان الاولى ورد فيها اسم الكرسي والثانية دعي فيها الى قتال من خالفهم في الدين»

آلاف وفي كل من الثانية والخامسة ستة آلاف ومائتان واربع عشرة آية وفي الثالثة ستة آلاف ومائتان وتسع عشرة آية وفي الرابعة ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية وفي السادسة ستة آلاف ومائتان وست وعشرون آية وفي السابعة وهي العامة ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون آية. اما عدد الكلمات فلا اختلاف فيه بين النسخ وهو سبعة وسبعون الفاً وستمائة وتسع وثلاثون كلمة كما ان عدد الحروف واحد في جميعهن وهو ثلاثمائة وثلاثة وعشرون الفاً وخمسة عشر حرفاً وفي هذا ايضاً اقتدى المسلمون باليهود فاحصوا مثلهم حروف كتابهم وكلماته بل زادوا عليه بما تجشموه من احصاء عدد المرات التي تكرر فيها كل واحد من حروف المعجم في القرآن ولا ادري اصحيح هذا الاحصاء ام لا

وفضلاً عن انقسام القرآن الى سور وآيات متفاوتة في الطول ينقسم ايضاً الى ستين قسماً متساوية تدعى احزاباً وكل حزب منها ينقسم ايضاً الى اربعة ارباع متساوية في الطول وذلك ايضاً اقتداء باليهود فانهم قسموا كتاب المشنا قديماً الى ستين قسماً لكن المألوف في اكثر نسخ القرآن قسمته الى ثلاثين

قسماً فقط تدعى اجزاء كل جزء منها بطول حزبين من الاحزاب المتقدم ذكرها وينقسم مثلها الى اربعة ارباع متساوية وذلك لاجل التسهيل على القراء في المساجد السلطانية او في الترب المجاورة لها حيثما يدفن الخلفاء وعظماء الرجال ففي كل واحدة من الترب ثلاثون قارئاً يقرأ كل واحد منهم جزءاً من القرآن في يومه حتى يختم القرآن مرة كل يوم

وبعد اسم كل سورة خلا التاسعة[١] يأتي ما يدعوه المسلمون بالبسملة وهي قولهم بسم الله الرحمن الرحيم وبها يفتتحون كتبهم وكل ما يخطونه بايديهم فهي شعارهم في الدين لا يهملونها ويحسبون تركها ضرباً من الكفر[٢] وكذلك كان اليهود قد اصطلحوا على شعار ديني يصدرون به ما يكتبونه وذلك قولهم بسم الرب او بسم الله العظيم وكذا كان لنصارى المشرق شعار وهو قولهم بسم الآب والابن والروح القدس الا انه يترجح عندي ان محمداً قد اخذ بسملته عن المجوس كما اخذ عنهم اشياء كثيرة غيرها فهم كانوا يصدرون كتبهم بقولهم

---

(١) وهي سورة براءة

(٢) «وفي الحديث كل امر ذي بال لم يبدأ فيه بسم الله فهو ابتر»

بنام يزدان بخشايشگر دادار وتفسير ذلك بسم الله الرحمن العادل

وقد اجمع جمهور علماء المسلمين ومفسريهم على ان هـذه الصورة من التيمن اعني البسملة المذكورة وكذلك اسماء السور جميع ذلك كلام الله كمتن الكتاب لكن فيهم مع ذلك من لا يشط هذا الشطط بل يقول انها زيادات وضعها الناس وليست كلام الله نفسه

وقد تميزت تسع وعشرون سورة من القرآن بانها تبدأ بعد البسملة بواحد او اكثر من واحد من حروف المعجم ويعتقد المسلمون ان هذه الاحرف آيات خاصة بالقرآن وانها تنطوي على معان واسرار غامضة اقر الباؤهم بقصور افهام البشر عن ادراك كنهها اللهم الا ان محمداً وحده وقد زعم مع ذلك جماعة منهم انهم قد وقفوا على المراد منها فخرصوا فيها انها تنوب عن الفاظ تعرب عن اسماء الله وصفاته وافعاله واحكامه واقضيته ولذا دعيت في القرآن آيات كسائر فقرات ذلك الكتاب وقد تأوّل جماعة معانيها من مخارجها او من الاعداد المفروضة لها في حساب الجمل فمن اختلافهم في الحدس والخرص يتضح لك انهم انما يقولون بالظن ويخبطون خبط عشواء. وهاك مثالاً

لما خرصوا فيه . ان في القرآن خمس سور قد بدئت بهذه الاحرف وهي ألم فزعم قوم انها تنوب عن قوله الله لطيف مجيد او قوله انا لي مني اي انا لي الكمال ومني كل خير او عن قوله انا الله اعلم فالالف تنوب عن اللفظة الاولى اذ هي اول احرفها واللام عن الثانية اذ هي ثاني احرفها والميم عن الاخيرة اذ هي آخر احرفها او عن قوله الله جبريل محمد اي من انزل القرآن ومن نزل به ومن انزل عليه وزعم آخرون انه لما كانت الالف من احرف الحلق وهو اول الاعضاء من جهاز النطق وكانت اللام من حروف الغار وهو العضو الاوسط من ذلك الجهاز وكانت الميم من حروف الشفة وهي آخر الاعضاء منه كانت هذه الاحرف عبارة عن قوله الله هو الاول والوسط والآخر او عبارة عن وجوب حمده في اول كلامنا واعمالنا وفي وسطها وفي آخرها وزعمت طائفة ان هذه الاحرف تبلغ الاعداد المفروضة لها في حساب الجمل واحداً وسبعين فمعناها اذاً ان الدين الذي جاء به القرآن يتم انتشاره واستتبابه في الارض في مدى احدى وسبعين سنة وعندي ان لما فسرها به احد علماء النصارى وجهاً لعله ادنى الى

الاصابة من تفسيرهم فقد حدس انها احرف وضعها كتاب محمد برأس السورة اختصاراً من قولهم اوعز الي محمد وذلك على حد ما وضع بعض كتابه من اليهود كهيعص برأس سورة مريم اختصاراً من قوله بالعبرانية كه يعص اي هكذا امر[١]

وقد وقع الاجماع على ان القرآن كتب بانصع لغات العرب وافصحها وذلك بلغة قريش اشرف قبائلهم واوفرهن حظاً من الادب وهو لا يخلو مع ذلك عن شيء من لغات القبائل الاخرى . ومما لا خلاف فيه ايضاً انه الحجة التي يرجع اليها في العربية وانه شمس قلادة الكتب العربية وواسطة عقدها بل ان اهل السنة والجماعة من المسلمين يعتقدون ما امروا في الكتاب نفسه ان يعتقدوه من انه ليس في طاقة بشر ان يأتي بمثله[٢] ويرون فيه معجزة مستمرة هي اعظم من احياء الموتى[٣] كافية وحدها ان تثبت انه كلام الله

---

(١) «كان بعض هؤلاء الكتاب غير مسلمين فلكي لا يظن بهم انهم يؤمنون بما يكتبونه وضعوا هذه الاحرف تنبيهاً على ان محمداً هو الذي امرهم ان يكتبوا كيت وكيت فكتبوه وهم منه براء»

(٢) «وهذا ما ينكره بعض فرق المسلمين كما سيمر بك»

(٣) احمد بن عبد الحليم وابن خلدون وكثيرون غيرهما

وقد جعل محمد جل اعتماده على هـذه المعجزة اثباتاً لمبعثه وبها تحدى فصحاء العرب وبلغاءهم وجزيرة العرب يومئذ مملوءة بالآلاف منهم والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم ومباهاتهم وكان ينادي بين اظهرهم تعجيزاً لهم ان يأتوا بسورة من مثله[١] وثم شواهد جمة لدي تثبت ان العرب وهم وقتئذ ارباب هـذه الصناعة قد راعهم من القرآن حسن تنضيده وتأليفه لكني اقتصر على ايراد شاهد واحد منها وذلك ان لبيد بن ربيعة الشاعر وكان من اعظم العرب لوذعية ايام محمد لما علق قصيدته في الكعبة وهذا فخر لا يناله الا المنظومات المبرزة لم يجسر غيره من فحول الشعراء على مباراته في ذلك فلما علقت سورة البقرة من القرآن بجانب تلك القصيدة اتى لبيد نفسه وهو اذ ذاك مشرك فما قرأ منها سوى الفقرات الاولى حتى اعجب بها غاية الاعجاب ودان من فوره بالدين الذي تدعو اليه وقال ان كلاماً مثل هذا لا يقدر عليه الا من اوحي اليه وصار لبيد بعد ذلك كثير النفع لمحمد يرد على ما كان يهجوه به المشركون ولا سيما امرؤ القيس ملك

---

[١] سورة الاسرى : ٩٠ والبقرة : ٢١ ويونس : ٣٩ وهود : ١٦

قبيلة اسد صاحب احدى المعلقات السبع المشهورة[1]

وعبارة القرآن حسنة منسجمة في اكثر المواضع ولا سيما حيث يحاكي اسلوب الانبياء ويتقيل نمط التوراة وهي موجزة وغالباً عويصة مستغلقة يزينها انواع من الكنايات والاستعارات بحسب ذوق الشرقيين ولكلامه رونق وزخرف وتحبير وفيه كثير من الجمل البليغة في ايجازها ثم انه في مواضع كثيرة سنيّ رائع ولا سيما حيثما يأخذ في ذكر عزة الله وقدرته

وهو وان كان قد كتب نثراً فلجمله وفقراته روي كثيراً ما ينقطع من اجله المعنى قبل ان يتم ويتكرر اللفظ تكراراً سخيفاً لم يكن له لولا الروي من ضرورة وهو في النقل اشد سخافة منه في الاصل لانه يفقد في النقل حلية التسجيع التي جيء به من اجلها لكن العرب مولعون بهذه الطنطنة اعني التسجيع جداً حتى انهم يجيئون به في اهم مصنفاتهم واكثرها

[1] « قال المعرب لا يخلو كلام المصنف هنا من وهم لان المظنون ان لبيداً لم يقل من الشعر بعد اسلامه الا بيتاً واحداً وهو قوله

الحمد لله اذ لم يأتني اجلي ... حتى لبست من الاسلام سربالا

(انظر كتاب الاغاني جزء ١٤ صحيفة ٩٧) ولعل المصنف قد اختلط عليه اسم حسان ابن ثابت باسم لبيد في امر الرد على اهاجي الشعر »

تحريراً ثم يحلونها بآيات مقتبسة من القرآن وباشارات اليه حتى لا تكاد تفهم ما يكتبونه ما لم تكن مطلعاً اطلاعاً كافياً على القرآن

ولعل ما ظهر للعرب في هذا الكتاب من سلاسة العبارة وحسن الرصف هو مما حداهم الى قبول الدين الذي جاء به ولعله قوى في القرآن حججاً ما كانت لتقوم بسهولة لو جيء بها عارية من هذه الحلية من البديع ومن الخطابة فكم وكم من قصة تحكى عما لزخرف القول من التأثير وسحر العقول اذا احسن قائله اختيار الالفاظ وتلطف في سبكها وتنضيدها على ما يوافق غرضه فتفعل في الالباب فعل الموسيقي ولذلك صار مصاقع الخطباء يعزون الى هـذا الباب من فن الخطابة تأثيراً لا ينقص عن تأثير غيره من الابواب ولعمري ان من لا تشجوه فقرة متزنة اللفظ حسنة السبك فبئس السمع سمعه وما كان محمد يجهل ما لزخرف الخطابة من فعل السحر [1] وسلب الالباب فلذلك لم يهمل شيئاً من بهرج البيان وزخرف الخطابة فيما ادعاه من الوحي هـذا مع افراغ جهده في المحافظة على سمو عبارته حتى يكون خليقاً بالاله الذي نحله اياه ونسبه اليه وبذل وسعه

---

[1] «وهو القائل ان من البيان لسحرا»

في محاكاة اسلوب الانبياء انبياء التوراة فنجح فيما تجشمه اتم النجاح وخلب قلوب مستمعيه بزخرف قوله حتى خيل لخصومه انه سحر كما نراه يشكو من ذلك احياناً[١]

اما الغاية العامة التي توخاها محمد في قرآنه فهي كما قال احد علماء عصرنا ان بلاد العرب كانت وقتئذ غاصة بشعوب وامم عديدة مختلفة ويتفرقون في بيداء ضلالهم بلا هاد يهديهم اذ كان معظمهم وجلهم عبدة اوثان وباقوهم يهوداً او نصارى من اهل البدع[٢] فتوخى محمد ان يجمعهم على معرفة الله واحد ازلي لا تدركه الابصار به كانت الاشياء كافة وبه يكون ما ليس بكائن هو مدبر الكون وديانه وربه المطلق حتى اذا عرفوه عبدوه وحده عبادة مبنية على شرائع معلومة وعلى رسوم وشعائر بعضها قديم الوضع وبعضها حديثه فمن قبل ذلك اثيب ومن رفضه عوقب في دنياه وآخرته . كما توخى ان يحملهم كافة على الانقياد اليه والطاعة له من حيث هو نبي ذلك الاله ورسوله الذي بعثه بعد تكرار الانذار والوعد والوعيد ليقيم دينه في

---

[١] سورة ١٥:١٥ و٣:٢١ و٤٢:٣٤ و٢٩:٤٣ و٦:٤٦

[٢] «اي نساطرة ويعاقبة»

الارض بحد السيف وليعترف الناس بامامته في امور الدين وبرئاسته في امور الدنيا فيكون وحده امامهم واميرهم

فاذا تقرر هذا نقول ان الركن الاعظم من اركان الدين الذي جاء به القرآن هو التوحيد وان رد الناس اليه هو اهم ما بعث محمد لاجله فيما زعم اذ كان مما لا ريب فيه عنده انه لم يكن قط ولن يكون ابداً سوى دين واحد حق قيم وان هذا الدين وان كانت فروضه وشعائره زمنية وقابلة للتبديل تبعاً لما يوحيه الله الى عباده فجوهره لا يتغير بل يستمر كما هو لانه حق لا يحول ولا يزول ثم كلما كان هذا الدين يهمل او يتطرق الفساد الى اصوله الجوهرية كان الله يستأنف بلطفه اعلانه للناس على لسان انبياء متعددين كان موسى وعيسى اعظمهم حتى جاء هو اي محمد فكان خاتمهم ولا نبي بعده ينتظر [1] ثم انه لكي يحمل الناس على تلبية دعوته شحن قسماً كبيراً من القرآن بشواهد وقصص عما نزل قديماً من العقاب الهائل بالذين كذبوا انبياء الله وآذوهم وقد اخذ كثيراً من هذه القصص او بعض

---

(١) «كما جاء في حديثه الذي رواه قتادة كنت اول الانبياء في الخلق وآخرهم في البعث»

احوال منها عن التوراة واسفار العهد الجديد ولكن معظمها اخذه عن كتب موضوعة[١] واحاديث كانت دائرة على ألسنة اليهود والنصارى في عصره فاخذها واوردها في قرآنه كحقائق راهنة واتخذ من معارضتها للتوراة والانجيل حجة على ما اتهم به اليهود والنصارى من تحريفهما[٢] ويغلب على ظني انه ليس في تلك القصص شيء قد اختلقه من عند نفسه كما يتهم اذ يسهل علينا ان نجد لاكثرها اثراً في تلك الكتب الموضوعة المتقدمة على محمد بكثير كما كان يسهل علينا ان نجد اصلاً لباقيها لو توفرت عندنا تلك الكتب بتمامها او لو كان في تقصي ذلك ما يساوي العناء

وشغل محمد قسماً آخر من القرآن بما لا بد منه من الشرائع والاحكام وبتكرار الحض على الصلاح والفضائل ولا سيما التدين وعبادة الاله الحق وحده وتفويض الامور اليه وفي خلال ذلك اشياء كثيرة صالحة حرية بان يتلوها النصارى انفسهم

---

(١) « يشير المؤلف هنا الى الكتب التي يدعوها النصارى غير قانونية وهي المعروفة بالابوكريفا كانجيل الصبوة وغيره »

(٢) انظر صورة ٥:١٨

اما ما بقي من القرآن ففيه كثير من الآيات التي نزلت في امور خاصة او حوادث عارضة وذلك ان محمداً كان كلما عرض له امر يربكه او فاجأته معضلة يضيق بها ذرعاً ولا يتهيأ له وجه التخلص منها يعمد الى دعوى الوحي فيها على الوجه الذي يختاره وهو الحكم الفصل الذي لا يتوجه عليه تكذيب ولا اعتراض فنجحت حيلته هذه على وفاق ما كان في نفسه . لكن الطف حيلة وابرعها انه استنزل القرآن تاماً الى السماء الدنيا فقط ولم يستنزله دفعة واحدة الى الارض لانه لو وقف عليه الناس تاماً لاعترضوا عليه اعتراضات جمة يعسر على محمد حلها حتى لا نقول يستحيل لكنه بادعائه انه انزل عليه نجماً نجماً بحسب ما كان يرى الله انه الاصلح لهداية عباده وتفقيههم سهل عليه ان يعد لكل مسألة جواباً ويتخلص من كل معضلة تخلصاً محموداً. فان اتخذ المعترض من ذلك حجة على ما يعتقده المسلمون من ازلية القرآن عمدوا الى ما يؤمنون به من سابق القضاء والقدر فجعلوه جواباً له وقالوا ان الامور الطارئة او العوارض التي دعت الى نزول تلك الآيات كان الله قد قدرها وقضى بها منذ الازل

ومما لا مراء فيه ولا ينبغي ان يختلف فيه اثنان ان محمداً هو في الحقيقة مصنف القرآن واول واضعيه وان كان لا يبعد ان غيره اعانه عليه كما اتهمته العرب [١] لكنهم لشدة اختلافهم في تعيين الاشخاص الذين زعموا انهم كانوا يعينونه عليه وهت حجتهم وعجزوا عن اثبات دعواهم ولعل ذلك لان محمداً كان

---

[١] انظر صورة ١٦:١٠٥ و٢٥:٥ و٦ «وتفسيري الزمخشري والبيضاوي فترى ان بعضهم قال اعانه عليه جبر الرومي مولى عامر بن الحضرمي وكان قارئاً كاتباً وقال غيرهم بل اعانه اثنان من الموالي يعملان السيوف بمكة وكان لهما حظ من القرآءة فكان محمد اذا مر بهما وقف واستمع ما يقرآن ووعاه . وقالت طائفة من علما النصارى ان الذي لفق له ما ادعاه من الوحي يهودي اسمه عبد الله بن سلام وكان صديقاً لمحمد وكان معه يهوديان آخران احدهما وهب بن منبه والآخر كعب الاحبار . لكن الذي عليه اكثر مؤلفي النصارى هو ان اعظم معين لمحمد على وضع القرآن هو راهب نسطوري اسمه بالرومية سرجيس ويعرف عند العرب ببحيرا وكان محمد قد لقيه ببصرى من الشام وتعرف به . ومما يدل على ان سرجيس او سرجيوس وبحيرا اسمان لمسمى واحد وهو الراهب المذكور قول المسعودي في الباب السادس من مروج الذهب ان بحيرا يدعى في كتب النصارى سرجيوس وقال ابن العبري عن حسن البكري ان اسمه باللاتينية فيلكس وتفسيره سعيد وكنيته بحيرا»

اشد احتياطاً من ان يترك سبيلاً لكشف الامر

ومهما يكن من هذا فالمسلمون ينكرون اشد الانكار انه محمداً نفسه وضع القرآن او ان احداً غيره وضعه له وقد اجمع اهل السنة والجماعة منهم على اعتقاد انه كلام الله نفسه لا بل انه ازلي غير مخلوق قائم بذات الله وانه اول ما كتب بجانب العرش في لوح عظيم يدعى اللوح المحفوظ قد كتبت فيه اقضية الله الماضية والتي ستأتي وان جبريل نزل ليلة القدر من شهر رمضان[1] الى السماء الدنيا بنسخة منه قد نقلت عن ذلك اللوح وكتبت في درج من القرطاس وكان من هنالك يهبط به على محمد نجوماً في اوقات متفرقة ومواضع مختلفة تارة في مكة وتارة في المدينة على مدة ثلاث وعشرين سنة وذلك حسبما كانت تقتضيه الاحوال وتدعو اليه الحاجة لكنه كان تطيباً لنفس النبي يعرضه عليه تاماً مرة كل سنة وذلك بمصحف مجلد بالحرير محلى بالذهب وجواهر الجنة وقد تكرم عليه في آخر سنة من عمره بان متعه بالنظر اليه مرتين

ويقول المسلمون ايضاً انه لم ينزل من السور تامة دفعة

---

(1) سورة القدر

واحدة الا القليل وان معظم القرآن نزل نجوماً[1] فكان اذا نزل نجم منه على محمد كتبه كتابة في موضعه من السورة بارشاد جبريل حتى تستوفي كل عدد آياتها وقد اجمعوا على ان اول ما نزل منه الآيات الخمس الاول من سورة العلق . فاذا املى محمد على كتّابه ما نزل عليه منه كتبوه ودفعوه الى المسلمين فيأخذ بعضهم نسخة عنه لنفسه لكن اكثرهم كانوا يحفظونه غيباً فاذا استعيدت النسخ الاصلية وضعت في صندوق مختلطة بما تقدم عليها وبدون مراعاة تواريخها فلذلك لا يعلم على التحقيق تاريخ كثير من الآيات ومتى نزلت

ولما توفي محمد ترك وحيه على ما ذكرناه من الاختلاط غير مرتب على ما نراه الآن ولكن خليفته ابا بكر هو اول من عني بهذا الترتيب وذلك انه رأى ان كثيراً من الآيات لم يكن لها ما يضبطها سوى تحفظ بعض المسلمين لها غيباً وكان كثير من هؤلاء قد قتلوا في المغازي فامر بجمع ما كان مكتوباً منها على الاقتاب والعسب[2] وما كان منها في صدور الرجال يقرأ

---

(1) وكذلك اليهود يقولون ان الناموس اعطي لموسى نجوماً (2) «كان القرآن يكتب عليها وعلى الجلود وعظام الاكتاف ويجعل ذلك بين دفتين»

عن ظهر القلب فلما تمّ جمعه وكتبه في مصحف اودع المصحف عند حفصة بنت عمر احدى زوجات محمد

ولما افضت الخلافة الى عثمان وقف في السنة الثلاثين من الهجرة على اختلاف نسخ القرآن في بعض الامصار عن بعض اذ كان اهل العراق مثلاً يقرأون بقراءة ابي موسى الاشعري واهل الشام بقراءة مقداد بن الاسود فشاور الصحابة وامر ان تكتب عدة مصاحف عن مصحف ابي بكر المودع عند حفصة وفوض ذلك الى زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث المخزومي وقال لهم ان اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم [١] ولما كتبت هذه المصاحف حمل كل واحد منها الى مصر من الامصار واحرقت المصاحف القديمة وتلاشت. وقد صحح هؤلاء النساخ اشياء كثيرة في مصحف ابي بكر الذي اخذوا عنه الا انه لم يزل مع ذلك في القرآن قراءات مختلفة بعضها في الحروف والكلم وبعضها في الشكل وهو الاكثر [٢] وذلك انه

---

(١) ابو الفداء (٢) اعلم ان صور الشكل التي نراها اليوم لم تستعمل في العربية الا بعد محمد بسنين عزا قوم وضعها الى يحيى بن

لعدم وجود علامات للشكل اذ ذاك افتقروا الى قراء يحسنون قراءة الكتاب بحركات اعرابه الا ان هؤلاء القراء لم يتفقوا على قراءة واحدة في كل المواضع وهذا سبب ما نراه اليوم في المصاحف المضبوطة بالشكل من الاختلاف في الحركات اما القراء الذين اعتمد المفسرون على قراءتهم فهم سبعة

واعلم ان في القرآن بعض آيات متناقضة يحتج عنها علماء المسلمين بحجة النسخ ويدفعون اعتراض المعترض بقولهم ان الله امر باشياء كثيرة في القرآن الا انها نسخت بعد ذلك لعلة اوجبت نسخها. ومنسوخات القرآن ثلاثة انواع نوع نسخ حرفه وحكمه ونوع نسخ حرفه وبقي حكمه ونوع نسخ حكمه وبقي حرفه. فمما نسخ حرفه وحكمه بضع آيات كانت على ما روى أنس بن مالك تقرأ في سورة التوبة على عهد محمد لكنها لا توجد اليوم في القرآن ولم يذكر أنس منها سوى آية واحدة

يعمر وغيرهم الى نصر الليثي وغيرهم الى ابي الاسود الدؤلي وهم من علما البصرة التابعين . « قيل انه لما وضع الشكل امر الحجاج فكتبت مصاحف مشكولة واحرق كل ما كان سواها فاتهم انه انما فعل ذلك ليمحو سورة من القرآن كانت في لعن بني أمية كما سيمر بك في التذييل»

وهي قوله لو ان لابن آدم واديين من ذهب لابتغى اليهما ثالثاً ولو ان له ثالثاً لابتغى اليه رابعاً فلا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب . ومن ذلك ايضاً ما رواه عبد الله بن مسعود من ان محمداً املى عليه آية فكتبها ثم التمسها ثاني يوم في مصحفه فلم يجدها وكانت الصحيفة خالية. فاخبر النبي بذلك فقال له انها نسخت من ليلتها. ومما نسخ حرفه وبقي حكمه آية تدعى آية الرجم روى الخليفة عمر انها كانت في القرآن ايام محمد وليست فيه اليوم وهي قوله ولا ترغبوا عن آبائكم فان ذلك كفر بكم والشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم [١] ومما نسخ حكمه وبقي حرفه مئتان وخمس وعشرون آية متفرقة في ثلاث وستين سورة . فمن ذلك امره باستقبال بيت المقدس في الصلاة وامره بالصيام على الحكم القديم [٢] والكف عن الكفار واشباه ذلك [٣] وهذا

---

[١] اطلب كتاب «آية الرجم» بقرش صاغ [٢] سورة البقرة ١٧٩

[٣] قاله ابو هاشم هبة الله . قال المعرب «وقال ابن العربي كل ما في القرآن من الصفح عن الكفار والتولي والاعراض والكف عنهم فهو منسوخ بآية السيف وهي الخامسة من سورة براءة فتكون قد نسخت اكثر من مائة وعشرين آية»

النوع من المنسوخات قد عني بجمعه وتبيان نواسخه طائفة من العلماء

ثم انه وان كان اهل السنة والجماعة من المسلمين يعتقدون ان القرآن غير مخلوق بل هو ازلي قائم بذات الله ويقولون ان محمداً نفسه كفر من قال بخلقه الا ان كثيراً منهم ولا سيما المعتزلة والمزدارية قالوا بخلقه وكفروا من قال بقدمه لما يلزم عن ذلك من القول بقديمين. وقد احتدمت نار الجدال في هذا الامر على عهد بعض الخلفاء العباسيين فلحق الناس بسببه بلاء عظيم ونكال شديد . وذلك ان المأمون امر الناس ان يقولوا بخلق القرآن[١] وجرى على ذلك المعتصم والواثق من بعده[٢] فكان من قال بالخلاف يجلد ويحبس ويقتل صبراً فلما افضت الخلافة الى المتوكل بعد الواثق كف الاضطهاد والمحنة وابطل اوامر سلفائه واطلق من كان في المحبوس بهذا السبب وامر

[١] وذلك سنة ٢١٨ للهجرة كما في تاريخ ابن العميد وابن العبري

[٢] وكان في خلافة المعتصم عالم اسمه ابو هرون بن البكاء وكان ينكر خلق القرآن لكن يقر بكونه مجعولا لقوله انا جعلناه قرآناً عربياً (سورة الزخرف :٢) ويسلم بان كل مجعول مخلوق لكنه يحجم عن النتيجة (ابن العبري)

بترك الجدل في القرآن وان الذمة بريئة ممن يقول بخلق او بغير خلق

ويشبه ان يكون الغزالي قد الف بين المذهبين اذ قال ان القرآن مقروء بالالسنة مكتوب في المصاحف محفوظ في القلوب وهو مع ذلك قديم قائم بذات الله لا يقبل الانفصال والفراق بالانتقال الى القلوب والاوراق وكأنه يريد بذلك ان اصل معنى القرآن اي فحواه هو القائم بذات الله فيلزم عن ذلك انه مع الله في الجوهر او الذات وفي القدم لكن المصاحف مخلوقة وقد كتبها البشر

وللجاحظ الذي تنتسب اليه فرقة الجاحظية مذهب في القرآن اغرب من ان يهمل التنبيه عليه فانه كان يقول ان القرآن جسد يجوز ان ينقلب مرة رجلاً ومرة حيواناً[١] وهذا يوافق مذهب الذين يقولون ان للقرآن وجهين وجه رجل ووجه بهيمة واظن ذلك اشارة الى احتماله وجهين من التأويل احدهما حرفي وهو حمل الكلام على ظاهره والآخر مجازي[٢]

---

[١] الشهرستاني [٢] ولعل الوليد بن يزيد الاموي الذي يدعوه المسلمون فاسقاً زنديقاً كان يعتقد ان للقرآن وجهاً واحداً لا غير وهو

وكما ان في المسلمين من قال بخلق القرآن فكذلك فيهم من انكر اعجازه وقال ليس فيه من خارقة لا باعتبار الفصاحة ولا باعتبار التنضيد والتأليف الا ما قص فيه من امور مضت والانباء بامور ستكون وانه لو لم يصرف الله الدعاوي عن معارضته ويمنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً بل لو خلاهم وشأنهم لكانوا قادرين على ان يأتوا بكتاب مثله بل يفوقه بلاغة وفصاحة وتنضيداً وهذا مذهب آخر من مذاهب المعتزلة خصوصاً المزدارية والنظامية[١]

ولما كان القرآن دستور المسلمين في الايمان والاعمال كثر ولا غرو مفسروه ولعلنا لا نخرج عما نحن فيه اذا نبهنا على القواعد التي يراعونها في تفسيره. فاعلم ان احد اعلام

وجه الرجل فعامله معاملة من يعقل وذلك انه استفتح فيه فالا ذات يوم فخرج له قوله واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد (سورة ابرهيم ١٨:) فالقاه ورماه بالسهام ثم انشد

اتوعد كل جبار عنيد فها انا ذاك جبار عنيد
اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يارب خرقني الوليد

[١] الشهرستاني وسنلمع بشيء من مذهبهم في الفصل الثامن

المفسرين[١] نوع ما في القرآن وقسمه الى مجازي وهو ما يدعى في الكتاب نفسه متشابهاً والى محكم وهو الآيات الصريحة التي تدعى ام الكتاب[٢] فالمتشابه يدخل فيه الآيات المبهمة والامثلة المضروبة والمعاني المستغلقة والمنسوخات والمحكم هو كل ما كان بيناً لا لبس فيه ولا احتمال ولم يبطل حكمه

ولا بد لتفسير ذلك على وجه الصواب من البحث في الحديث وغيره لمعرفة الزمن الذي نزلت فيه الآية المفسرة واسباب نزولها والاحوال المتعلقة بها والتي دعت اليها اي انه لا بد لمن يروم تفسير آية ما من ان يعرف هل هي مكية او مدنية منسوخة او ناسخة متقدمة او متأخرة وذلك باعتبار زمن نزولها لا باعتبار موضعها من المصحف منقطعة عن غيرها او متصلة خاصة او عامة مجازية او حقيقية[٣] فما تقدم يسهل عليك ان تعلم ان القرآن كتاب يحترمه المسلمون غاية الاحترام ويعظمون شأنه غاية التعظيم لا يمسونه ما لم يتوضأوا اولاً[٤]

---

[١] الزمخشري في تفسير الآية الخامسة من سورة آل عمران
[٢] سورة آل عمران : ٥ [٣] هذا معنى كلام احمد بن محمد الثعلبي ويحيى بن سلام البصري في اصول التفسير [٤] وذلك كاحترام اليهود

واحتراساً من ان يمسوه على غير انتباه وهم غير اطهار فقد اصطلحوا ان يكتبوا على جلده هذه الآية منه لا يمسه الا المطهرون[1] وهم يقرأونه بالتفهم والهيبة لا تحط به ايديهم تحت مناطقهم ابداً ويقسمون به ويستفتحون به في المهمات[2] ويحملونه معهم في الحروب ويكتبون آيات منه على راياتهم ويوشونه ويحلونه بالذهب ويرصعونه بالاحجار الكريمة ولا يدعونه على علم منهم في حوزة غير المسلم

وقد وهم من زعم انهم يرون ترجمته الى غير العربية انتهاكاً لحرمته فانهم قد عنوا بنقله الى الفارسية وغيرها من اللغات ولا سيما لغة ملقة من جزائر الهند ولغة جاوه لكنهم اجلالاً للعربية التي كتب بها يجعلونها اصلاً في المصاحف ويجعلون الترجمة بين سطورها

ناموسهم فلا يمسونه قبل غسل ايديهم وتجليل الكتاب بغطاء او نحوه

(١) سورة الواقعة : ٧٨ (٢) وذلك انهم يفتحونه صفحةً ويأخذون فالهم من اول كلام يقع عليه نظرهم كما فعل الوليد وقد مرت بك قصته وانما اخذوا ذلك عن اليهود ايضاً فانهم يستفتحون بالتوراة على هذا الوجه

الفصل الرابع

في الاسلام اي في تعاليم القرآن واوامره المتعلقة بالايمان وفروض الدين

قد تقدم في غير موضع ان الركن الذي بنى محمد الاسلام عليه هو انه لم يكن قط ولن يكون ابداً سوى دين واحد حق قيم مداره في القضايا الاعتقادية على الاقرار بالله حق واحد والايمان بمن يبعثه من الرسل او الانبياء حيناً بعد حين بما لا بد منه من الوثائق المؤذنة بأنهم رسله ليبلغوا الناس اوامره ويطاعوا وفي القضايا العملية على مراعاة الناموس الازلي الذي لا يعتريه تغير ابداً الفارق بين الحق والباطل والصواب والخطإ وعلى مراعاة رسوم وفروض اخرى يأمر الله بها في اوقاتها كما يراه الاصلح للناس تبعاً للشرائع المختلفة التي يكونون عليها في عصر عصر لان هذه الرسوم والفروض ليست بذات بال في نفسها لكنها صارت ملتزمة لمجرد امر الله فهي اذن زمنية وقد تتغير تبعاً لارادته تعالى

هذا هو الدين الذي وضعه محمد ودعاه اسلاماً من التسليم

وهو التفويض والخضوع لاحكام الله[1] فصار ذلك اسماً خالصاً بالدين المحمدي وهو الدين الذي يزعم المسلمون انه في اركانه عين الدين الذي كانت عليه الانبياء كافة من آدم فنازلاً

وقد زعم محمد ان هذا الدين القديم الازلي كان في ايامه فاسداً لا تدين بصحيحه امة من الامم ولذلك ادعى انه نبي قد بعثه الله ليصلح فساده ويعيده الى صحة اصله مع اضافة فروض ورسوم خاصة بعضها مما وضع قديماً وبعضها محدث وقد حصر معنى دينه كله في مقدمتين او قضيتين يدعوهما المسلمون شهادتين وهما ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ويلزم عن الشهادة الثانية ان كل ما يحسن عنده ان يضعه من السنن والاحكام ينبغي قبوله وانزاله منزلة النصوص الالهي

وقد قسم المسلمون ديانتهم هذه اعني الاسلام الى قسمين متميزين احدهما نظري وهو الايمان والآخر عملي وهو الدين

---

[1] الاصل المشتق منه هذا اللفظ يفيد معنى النجاة ايضاً فلا يبعد ان يكون هذا المعنى هو الملموح في تسمية الدين المحمدي اسلاماً وحينئذ يكون معناه دين السلامة والنجاة الا ان معنى التسليم هو الذي عليه جمهورهم واليه الاشارة في سورة البقرة :١٠٦ و١١٢ و١٣٠ وغيرها

وقالوا انه قد بني على خمسة اركان احدها يتعلق بالايمان والاربعة الباقية تتعلق بالدين

اما ركن الايمان فهو الشهادتان المتقدم ذكرهما وهما ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله وهذا اصل يتفرع عنه ستة فروع هي الايمان بالله وبملائكته وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره [١]

اما اركان الدين الاربعة فهي الصلاة (ويدخل فيها الوضوء والغسل) ثم الزكاة ثم الصيام ثم حج البيت الحرام وسأجعل كلامي في كل واحد من هذه الاركان والفروع مرتباً على النسق الذي نسقت عليه فاقول

ان ما يعتقده محمد واهل السنة والجماعة من المسلمين في الله وصفاته هو اعتقاد صحيح حق (لا يشوبه سوى مكابرتهم في

---

[١] «روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن عمر بن الخطاب ما نصه الاسلام ان تشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا قاله محمد لجبريل حين اتاه على صورة رجل قال صدقت فاخبرني عن الايمان قال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»

انكار التثليث) كما يظهر ذلك من القرآن نفسه ومن كل ما كتبه علماء الكلام منهم ظهوراً بيناً يغنينا عن التصدي لادحاض حجة من زعم ان اله محمد هو غير الاله الحق وانه زونٌ او طاغوت لا وجود له في الحقيقة بل في وهم محمد فقط . ولا ادخل ههنا في البحث عن اختلاف المسلمين ومناظراتهم في ذات الله وصفاته فليس هذا موضعه وقد افردت له الفصل الثامن من هذه المقالة

اما وجود الملائكة وطهارتهم فقد اوجب القرآن الايمان بذلك وكفر من انكر وجودهم او كان لهم عدواً [١] او قال انهم اناث او ذكور [٢] ثم ان المسلمين يعتقدون ان لهم اجساداً طاهرة نقية لطيفة قد خلقت من نور وانهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون وان لهم صوراً واحوالاً شتى فمنهم من يعبد الله على هيئات مختلفة ومنهم من يسبحه او يشفع عنده في الناس ومنهم كتبة اعمال البشر وحملة العرش الى غير ذلك من الشؤون

---

(١) سورة البقرة:٩٢ (٢) سورة الاسرى :٤٢ والصفات :١٥٠ والزخرف :١٨

وعندهم ان اربعة من هؤلاء الملائكة هم اعلى عند الله منزلة من سائرهم وكثيراً ما يذكرونهم بسبب ما خصوا من الولايات فاولهم جبريل وله عندهم القاب كثيرة اخصها روح القدس وملاك الوحي ويزعمون انه امين الله المفضل على غيره وكاتب اقضيته وثانيهم ميكال صديق اليهود وحاميهم[1] وثالثهم

---

[1] دروي ان عبد الله بن صوريا من احبار فدك حاج محمداً وسأله عمن يهبط عليه بالوحي فقال جبريل فقال ذاك عدونا ولو كان غيره لامنا بك وقد عادانا مراراً اشدها انه انزل على نبينا ان بيت المقدس سيخربه بختنصر فبعثنا من يقتله فلقيه ببابل فدفع عنه جبريل وقال ان كان ربكم امره باهلاككم فانه لا يسلطكم عليه والا فبم تقتلونه. وروي ان عمر كان يمر على مدارس اليهود في طريقه فسألهم ذات يوم عن جبريل فقالوا ذاك عدونا يطلع محمداً على اسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب وان ميكال يجيء بالخصب والسلام فقال لهم وما منزلتهما من الله تعالى قالوا جبريل عن يمينه وميكال عن يساره وهو عدو لجبريل فقال عمر لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوين ولانتم اكفر من الحمير ومن كان عدواً لهما كان عدواً لله (انظر تفسيري الزمخشري والبيضاوي على الآية الحادية والتسعين من سورة البقرة) هـذا ونحن نعلم من التوراة ما يعتقده اليهود من كون ميخائيل صديقهم وحاميهم (دانيال ١٢:١) وما يعتقده الفرس من ان جبريل هو ملاك الوحي كما يدعونه لانه كثيراً ما بعث برسالات من هذا القبيل (دانيال ٨:١٦ و٩:٢١ وانجيل لوقا

عزرائيل ملاك الموت. ورابعهم اسرافيل وهو الذي سيوكل بالنفخ في الصور يوم البعث والنشور[١]

ويعتقد المسلمون ايضاً ان لكل انسان ملاكين حافظين يرافقانه ويكتبان اعماله[٢] ويعقبهما في ذلك غيرهما كل يوم فلذلك يدعى هؤلاء الحفظة بالمتعاقبين المعقبات[٣]

وانما اخذ محمد واصحابه هذا الاعتقاد باسره عن اليهود واليهود انفسهم يقرون بانهم اخذوا اسماء الملائكة ووظائفهم عن الفرس فقد كان لقدماء الفرس ثابت اعتقاد بوظائف الملائكة وبانهم مسيطرون على الناس في الدنيا (وهذا عين اعتقاد المجوس في ايامنا) ولذا خصوا كل رهط منهم بولاية ووظيفة

١٩:١ الى ٢٦) ولا يبعد ان يكون هذا هو السبب الذي ادعى محمد من اجله ان الذي كان يهبط عليه بالوحي انما هو جبريل»

[١] سورتا الانعام والرعد وغيرها

[٢] سورة يونس ٢٢: [٣] سورة الرعد ١٢: «وجاء في صحيح البخاري عن ابي هريرة يتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود ما منكم من احد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا واياك يا رسول الله قال واياي ولكن الله اعانني عليه فاسلم فلا يأمرني الا بخير»

معينة وسموا الشهور والايام باسمائهم وكانوا يدعون جبريل صورش ويسمونه روان بخش وتفسيره واهب النفوس او المحيي وذلك في مقابلة مرداد وهو من اسماء ملاك الموت عندهم ومعناه المهلك او المميت وكانوا يدعون ميخائيل بشتر وهو القائم بمعايش الناس. هذا ما كان يعتقده قدماء الفرس في الملائكة. اما اعتقاد اليهود فيهم فهو انهم مخلوقون من نار[1] وان لهم وظائف شتى وانهم يشفعون في الناس ويقومون عليهم ويخدمونهم. ثم انهم يدعون ملاك الموت دوما ويقولون انه اذا احتضر الانسان جاءه فناداه باسمه. اما الشيطان واسمه في القرآن ابليس من ابلس اي يئس فقد كان واحداً من الملائكة المقربين على ما ذكره القرآن وكان يدعى عزازيل فلما عصى امر الله بالسجود لآدم سقط[2]

وقد اوجب القرآن على المسلمين ان يعتقدوا وجود الجن

---

[1] مزمور ١٠٤: ٤ [2] سورة البقرة: ٣٢ والاعراف: ١٠ الى ١٧ والحجر: ٣١ الى ٤٢ والاسرى: ٦٣ والكهف: ٤٨ وطه: ١١٥ وص: ٧٤ وهذه المواضع كلها قد ذكر فيها سقوط ابليس وحده ولم يذكر فيها سقوط باقي الشياطين»

وهم صنف من الخلائق بين الملائكة والشياطين قد خلقوا من نار[١] لكنهم دون الملائكة في لطافة الاجساد وذلك انهم يأكلون ويشربون ويتناسلون ويموتون[٢] وفيهم كالناس صالح يثاب وطالح يعاقب ولذا ادعى محمد انه بعث الى الثقلين[٣] اي الى الانس والجن

واعلم ان الشرقيين يزعمون ان الجن كانوا سكان الارض قبل آدم بقرون وانهم كان لهم ملوك كثيرون يدعى كل واحد منهم سليمان فلما كفروا على تمادي الزمان وفسدوا ارسل الله ابليس فاجلاهم والحقهم باطراف التخوم[٤] وسجنهم هنالك الا بقية بقيت منهم حاربهم طهمورث احد ملوك الفرس القدماء والجأهم الى جبل قاف وروى عن حروبه معهم قصص وخرافات كثيرة مخترعة ويزعمون انهم اصناف ومراتب فمنهم الجان والسعالى والعفاريت والتوابع

ولا يختلف مذهب المسلمين هذا في الجن عما يذهب

---

[١] سورة الرحمن :١٤ «وفي الحديث خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار» [٢] السيوطي في تفسير البقرة والكهف [٣] سورة الرحمن :٣١ [٤] «كتاب المعارف لابن قتيبة»

اليه اليهود في نوع من الارواح الخبيثة يطلقون عليهم اسم شديم ويتوهم بعضهم انهم ولدوا للملكين يقال لهما عزا وعزائيل من نعمة بنت لامك وذلك قبل الطوفان . ومهما يكن من هذا فانهم يقولون ان هؤلاء الشديم يشبهون الملائكة في ثلاثة في الاجنحة والطيران من احد طرفي الارض الى الآخر ومعرفة شيء من الغيب ويشبهون الناس في ثلاثة في التغذي والتناسل والموت ويقولون ايضاً ان فيهم صالحين يؤمنون بشرع موسى واشراراً كافرين

اما الكتب المنزلة فاعتقاد المسلمين فيها على ما جاء في القرآن ان الله اوحى مشيئته في ازمنة متفرقة بكتب انزلها على عدة من الانبياء فيجب على كل مسلم حسن الاسلام ان يؤمن بها كلها وبكل كلمة فيها وهي مائة كتاب واربعة كتب عشرة منها انزلت على آدم وخمسون على شيث وثلاثون على ادريس وهو اخنوخ وعشرة على ابرهيم فهذه مائة كتاب واما الاربعة الباقية فهي التوراة انزلت على موسى [1] والزبور على داود والانجيل على عيسى والقرآن على محمد ولما كان محمد خاتم

---

(١) «المراد بالتوراة عندهم اسفار موسى الخمسة بخصوصها»

النبيين[1] ختم الوحي بقرآنه فلا وحي بعده وقد اقر المسلمون بان تلك الكتب الا الاربعة المذكورة باسمائها قد فقدت بتمامها ولا يعلم شيء مما كان فيها[2] وان كان الصابئون يزعمون ان عندهم كتباً شتى تعزى الى انبياء متقدمين على الطوفان. ويدعي المسلمون ايضاً ان ثلاثة من هـذه الكتب الاربعة يعنون التوراة والزبور والانجيل قد كثر فيها التبديل والتحريف حتى اصبحت نسخها التي بايدي اليهود والنصارى لا يوثق بها وان كان لا يستحيل ان يكون فيهـا شيء من كلام الله الحق وقد اكثر القرآن من الطعن في اليهود خاصة لتحريفهم التوراة بزعمه وعلماء المسلمين يستشهدون على تحريف هـذه الكتب الثلاثة بامثلة متعددة تخالف ما فيها[3] وانما يستندون في ذلك الى مجرد اوهامهم وما يتداولونه بينهم من خرافات واقاصيص مختلقة وهم لا يشعرون . اما هل عندهم نسخة من التوراة تخـالف نسخة

---

[1] الاحزاب : ٤٠

[2] « ومن الغريب ان فرض على كل مسلم ان يؤمن بكل كلمة فيها وهو يجهل ما تضمنته»

[3] «ويتخذون من معارضة هذه الامثلة للتوراة والانجيل او من عدم وجودها فيهما حجة على تحريفهما ! »

اليهود فذلك لا اعلمه يقيناً على ان احد متأخري اهل السياحة روى ان عندهم في الهند نسخة من كتب موسى لكن فيها تحريفاً كثيراً الا اني لا اعلم ان احداً عاينها. ومهما يكن من هذا فما لا شك فيه ان عندهم كتاباً بالعربية والفارسية يدعونه كتاب الزبور ويقرأونه في خلواتهم وقد الحقوا به شيئاً من تسابيح موسى ويونان وغيرهما. قيل وليس هذا الكتاب بزبور داود المعروف عندنا وانما هو خلاصة منه يتخللها فصول من غيره اجنبية بعضها عن بعض

وما عدا الكتب التي تقدم ذكرها فللمسلمين اطلاع ايضاً على كتب طائفة من انبياء التوراة كدانيال وغيره ويوردون منها شواهد لكنها ليست عندهم مما يحتج به في مسائل الدين ولا ينزلونها منزلة الكتب الالهية

اما الانبياء الذين بعثهم الله على فترات بينهم فلا ينقص عددهم عن مئتين واربعة وعشرين الف نبي كما جاء في بعض الاحاديث النبوية او عن مائة واربعة وعشرين الفاً كما جاء في حديث آخر [١] منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر نبياً فقط بعثوا رسلاً

[١] داورده البيضاوي والزمخشري في تفسير سورة الحج»

الى الناس ليردوهم عن الكفر والضلال ومن هؤلاء ستة لا غير وهم آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد جاء كل واحد منهم بشرع جديد ناسخ للشرع المتقدم عليه

ويعتقد المسلمون بعصمة الانبياء كافة عن الكبائر ومهم الخطإ وبانهم وان اختلفت شرائعهم كانوا جميعاً على دين واحد وهو الاسلام ويسلمون بان درجتهم متفاوتة وبان بعضهم مفضل على بعض فارفعهم درجة الانبياء الذين جاءوا بشرائع جديدة ثم المرسلون

ويعدون في هذا الجم الغفير من الانبياء كثيراً من آباء العهد القديم ورجالاً غيرهم ذكرتهم التوراة لكنها لم تدعهم انبياء[1] مثل آدم وشيث ولوط واسمعيل ونون ويشوع وغيرهم ويدعون بعضهم بغير الاسماء التي دعوا بها في التوراة فيدعون اخنوخ ادريس وعابر هوداً ويثرون شعيباً ويدخلون في هذا العدد ايضاً رجالاً لا ذكر لاسمائهم في التوراة مثل صالح

---

(١) وهم في ذلك متابعون لبعض اليهود والنصارى فاليهود مثلاً يدعون عابر نبياً وابيفانيوس يدعو آدم نبياً وليسا من النبوة في شيء

والخضر وذي الكفل الا انهم يحاولون ان يجدوا مسمى فيها لكل واحد منهم

واذ كان محمد قد سلم بان التوراة والزبور والانجيل كلام الله فكثيراً ما يتخذ من موافقة قرآنه لها ومما كان فيها بزعمه من النبوات التي تشير اليه حجة تثبت مبعثه لكنه يتهم اليهود والنصارى بانهم حذفوا منها كل كلام يشير اليه[1] ولا يعجز تابعوه عن ايراد نصوص مما بايدينا منها ليثبتوا دعوى صاحبها[2]

---

[1] سورة البقرة :٣٩ و٧٠ و١٤١ و١٥٤ و١٦٩ وسورة آل عمران : ٦٤ [2] «فمن ذلك ما جاء في تثنية الاشتراع ٣٣:٢ من ذكر فاران ويزعمون انه من جبال مكة وفاتهم ان فاران مدينة بالقرب من خليج العقبة وعلى مسافة خمسمائة ميل من مكة . ومن ذلك ما جاء في بعض الترجمات العربية من زبور داود ٥٠:٢ وفي نسخة رومية ٤٩ وذلك قولها خطأ من صهيون اظهر الله اكليلاً محموداً وصوابه من صهيون تجلى الله فقالوا اي من صهيون اظهر الله اكليل محمد . ومن ذلك ما جاء خطأ في نبوة اشعيا ٢١:٧ من قوله فابصر مركب فارسين احدهما راكب حمار والآخر راكب جمل وهذا مما اخطأت فيه الترجمة السبعينية وصوابه ركاب حمير وركاب جمال فقالوا راكب الحمار عيسى وراكب الجمل محمد !!!»

اما الايمان باليوم الآخر اي بقيامة عامة ودينونة مستقبلة فقد اوجبه القرآن على المسلمين ولكن قبل ان نأخذ في البحث عن مقالاتهم في هذا المعتقد ينبغي ان نذكر هنا ما امروا باعتقاده فيما تكون عليه حالة الروح وحالة الجسد بعد الموت اي في الفترة التي بين الموت والقيامة فنقول

زعموا انه اذا لحد جسد الميت تلقاه في القبر ملاك واعلمه بمجيء منكر ونكير وهما ملكان اسودان هائلا المنظر فاذا اتيا الميت امراه فجلس ثم سألاه عن ايمانه بالتوحيد ومبعث محمد فان اجاب بالصواب تركاه وشأنه منتعشاً بنسيم الجنة والا ضربا صدغيه بمقمعة من حديد فيصيح من الوجع صياحاً عالياً تسمعه الخلائق كافة الا الثقلين اي الانس والجن[١] ثم هالا عليه التراب فيسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً لكل واحد منها سبعة اروس تخدشه وتلحسه الى يوم يبعثون[٢] وقالت طائفة ان معاصيه تنقلب عقارب وحيات فالقوي منها يلدغه لدغ التنين

---

(١) «اذ لو سمعه الانس والجن لم يبق فيهم كافر ولم يبق بالتالي معنى لبعثة محمد» (٢) «كما جاء في حديث اورده الغزالي في احياء علوم الدين»

والضعيف يلسعه لسع العقرب وما بينهما يؤذيه ايذاء الحية الا ان بعضهم يحمل ذلك على المجاز[1]

وقد بني اعتقادهم بسؤال القبر لا على ما جاء فيه من صريح الحديث فقط بل على ما لمح اليه القرآن[2] ايضاً تلميحاً بيناً وان لم ينص عليه نصاً فلذا يعتقده اهل السنة والجماعة كافة ويحرصون على جعل قبورهم جوفاً ليسهل عليهم الجلوس فيها اذا اتى منكر ونكير لسؤالهم لكن المعتزلة منهم ينبذونه بتة وقد ينبذه غيرهم ايضاً

ولا شك ان محمداً اخذ هذه التصورات عن اليهود فانهم كانوا يتصورونها ويقولون بها من عهد قديم جداً ويزعمون ان ملاك الموت اذا اتى القبر وجلس عليه عادت روح الميت الى جسده وانتصب على قدميه فيأخذ الملك في سؤاله ويضربه بسلسلة نصفها حديد ونصفها الآخر نار فترتخي وتنحل اعضاؤه لاول ضربة وتنخلع عظامه للثانية وتتفرق فتجمع شملها طائفة من الملائكة وتضم بعضها الى بعض وينقلب الجسد للضربة

[1] كما ذكر الغزالي في الاحياء

[2] سورة الانفال :٥٢ وسورة محمد :٢٩

الثالثة تراباً ورماداً فيعود الى قبره. وهذا العذاب يقال له بلغتهم هبوت هقبراي ضرب القبر[١] ويزعمون انه لا بد لكل انسان ان يذوقه الا من مات ليلة السبت او سكن ارض اسرائيل

فاذا اعترض على المسلم بان صراخ المعذبين في القبر لم يسمعه احد قط اجاب انه ليس لاحد من الاحياء ان يطلع على ما وراء القبر واذا قيل له ان من الناس من يموت بالحريق او تأكله السباع والطير او يفنى جسده من غير ان يقبر فكيف يمكن سؤال والحالة هذه قال هو مع كل ذلك غير ممتنع اذ يكفي عند السؤال ان تحيا بضعة من الجسد كائنة ما كانت فهي ما يسألها عنه منكر ونكير

اما الروح فيعتقدون انه اذا انتزعها عزرائيل من الجسد ناشطاً اياها من بدن المؤمن نشطاً ونازعاً اياها من بدن الكافر غرقاً[٢] دخلت في ما يدعونه بالبرزخ وهو مدة ما بين الدنيا والآخرة اي الفترة بين الموت والبعث[٣] فيتلقى روح المؤمن

---

(١) وهو قريب من الهبت والهبط بالعربية بمعنى الضرب»

(٢) البيضاوي في تفسير سورة النازعات :١و٢ وهذا ما يقوله اليهود ايضاً (٣) سورة المؤمنين : ١٠٢

ملكان يصعدان بها الى الجنة فتجعل في المقام الذي تستحقه بحسب ما يكون لها من المنزلة وذلك ان ارواح المؤمنين على ثلاث مراتب عندهم اولاها ارواح الانبياء فهي تدخل الجنة من ساعتها والثانية ارواح الشهداء فهي في حواصل طير خضر تسرح من الجنة حيث شاءت كما جاء في الحديث والثالثة ارواح سائر المؤمنين وفي شأنها قبل القيامة خلاف بين العلماء فمنهم من يقول ان روح المؤمن تقيم عند قبره ولها مع ذلك ان تذهب حيث شاءت وحجتهم في ذلك تسليم محمد على الموتى في قبورهم وقوله لمن انكروا عليه ذلك ما انتم باسمع لما اقول منهم غير انهم لا يستطيعون ان يردوا علي شيئاً ولعل هذا سبب ما جرت به عادة المسلمين من زيارة قبور موتاهم. ومنهم من يقول انها تقيم مع آدم بالسماء الدنيا ويحتج لقوله هذا بما جاء عن محمد من انه كان راجعاً من السماء السابعة ليلة المعراج المزعوم رأى ارواح اهل الجنة في السماء الدنيا عن يمين آدم وارواح اهل النار عن يساره[1] ومنهم من يقول ان روح المؤمن تقيم

---

[1] وكذلك يقول اليهود ان نفوس الصديقين في الاعالي تحت عرش العظمة

ببئر زمزم وروح الكافر ببرهوت وهي بئر بحضرموت الا ان هذا القول يحسب بدعة ومنهم من يقول ان روح المؤمن تقيم عند قبره سبعة ايام ثم لا يعلم احد اين تذهب بعد ذلك وقالت طائفة انها تكون في الصور وهو الذي اذا نفخ فيه قامت الاموات وقال غيرهم ان ارواح المؤمنين تكون في صورة طير خضر تحت العرش

اما ارواح الكفار او الاشرار فقد تقدم قول بعضهم فيما تكون عليه حالها بعد الموت وقال اهل السنة والجماعة ان الملائكة يعرضونها على السماء والارض فلا تقبل لنتنها وقذارتها فتحمل الى الارض السابعة وتلقى في سجين[1] وهو سجن تحت صخرة خضراء او تحت حنك ابليس كما جاء في الحديث فتقيم ثم معذبة حتى اذا نفخ في الصور عادت الى اجسادها

ثم انه وان كان بعض المسلمين قد ذهب في القيامة الى انها امر روحاني فقط وانها ليست سوى رجوع النفس الى حيث كانت اولاً[2] وذهب آخرون منهم وهم الذين لا يرون

[1] سورة المطففين :٧ و٨

[2] وهذا المذهب ينصره ابن سينا ويدعى مذهب الفلاسفة . قال

في الانسان سوى الجسد الى امر جسداني فقط الا ان المذهب المقبول عندهم هو ان النفس والجسد كليهما ينشران في اليوم الآخر . وقد افرغ علماؤهم جهدهم في اثبات ان قيامة الاجساد ممكنة وكثرت بينهم المباحثات في كيفية ذلك على ان هذا مما كفاهم محمد مؤونة البحث فيه وذلك انه احترز له ببقاء عضو من الجسد سليماً من البلى وان بلي سائره حتى يكون بمنزلة الاساس للبناء او بمنزلة خميرة تخمر الطينة التي تنضم اليها فقال كل ابن آدم تأكله الارض الا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب اي كما ان العجب هو اول ما صور في جسد الانسان فكذلك يصان وحده من البلى الى يوم القيامة ويكون جرثومة يتجدد منها سائر الجسد وقال ان ذلك يتم بمطر يرسله الله اربعين يوماً حتى يغمر الارض ويرتفع اثنتي عشرة ذراعاً.

المعرب وللشهاب السهروردي وهو منهم ابيات يلمح منها هذا المذهب وهي :

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى ... وصبت لمغناها القديم تشوقا
وتلفتت نحو الديار فشاقها ... ربع عفت اطلاله فتمزقا
وقفت تسائله فرد جوابها ... رجع الصدى ألا سبيل الى اللقا
فكأنها برق تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه ما ابرقا

فتنبت به الاجساد نباتاً او ما في معناه . وهذا ايضاً من جملة ما اخذه محمد عن اليهود فهم يقولون عن عظم اسمه لوز بالعبرانية كل ما قاله محمد عن العجب الا ان ما يعزوه محمد الى فعل مطر غزير يعزوه اليهود الى فعل ندى يلقح تراب الارض

اما قيام الساعة متى يكون فيعترف المسلمون بانه لا يعلمه غير الله وان جبريل نفسه اعترف بجهله اياه لما سأله محمد عنه[١] وهم مع ذلك يقولون ان لاقتراب الساعة آيات تتقدمه وتدل عليه وهي على ضربين صغيرة وكبيرة

اما الصغيرة فهي :

اولاً — قلة الايمان بين الناس اي رجوعهم الى عبادة اللات والعزّى[٢]

ثانياً — ان الحفاة العراة العالة يتطاولون في البنيان

ثالثاً — ان الامة تلد ربتها ولعل معنى ذلك ان الناس يعكفون

(١) «وذلك انه لما سأله محمد عن الساعة قال ما المسئول عنها باعلم من السائل»

(٢) قابل هذا بما ورد في انجيل لوقا ١٨:٨

في آخر الايام على شهوات البدن[1] او ان المسلمين سيأخذون سبياً كثيراً[2]

رابعاً – كثرة الهرج والمرج

خامساً – اقتتال المسلمين والترك[3]

سادساً – شدة عظيمة على الارض حتى ليمر الرجل بقبر الرجل فيقول ياليتني كنت مكانه

سابعاً – امتناع العراق والشام عن اداء الخراج

ثامناً – امتداد ابنية يثرب الى اهاب او يهاب

واما الكبيرة فهي هذه :

اولاً – طلوع الشمس من مغربها كما كانت في زعم قوم قبل اولاً

ثانياً – خروج دابة الارض من الكعبة او من الصفا او

---

(١) «تسرياً او سفاحاً فيولد للرجل اولاد من امائه او محاظيه فيرثونه وقد يتفق ان ترث البنت فيما ترثه امة هي امها فتصير البنت ربة لامها» (٢) «ويكون في جملة ما يسبيه الرجل حماته فاذا مات ورثتها زوجته عنه فتصير ربة لامها» (٣) «وفي الحديث لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الاعين ذلف الانوف كأن وجوههم المجان المطرقة قال ابن الشحنة اراد بهم الترك»

من ربة الطائف او من موضع آخر [١] وسيكون طولها ستين ذراعاً في زعم قوم منهم وزعم غيرهم ممن لم يقنعوا بهذا الطول الزهيد ستبلغ السحاب بل السماء ولم يخرج منها سوى رأسها وانها تلبث في الارض ثلاثة ايام لكنها لا تظهر للناس سوى ثلث بدنها. اما شكلها الفظيع فمركب من صور حيوانات مختلفة الانواع فلها من الثور رأسه ومن الخنزير عيناه ومن الفيل اذناه ومن الايل قرناه ومن النعامة عنقها ومن الاسد صدره ومن النمر لونه ومن الهر ظهره ومن الكبش ذنبه ومن البعير قوائمه ومن الحمار صوته. وقال قوم انها تخرج ثلاث خرجات في مواضع شتى ويكون معها عصا موسى وخاتم سليمان وانها لسرعة سيرها لا يفوتها هارب ولا يدركها طالب فتنكت بالعصا في مسجد المؤمن [٢] نكتة بيضاء وتسمه بلفظة مؤمن وتنكت بالخاتم في انف الكافر نكتة سوداء وتسمه بلفظة كافر حتى يعلم شان كل كما هو قالوا وانها ستظهر بطلان كل دين خلا الاسلام وكل هذا الهذيان انما هو نتيجة خواطر مختبلة اصلها الوحش المذكور في سفر الرؤيا ١٣:

[١] «على اختلاف بين علمائهم في موضع خروجها» [٢] اي في جبهته

ثالثاً — حرب مع الروم فيأخذ القسطنطينية سبعون الفاً من بني اسحق لا يقاتلون بسلاح ولا يرمون بسهم بل يهللون ويكبرون فتندك اسوارها وبينما هم يقتسمون الغنائم اذ يأتيهم ان الدجال قد خرج فيتركون كل شيء ويرجعون

رابعاً — خروج الدجال المذكور وهو عندهم اعور مكتوب بين عينيه ك ف ر اي كافر قالوا ان اليهود يدعونه المسيح ابن داود ويزعمون انه سيأتي في آخر الازمان ويتسلط على البر والبحر ويعيد الملك اليهم . وجاء في الحديث ما معناه انه اول ما يخرج بين العراق والشام وقال قوم بل من خراسان وقالوا انه سيركب حماراً ويتبعه سبعون الف من يهود اصفهان عليهم الطيالسة ويلبث في الارض اربعين يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر ايامه كأيامكم وانه ما من بلد الا سيطأه الا مكة والمدينة لان الملائكة يحرسونهما ثم يدركه عيسى آخر الامر عند باب لدّ فيقتله . وجاء في الحديث لا تقوم الساعة حتى يبعث الله دجالين كثيرين قريباً من ثلاثين لكن اعظمهم واحد

خامساً — نزول عيسى الى الارض زعموا انه سينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق وقد رجع الناس من القسطنطينية

ويدين بالاسلام ويتزوج ويولد له اولاد ويقتل الدجال ويلبث في الارض اربعين سنة او اربعاً وعشرين سنة في قول بعضهم ثم يموت[١] وسيكون في ايامه امن وخصب في الدنيا ويعيش الناس وليس بين اثنين منهم عداوة ويسكن الاسد والبعير معاً ويربض الدب مع النعاج ويلعب الاولاد بالحيات فلا تؤذيهم[٢]

سادساً — حرب مع اليهود فيقتلهم المسلمون قتلاً ذريعاً حتى ان الحجر والشجر ليدلانهم عليهم الا الغرقد فانه شجر اليهود

سابعاً — خروج يأجوج ومأجوج وقد جاء عنهم في القرآن[٣] والحديث قصص متعددة فمنها ان اوائلهم يمرون على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر اخرهم فيقول لقد كان بهذه مرة ماء ثم يسيرون حتى ينتهوا الى بيت المقدس وفيه عيسى واصحابه فيضيقون عليهم فيدعو عيسى ربه فيهلكهم ويملأ الارض زهمهم ونتنهم ثم يدعو عيسى ربه فيرسل عليهم طيراً كاعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ويستوقد المسلمون

---

[١] الثعالبي في تفسير سورة النساء

[٢] قابل هذا بما جاء في نبوة اشعياء ١١ :٦

[٣] سورة الكهف :٩٣ وسورة الانبياء :٩٦

من قسيهم ونشابهم وجعابهم سبع سنين[١] ثم يرسل الله مطراً فيطهر الارض ويرد اليها الخصب

ثامناً — دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب[٢]

تاسعاً — خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب[٣]

عاشراً — رجوع العرب الى الشرك وعبادة اللات والعزى وسائر اصنامهم القديمة وذلك بعد ان يكون قد مات منهم كل من في قلبه مثقال ذرة او خردلة من الايمان ولا يبقى الا شرار الناس لان الله يبعث ريحاً طيبة باردة من قبل الشام فتتوفى الاخيار وتحمل القرآن ويبقى الناس بعدها مائة سنة وهم في خفة الطير واحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً

حادي عشر — انحسار الفرات عن جبل من ذهب وفضة يقتتل الناس عليه ويهلك كثيرون منهم

---

[١] انظر ما قيل في هذا المعنى في نبوة حزقيال ٣٩: ٩ وفي رؤيا يوحنا ٢٠: ٨ [٢] سورة الدخان : ٩ قابل هذا بما جاء في نبوة يوئيل ٢: ٣٠ والرؤيا ٩: ٢ [٣] قال المعرب الذي في الاصل خسوف القمر وذلك أن المصنف اشتبه عليه لفظ الخسف بلفظ الخسوف

ثاني عشر — خراب الكعبة يخربها ذو السويقتين من الحبشة

ثالث عشر — تكلم العجماوات والجمادات

رابع عشر — نار تخرج من ارض الحجاز او اليمن (وتضيء اعناق الابل ببصرى)

خامس عشر — خروج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه

سادس عشر — خروج المهدي وقد انبأ به محمد فقال لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من اهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم ابيه اسم ابي يملأ الارض قسطاً وعدلاً وهذا الرجل يعتقد اهل الشيعة انه حي يرزق لكنه متوار عن الناس حتى يظل زمان خروجه وذلك انهم يزعمون انه آخر الائمة الاثني عشر وانه يدعى بمحمد ويكنى بابي القاسم كما كان نبيهم يدعى ويكنى وانه ابن الحسن العسكري الحادي عشر من الائمة اهل البيت . ولد بسر من رأى ويقال سامرى وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة ولعل الحديث المتقدم هو منشأ ما يقوله بعض النصارى من ان المسلمين ينتظرون مجيء نبيهم مرة اخرى

سابع عشر — ريح يبعثها الله كما تقدم في الآية العاشرة فلا يبقى على وجه الارض احد في قلبه مثقال ذرة او خردلة من ايمان الا قبضته

فهذه هي الآيات الكبيرة او الاشراط التي يعتقد المسلمون انها تتقدم قيام الساعة لكنها لا تدل على حلولها وانما علامة ذلك وآيته النفخة الاولى من نفخات الصور الثلاث فاولاهن يقال لها نفخة الفزع يفزع منها من في السماوات والارض الا من شاء الله وينسبون اليها مفاعيل عجيبة فمن ذلك ان الارض تجف وجيفاً وتندك الجبال فضلاً عن الابنية وتذوب السماوات وتظلم الشمس وتتناثر النجوم وتتساقط وذلك لموت الملائكة الذين كانوا يمسكونها بين السماء والارض في زعم بعضهم ويضطرب البحر وينضب ماؤه وقال بعضهم بل يسجر اي يملأ ناراً تضطرم [١] وتقذف فيه الشمس والقمر والنجوم [٢] وقد وصف القرآن شدة هول ذلك اليوم بقوله يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت [٣] وقوله واذا العشار

---

(١) الزمخشري في تفسير سورة التكوير : ٦ (٢) الزمخشري في تفسير سورة القيامة : ٩ (٣) سورة الحج : ٢

عطلت [١] اي ان النوق العشار وهي معظم ثروة العرب واكرم ما يكون عندها تهمل فلا يسأل عنها . ويعقب تلك النفخة ايضاً حشر الوحوش على ما ورد في القرآن [٢] وان كان بعضهم لا يدري أيتقدم ذلك على قيام الساعة ام يتأخر والذين يقولون انه يتقدم عليها يزعمون ان كل انواع الحيوان يتناسى الشرس منها شراسته الطبيعية والهيوب نفاره وتتقاطر معاً الى موضع واحد هلعة مذعورة من صوت الصور واضطراب الكون فجأة

ثم ان نفخة الفزع هذه تعقبها النفخة الثانية ويقال لها نفخة الصعق [٣] يصعق منها كل من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله [٤] قال ويكون ذلك بطرفة عين اي كلمح البصر او هو اقرب ولا يبقى بعدها غير الله والجنة والنار ومن فيهما والعرش [٥] وآخر الخلق موتاً عزرائيل ملك الموت

---

(١) التكوير : ٤ (٢) التكوير : ٥ (٣) ولا فرق بين نفخة الفزع ونفخة الصعق عند بعضهم وهم الذين يقولون انه ليس ثم سوى نفختين انظر تفسير البيضاوي على سورة الزمر : ٦٨ (٤) سورة الزمر : ٦٨

(٥) وزعم بعضهم انه يبقى ايضاً الروح الحامل المياه القائم عليها العرش وكذلك اللوح المحفوظ الذي كتب فيه قضاء الله وقدره والقلم الذي كتبه وزعموا ان هذه الثلثة قد خلقت قبل ان يخلق العالم وما فيه

ويعد نفخة الصعق باربعين سنة ينفخ اسرافيل في صورده نفخة البعث والنشور وهي ثالثة النفخات[١] وذلك ان الله يكون قد احياه قبلها واحيا معه جبريل وميكائيل فيقف على صخرة المسجد الاقصى ببيت المقدس ويدعو عن امر الله كل العظام النخرة[٢] وكل ما تناثر او تفرق من اعضاء البدن حتى الشعر نفسه الى فصل القضاء ثم يأمره الله فيلتقم القرن اي الصور ويدعو الارواح من كل فج وناحية فيجعلها فيه ثم ينفخ نفخة فتخرج منه كانها النحل قد ملأت ما بين السماء والارض وترجع كل واحدة منها الى جسدها الخاص بها وقد انشقت عنه الارض ونشر وجاء في الحديث ان محمداً هو اول من ينشق عنه القبر قالوا ان الارض تمخض وتلد هذه الاجساد وذلك بالقاح المطر المتقدم ذكره عند ما ذكرنا تجدد خلق الجسد من عجب الذنب فذكرنا ثم انه يدوم هاطلاً مدة اربعين يوماً ولعل الصواب اربعين عاماً وهي الفترة التي بين نفخة الصعق ونفخة البعث كما تقدم قالوا وهو مطر كمني الرجال يأتي من ماء تحت العرش.

---

(١) وكذلك اليهود يقولون انه سينفخ في البوق غير مرة

(٢) سورة النازعات : ١١

يدعى الحيوان (١) تخلق منه الاجساد في القبور كما خلقت اولاً في الارحام او كما ينبت النبات بالمطر (٢) فاذا تكامل خلقها نفخت فيها نسمة الحياة ولبثت راقدة في قبورها حتى تنشرها النفخة الاخيرة

اما طول يوم الدين فقد ورد في موضع من القرآن ان مقداره الف سنة (٣) وجاء في موضع آخر منه ان مقداره خمسين الف سنة (٤) وقد تهافت المفسرون على وجوه كثيرة من التأول ليلائموا بين هذين القولين المتعارضين فنهم من زعم انه لا يصلح مقدار الزمان الذي عناه الله بذلك ومنهم من زعم ان المراد به التخييل والتمثيل لا الظاهر وان القصد به التعبير عن هول ذلك اليوم بما جرت عليه عادة العرب من وصف ما يكرهونه بطول الامد وما يحبونه بالقصر ومنهم من قال ما معناه ان هذا التعبير لا يراد به سوى التلميح والاشارة الى صعوبة الامر ذلك اليوم بحيث لو استناب الله عليه احداً من

(١) «الحيوان اسم عين في الجنة كما جاء في تاج العروس»

(٢) انظر ما جاء في سورة الملائكة : ١٠ وتفسيرها

(٣) سورة السجدة : ٤

(٤) سورة المعارج : ٤

خلقه لم يقدر عليه في مدة خمسين الف سنة الى غير ذلك من ضروب التأول التي ليس هذا موضع استيفائها

واذ قد فرغنا من الكلام فيما يتعلق بوقت القيامة والحشر فلننظر الآن فيما يقال عن الذين ستقوم قيامتهم ويحشرون وفيما يقال عن كيفية حشرهم ونشورهم واين يحشرون ولم يحشرون وكل ذلك بحسب ما قرره الاسلام . فاعلم ان المذهب المقبول عند المسلمين هو ان القيامة ستكون عامة وستقوم الساعة على الخلائق كافة فيحشر الانس والجن والملائكة والحيوان وحجتهم في ذلك القرآن الا ان الآية التي يوردونها لاثبات حشر الوحوش [١] يفسرها بعضهم بما لا يفيد هذا المعنى

ثم ان لكل صنف منهم حشراً يختلف في الكيفية عن حشر الاصناف الاخرى فالمعدون للسعادة السرمدية يحشرون مكرمين آمنين اما المعدون للشقاوة فيحشرون بالخزي والوجل والانس منهم ينشرون تامي الخلقة وكما خرجوا من الارحام وذلك لما كان محمد يحدث زوجه عائشة بهذا الحديث اشفقت من

---

[١] سورة التكوير : ٥ «وعن ابن عباس يراد بحشر الوحوش موتها لكن الذي عليه الجمهور ما قاله قتادة يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص»

هتك ستر الاحتشام فقالت واسترتاه ينظر بعضهم بعضاً فضرب على منكبها وقال لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه والامر اشد من ذلك اي من ان ينظر بعضهم بعضاً على ان منهم من ذهب في امر العرى مذهباً يخالف هذا واحتج له بحديث نبوي مفاده ان الناس سينشرون بما كان عليهم من الكسوة يوم ماتوا[١]. اللهم الا ان تتأول هذا الحديث كما تأوله بعضهم بانه لا يراد به كسوة البدن بل كسوة الضمير فيكون معناه ان الانسان ينشر وهو على ما كان عليه يوم موته من الايمان او الكفر والعلم او الجهل والطاعة او العصيان . ويروى عن محمد ايضاً انه قال يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة اصناف مشاة وركباناً وعلى وجوههم. فالصنف الاول هم المؤمنون الذين قلت حسناتهم والصنف الثاني هم المؤمنون الذين لهم عند الله كرامة اعظم ودرجة ارفع فيحشرون ركباناً على النجائب كما قال علي وفي هذا نرى اثراً لما كانت تعتقده عرب الجاهلية[٢] والصنف الثالث هم الكفار فيسحبون على

---

[١] وهو في هذا ايضاً مقتد بمرشديه القدماء اعني اليهود فانهم يقولون ان كانت حبة القمح تزرع عارية فتنبت كاسية فلا عجب وقد دفن الصالحون بكسوتهم ان ينشروا بها [٢] انظر ما جاء في الفصل الاول.

وجوههم الى المحشر وهم صم بكم عمي . وليس هذا فقط ما يميز الفجار عمن سواهم بل يعرفون ايضاً بعلامات اخرى فارقة يسمهم بها الله ذلك اليوم كما جاء في الحديث [١] وذلك قوله تحشر عشرة اصناف من امتي بعضهم على صورة القردة وهم القتات [٢] وبعضهم على صورة الخنازير وهم اهل السحت وبعضهم منكسون يسحبون على وجوههم وهم اكلة الربا وبعضهم عمي وهم الجائرون في الحكم وبعضهم صم بكم وهم المعجبون باعمالهم وبعضهم يمضغون السنتهم فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من افواههم يتقذرهم اهل الجمع وهم القصاص والعلماء الذين خالف اعمالهم قولهم وبعضهم مقطعة ايديهم وارجلهم وهم الذين يؤذون الجيران بعضهم مصلوبون على جذع من نار وهم السعاة بالناس الى السلطان وبعضهم اشد نتناً من الجيف وهم الذين اتبعوا الشهوات واللذات ومنعوا حق الله في اموالهم وبعضهم ملبسون جباباً

عما كان للعرب من العادة في ربط رواحلهم عند قبورهم حتى يحشروا ركباناً وانظر ايضاً كلام الجوهري في لفظ البلية

[١] رواه الزمخشري والبيضاوي في سورة النبأ :١٨ [٢] «اي النمامون او المتسمعون احاديث الناس من حيث لا يعلمون»

سابغة من قطران لازقة بجلودهم وهم اهل الكبر والفخر والخيلاء

اما الموضع الذي سيحشرون فيه لفصل القضاء فقد اتفق القرآن والحديث على انه سيكون في الارض واما في اي بقعة منها سيكون فذلك غير متفق عليه فقالت طائفة انه سيكون بالشام لحديث رووه عن نبيهم وقال غيرهم بل بارض بيضاء يعنون قاعاً صفصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا امتاً وقال الغزالي بارض بيضاء مثل الفضة وهي غير ارضنا وقال قوم انها ليست كارضنا ولا تساويها الا في الاسم ويشبه ان يكون الذي حداهم الى هذا ما جاء في سفر الرؤيا عن السماء الجديدة والارض الجديدة [١] ومن هنا اخذ القرآن معنى قوله يوم تبدل الارض غير الارض [٢] اما غاية الحشر عندهم فهي ان يؤدي كل واحد حساباً عن اعماله وينال الجزاء وسواء في ذلك الانس والجان بل ان الوحوش نفسها [٣] ستدان في ذلك اليوم ويقاد للجماء من القرناء حتى ينتصف للمظلوم ممن ظلمه [٤] اما الناس فاذا

---

[١] سفر الرؤيا ص ٢١ [٢] سورة ابرهيم :٤٩

[٣] سورة الانعام :٣٨ [٤] قال احد العلماء اصل هذا الاعتقاد عند المسلمين هو ما جاء في نبوة حزقيال (ص ٣٤) من كلام لم يفهموا

حشروا لم يقض عليهم من ساعتهم بل تتركهم الملائكة اربعين سنة ينتظرون القضاء وقال قوم سبعين سـنة وقال غيرهم ثلثمائة سنة وقال آخرون بل خمسين الف سنة وكل يحتج لقوله بحديث نبوي . قالوا ويلبث الناس كل هذه المدة قياماً شاخصة ابصارهم الى السماء يستخبرون اهلها أفيكم ربنا فلا يأتيهم علم ولا امر بشيء وينوب اخيارهم واشرارهم عذاب اليم شديد الا انه على الاشرار اشـد وعلى الاخيار اخف فتلألأ اعضاء الاخيار بهاء لا سيما الاعضاء التي كانوا يغسلونها اذا توضأوا استعداداً للصلاة ويخفف عليهم العذاب حتى ليكون اهون على احدهم من الصلاة المكتوبة (١) اما الاشرار فتسود وجوههم وتشوه حزناً وكآبة ويعرقون عرقاً غزيراً لعله لا يكون اقل انواع العذاب ايذاء لهم. فيكونون فيه على درجات متفاوتة بحسب ما تستوجبه سيئاتهم

معناه كما ينبغي وتلخيصه هاءنذا احكم بين الشاة السمينة والشاة المهزولة لانكم بهزتم بالجنب والكتف وتطحتم المريضة فاخلص غنمي واحكم بين شاة وشاة . قال المعرب فاخذ محمد هذا المعنى وقال لتؤدن الحقوق الى اهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء فجعل حقيقة ما جاء في نبوة حزقيال مجازاً (١) «وفي الاصل يخفف عليهم العذاب ولا يطول زيادة عن الوقت الذي يحتاج اليه لاقامة الصلاة المكتوبة»

فبعضهم الى الكعبين و بعضهم الى الركبتين وبعضهم الى الحقوين وبعضهم يلجمهم العرق الجاماً وبعضهم يبلغ العرق شحمة اذنيه قالوا ويتسبب هذا العرق من ازدحام الخلائق كافة على اختلاف انواعهم في المحشر يتدافعون ويطأ بعضهم اقدام بعض وكذلك من افراط دنو الشمس حتى تكون منهم كمقدار ميل كما جاء في الحديث [١] فتغلي منها جماجمهم كما تغلي القدور على الاثافي ويقوم احدهم في رشحه الى انصاف اذنيه ولا ظل يومئذ الا ظل العرش يستظل به المقربون فقط ويزاد الاشرار على هذا كله عذاب الجوع والعطش وتخنقهم السموم حتى انهم ليصرخوا ربنا ارحمنا من هذا الكرب والانتظار ولو الى النار . واعلم ان هذه الخرافة اي افراط حر الشمس يومئذ مأخوذ بلا شك عن اليهود فانهم يقولون ان الشمس المغمدة اليوم كي لا تتلف الموجودات بفرط حرارتها ستجرد في اليوم الآخر من غمدها عقاباً للاشرار

---

[١] الميل بالعربية لفظ ذو معنيين احدهما ما تكحل به العين وهو الملمول والآخر مسافة من الارض تقدر بالف باع ولذا اختلفوا في تفسير الحديث الوارد فيه هذا اللفظ بين مفسر له بالملمول ومفسر له بمسافة من الارض

فاذا انقضت مدة الانتظار نزل الله في ظلل من الغمام تحف به الملائكة للقضاء ويكون محمد يومئذ صاحب الشفاعة بعد ان يردها آدم ونوح وابراهيم وعيسى قائلاً كل واحد منهم دعوني نفسي نفسي شغلني امري عن امر غيري فتنشر الصحف التي كتبت فيها الملائكة اعمال كل واحد ويأمر الله كلاً من الانبياء ان يشهد على الامة التي بعث اليها فيحاسب كل واحد على ما كان منه قولاً او فعلاً مدة حياته وذلك لان الله لا تخفى عليه خافية بل ليقر المحاسب بعدل الله علانية ويعترف به . اما الاشياء التي يسأل المحاسب عنها فقد عددها محمد فقال لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن اربع عن عمره فيمَ افناه وعن علمه ما عمل به وعن ماله من اين اكتسبه وفيم انفقه وعن جسده فيمَ ابلاه — وهذا يناقض حديثاً آخر يروى عنه معناه ان سبعين الفاً من امته يدخلون الجنة بغير حساب — فاذا عرضت عليهم هذه المسائل جعل كل واحد يحتج عن نفسه بما يمكنه من الحجج ويحاول ان يتنصل من معصيته بان يلقي جرمه على غيره فينشأ عن ذلك خصام حتى بين النفس والجسد في ايهما المذنب فتقول النفس ما معناه رب منك اخذت جسدي هذا

اذ كنت قد خلقتني بلا يدين للتناول ولا رجلين للمشي ولا عينين للنظر ولا فهم للادراك حتى حللت في هذا الجسد فعاقبه عقاباً سرمدياً ونجني فيتنصل الجسد ويقول رب لقد خلقتني كخشبة لا استطيع تناول شيء ولا السعي الى شيء حتى نفذت في هذه النفس نفوذ الشعاع فنطق لساني ونظرت عيناي وسعت قدماي فعاقبها عقاباً سرمدياً ونجني . فيضرب الله لهما مثل الضرير والمقعد البصير وقد اخذه المسلمون عن اليهود كما اخذوا عنهم ما تقدم من خصام النفس والجسد وهاك المثل .

كان لاحد الملوك جنة نضرة الاشجار يانعة الاثمار فجعل عليها قيمين احدهما ضرير والآخر مقعد فكان الضرير لا يبصر الاثمار والمقعد لا يستطيع الوصول اليها فتواطآ على ان الضرير يحمل المقعد ويطوف به عليها فتأتي لهما بذلك ان يجنياها ويقتسماها وجاء بعد ذلك رب الجنة فطالبهما باثمارها فاخذ كل منهما يتنصل ويتبرأ فقال الضرير ليس لي عينان لرؤية الاثمار وقال المقعد ليس لي رجلان تحملاني الى الاشجار فامر الملك فحمل المقعد على ظهر الضرير وحكم على كليهما معاً واقتص منهما جميعاً هذا نوع محاكمة الله للنفس والجسد وكل حجة يحتجها المرء يومئذ

لا تجدي نفعاً لان الملائكة والناس وجوارحه نفسها بل الارض ستشهد بها عليه

ومع ان المسلمين قد اطالوا المدة التي ينتظر المنشورون فيها حسابهم فقد قصروا مدة الحساب نفسه فقالوا انه ينقضي في قدر حلب شاة او فواق ناقة كما قال محمد وهذه طريقة من التعبير مألوفة عند العرب يعبرون بها عن قصر المدة . وقد فسر بعض العلماء ما ورد مراراً كثيرة في القرآن من قوله ان الله سريع الحساب بانه يحاسب الخلائق في نصف يوم وفسره غيرهم بان الحساب ينقضي في اقل من طرفة عين

ويعتقد المسلمون ايضاً ان كل واحد سيأخذ في هذا الحساب كتابه الذي كتبت فيه اعماله فالصالح يؤتى كتابه بيمينه ويحاسب حساباً يسيراً وينقلب الى اهله مسروراً والفاجر يؤتى كتابه بشماله كارهاً وتجعل يسراه وراء ظهره وتغل يمناه الى عنقه

ثم انهم تبياناً لما سيكون في ذلك اليوم العظيم يوم الحساب من القسط والقضاء السوي يصفون ميزاناً توزن به الاعمال والاقوال والاشياء كافة ويقولون انه سيكون بيد جبريل وانه من عظم الحجم بحيث ان كفتيه اللتين احداهما فوق متن الجنة

والاخرى فوق متن النار لتسمان السماء والارض على ان فيهم من يحمل ما جاء في القرآن عن هـذا الميزان على المجاز ويقول انه رمز عن عدل الله على طريقة التمثيل والتخيل الا ان مذهب السلف من اهل السنة والجماعة هو حمل ذلك على ظاهر الكلام غير انه لما كانت الاقوال والافعال محض اعراض ولا يمكن وزنها قالوا ان الصحف التي كتبت فيها هي التي توزن ويبرز الحكم بحسب رجحان صحف الحسنات او صحف السيئات فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون الفائزون بالنجاة ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم في جهنم خالدون [١] وليس لاحد ان يتظلم من ان الله لم يثبه على حسناته لان الاشرار يثابون على حسناتهم في الدنيا فليس لهم ان يرجوا ثواباً ولا نعمة في الآخرة

وقد ذكر قدماء المصنفين من اليهود صحائف تنشر يوم الدين قد كتبت فيها اعمال الناس وميزاناً توزن به ويشبه ان تكون التوراة نفسها هي التي جاءت بهذا المعنى اولاً [٢] لكن

---

[١] سورة الاعراف :٧و٨ وسورة المؤمنين :١٠٤ وغير ذلك

[٢] سفر الخروج ٣٢:٣٢ و٣٣ ونبوة دنيال ٧: ١٠ و٥: ٢٧ وسفر الرؤيا ٢٠: ١٢ وما بعده

مذهب المسلمين في امر الميزان هو الى ما يعتقده المجوس اقرب فالمجوس يقولون ان ملكين يقال لاحدهما مهر وللاخر سروش سيقومان يوم الدين على الصراط الذي سنصفه بعيد هذا ويستنطقان كل انسان وهو مار عليه ويكون بيد الاول وهو المرموز به عن الرحمة الالهية ميزان يزن به اعمالهم ويرفع بها خبراً الى الله تعالى فيقضي الله عليهم بحسب ذلك فمن رجحت حسناته على سيئاته ولو بمثقال شعرة اذن له ان يعبر الصراط ويدخل الجنة ومن خفت موازين حسناته قذفه الملاك الثاني وهو الذي يمثل عدل الله في الهاوية الجهنمية

فاذا انقضى الحساب المتقدم ذكره ووزنت اعمال كل احد بميزان عدل شرعت الخلائق في ما ندعوه بالمقاصة اي المقابلة بالمثل فيستوفي كل واحد حقه من غريمه وينتصف كل مظلوم من ظالمه هذا ما يعبر عنه في كتب المسلمين بالخصومة ورد المظالم ولا سبيل الى ذلك يومئذ الا بان تأخذ الملائكة من حسنات الظالم ما يساوي ظلمه ويضيفوه الى حسنات المظلوم فان قالوا بعد ذلك ربنا لقد اعطينا لكل ذي حق حقه وبقي من حسنات عبدك هذا ما يعادل مثقال ذرة يضاعفها له الله بفضله

ورحمته ليدخل الجنة وان فنيت حسناته ولم يبق غير السيئات وكان في الناس مع ذلك من لهم عنده مظالم لم ترد امر الله فطرح عليه ما يساويها من اوزارهم ليعاقب عليها عنهم وقذف في جهنم محتقباً اثمه واثمهم. وهذا انما هو قضاء الله في البشر واما الوحوش فاذا اقتص لاحدها من الاخر وقيد للجماء من القرناء كما اسلفنا قال لها الله كوني تراباً فتكون[1] وما اشرار البشر فيبقون مدخرين لعقاب اشد فلذا يقول كل واحد منهم اذا سمع هذا الحكم على الوحوش يا ليتني كنت تراباً

اما الجن فيعتقد اكثر المسلمين ان مؤمنيهم سيقضى عليهم كما يقضى على الوحوش والعجماوات وكل حيوان غير ناطق وانه لا ثواب لهم سوى منة انقلابهم تراباً وحجتهم في ذلك حديث يروونه عن نبيهم. على ان فيهم من لا يرى هذا من تمام

---

[1] الا كلب اهل الكهف وحمار عزير فان المسلمين يقولون انهما اذا عادت اليهما الروح كما تعود الى سائر انواع الوحوش يستثنيان من حكم الوحوش ويدخلان الجنة دونها منة خاصة بهما «وجاء في كتاب الاشباه والنظائر عن المستطرف لا يدخل الجنة من الحيوان الا خمسة كلب اصحاب الكهف وكبش اسمعيل وناقة صالح وحمار عزير وبراق النبي»

العدل لانه لما كان في وسع الجن كما كان في وسع الناس ان يكونوا مؤمنين او كافرين لزم بالتالي ان يثابوا على ايمانهم او يعاقبوا على كفرهم باسوة الناس كما هو بين ولذا قال بعض العلماء انه سيكون لمؤمنيهم موضع بالقرب من اطراف الجنة يتمتعون فيه بسعادة صالحة لكن لا يتاح لهم دخول ذلك المقام الأنيق اي الجنة نفسها. اما كفارهم فالمتفق عليه هو انهم سيعاقبون عقاباً سرمدياً ويطرحون في جهنم مع كفار الانس. ولعله لا يخرج بنا عما نحن فيه ان نشير هنا الى ان المسلمين يدخلون ابليس وذريته اي اتباعه في جملة كفار الجن [1]

فاذا فرغ من القضاء وانقض الجمع اخذ اهل الجنة ذات اليمين واهل النار ذات الشمال ولكن لا بد لكلا الفريقين ان يعبر الصراط اولاً وهو جسر مضروب بين ظهراني جهنم ادق من الشعرة واحدّ من غرار السيف ولذا يعسر علينا ان ندرك كيف يستطاع الوقوف عليه فضلاً عن عبوره ولهذه العلة عدته اكثر فرق المعتزلة خرافة ونبذوه لكن اهل السنة والجماعة يرون في جزم محمد به حجة قاطعة بصحته كيف لا وهو

[1] سورة الكهف :٤٨

الذي لم يفه بالكذب قط وقد صرح ايضاً ليزيد عبوره صعوبة بان في حافتيه كلاليب وشوكاً يدعى السعدان تخطف الاشرار لكنها لا تمنع الصالحين من ان يمروا عليه كمر البرق سرعة وكمر الريح سهولة ويكون محمد نفسه اول من يجيز بامته اما الاشرار فتزل عنه اقدامهم لزلقه وحرجه وكلاليبه وشوكه وانطفاء الانوار التي كانت تسعى بين ايدي المؤمنين والمؤمنات هداية لهم الى الجنة[1] فيهوون على ام رأسهم الى جهنم الفاغرة فاها لابتلاعهم وهي تزفر وتشهق

ويشبه ان يكون هذا قد اخذه محمد عن المجوس ايضاً فانهم يقولون انه لا بد للناس في اليوم الآخر من عبور قنطرة تدعى بلغتهم بول شيناواد اي القنطرة الحرجة تفضي تواً الى الآخرة ويكون على متنها او في وسطها الملكان اللذان وكلهما الله بمحاسبة كل احد عن اعماله ووزنها على ما مر آنفاً . على ان اليهود ايضاً يقولون ان لجهنم قنطرة هي في دقة الخيط الا انهم لا يقولون انه سيجبر احد على عبورها غير عبدة الاوثان فيسقطون عنها الى الجحيم

(١) سورة الحديد : ١٢

اما ما يعتقده المسلمون في عقاب الاشرار فهو انهم سبع مراتب او فرق وان لجهنم التي هي موعدهم سبع طبقات احداها تحت الاخرى لكل فرقة منهم طبقة قد أفردت لهم ينزلونها بحسب مراتبهم [١] فاعلى الطبقات هي جهنم ينزلها العصاة من الموحدين ويعذبون فيها بمقدار معصيتهم ثم يخرجون منها. والثانية لظى وهي لليهود. والثالثة الحطمة وهي للنصارى. والرابعة السعير وهي للصابئين. والخامسة سقر وهي للمجوس. والسادسة الجحيم وهي للمشركين. والسابعة الهاوية وهي الدرك الاسفل من النار وشر الطبقات ينزلها المنافقون [٢] وهم الذين يزعمون في الظاهر انهم على دين ما وليسوا في الباطن على شيء. وكل واحدة من هذه الطبقات عليها خزنة من الملائكة يلون امرها عدتهم تسعة عشر [٣] يعترف لهم المالكون الذين فيها بعدل قضاء الله عليهم ويقولون لهم ادعوا ربكم يخفف عنا

[١] سورة الحجر: ٤٤ [٢] سورة النساء: ١٤٤ وهذا نسق البيضاوي في تفسيره سورة الحجر: ٤٤ وخالفه الزمخشري وغيره في نسق الطبقات ومراتب اهلها بعض المخالفة لكن المفسرين كلهم على اختلافهم في اهل الدركات الست قد اتفقوا على ان المنافقين في الدرك الاسفل كما نص عليه القرآن [٣] سورة المدثر: ٣٠

يوماً من العذاب اي شيئاً منه او ليقض علينا اي ليمتنا ففي الموت خلاص من العذاب[1]

وقد وصف محمد في قرآنه وحديثه عذاب جهنم وصفاً مدققاً وعدد انواعه المختلفة وقال ان الاشرار سيعذبون فيها بشدة الحر وفرط القر على انه ليس من قصدنا ان نتكلم في ذلك بالتفصيل بل نقول اجمالاً ان درجات العذاب تختلف باختلاف ذنب المعذب وبحسب الطبقة التي قضي عليه ان يكون فيها من جهنم وان اهون الناس عذاباً من ينتعل بنعلين من النار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل وان هؤلاء الاشقياء يكونون في حالة لا يموتون فيها ولا يحيون كما جاء في الحديث ومما يزيدهم شقوة على شقوتهم يأسهم من الخروج من النار لانهم فيها خالدون كما جاء في غير ما موضع من القرآن. الا انه ينبغي لك ان تعلم ان المقضي عليهم بالتخليد في النار هم الكفار وحدهم واما المؤمنون الذين دخلوها لمعاصيهم وكبائرهم فيخرجون منها وقد ذاقوا من عذابها ما يكفرون به عن ذنوبهم ومن يعتقد الخلاف في هاتين القضيتين فهو مبتدع مخالف لما اجمع عليه اهل السنة

[1] سورة المؤمن : ٥٢ وسورة الزخرف : ٧٧

والجماعة من انه لا ينجو من النار مشرك ولا كافر ولا يخلد فيها موحد . اما كيفية خروج الموحدين الذين دخلوها لرجحان سيئاتهم على حسناتهم ووقت خروجهم منها فقد جاء في ذلك حديث عن محمد يقول فيه ليصيبن اقواماً سفع من النار بذنوب اصابوها ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته فيدعوهم اهلها جهنميين احتقاراً لهم فيدعون الله تعالى فيذهب ذلك الاسم عنهم . وقال في حديث آخر ان الله يميتهم في النار وروي ينيمهم من النوم ليكون شعورهم بالعذاب اقل ثم يخرجون منها فيرش عليهم من ماء الحيوان فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ويدخلون الجنة. وزعم قوم انهم قبل خروجهم من النار بقليل تعود اليهم ارواحهم حتى لا يخرجوا منها الا وقد ذاقوا شيئاً من عذابها . وجاء في مدة لبثهم فيها حديث معناه انها لا تنقص عن تسعمائة سنة ولا تزيد على سبعة آلاف ثم يخرجهم الله منها برحمته وبشفاعة محمد ودعاء المنعم عليهم وسائر الصالحين فيعرفون في النار بما في جباههم من اثر السجود الذي لا تأكله النار اذ حرم الله عليها ذلك فيخرجون منها وقد امتحشوا فيرش عليهم من ماء الحيوان كما مر فتعود اجسادهم في بياض اللؤلؤ

وانما اخذ محمد جلّ ما وصف به جهنم وحالة اهلها عن اليهود وباقيه عن المجوس فان هذين الفريقين كليهما وان اختلفا في اشياء من امر جهنم فقد اتفقا على ان لها سبع دركات على كل دركة منها في زعم اليهود ملاك يلي امرها ويشفع فيمن يعترف من اهلها الاشقياء التعساء بعدل قضاء الله عليه وتقول اليهود ايضاً ان الاشرار يعذبون فيها بصنوف من العذاب كالزمهرير الذي لا يطاق والحر الشديد وان وجوههم تسود ويعتقدون ايضاً ان بني دينهم يعاقبون فيها على معصيتهم كغيرهم اذ ليس عندهم احد هو من البر بحيث لا يستوجب عقاباً البتة لكن اباهم ابرهيم او غيره من الانبياء سيشفع فيهم وينقذهم منها بعد ان يكون قد نالهم فيها من العقاب ما يكفي للتكفير عن آثامهم وتطهيرهم من دنس الخطية

اما المجوس فليس عندهم سوى ملاك واحد على دركات جهنم السبع واسمه بلغتهم واناديزاد فهو يلي امر الدركات ويقدر لكل من اهلها مقداراً من العذاب على نسبة ذنوبه ويكبح ابليس عن التمادي في قسوته وفظاظته اذ لو ترك وشأنه لجار في تعذيب الهالكين الى ما فوق استحقاقهم. وكذلك يصف

المجوس الواناً وانواعاً من العذاب يقاسيها الاشرار في الآخرة ويعدون في جملتها الزمهرير الا انهم لا يذكرون فيها النار ويشبه ان يكون ذلك توقيراً لعنصر النار اذ هي عندهم مثال للطبيعة الالهية فيلجأون الى وصف انواع اخرى من العذاب كنتن لا يطاق ونهش من الافاعي ولسع من العقارب وعض من السباع وكتمزيق الشياطين للجثمان وشدة العطش وفرط الجوع وما اشبه ذلك حتى لا يذكروا عذاب النار

ولا بد قبل الشروع في وصف الجنة المحمدية من ان نذكر السور المضروب في زعم المسلمين بينها وبين جهنم وهذا السور[١] لا يبعد ان يكونوا قد اخذوه عن الهوة العظيمة التي جاء ذكرها في الانجيل[٢] وهم يدعونه عرفاً واكثر ما يذكرونه بصيغة الجمع فيقولون الاعراف واشتقاق هذا اللفظ من عرف اي ميز وفرق الا ان احد المفسرين يقول انه سمي بالاعراف لان الذين عليه وسيأتي ذكرهم يعرفون اهل الجنة واهل النار بسيماهم[٣] وقال غيره العرف ما ارتفع من الشيء فتكون اعراف

---

[١] سورة الحديد : ١٣ [٢] انجيل لوقا ١٦ : ٢٦ [٣] تفسير الجلالين في سورة الاعراف : ٤٤

هذا السور اعاليه[١] اما الذين سيكونون عليه فقد اختلف العلماء فيهم اختلافاً كثيراً فقالت طائفة يكون عليه قوم قد علت درجاتهم كالانبياء والشهداء او خيار المؤمنين وعلمائهم او ملائكة يكونون في سورة الرجال . وقالت طائفة بل يكون عليه رجال من الموحدين قصروا في العمل فيحبسون بين الجنة والنار حتى يقضي الله فيهم ما يشاء . وقال غيرهم هو مقر للذين ساوت حسناتهم سيئاتهم فلا يستحقون ثواباً ولا عقاباً فاذا كان يوم الحساب عبدوا وتشهدوا فكتب لهم ذلك حسنة ورجحت موازينهم فيدخلون الجنة . وقال آخرون يكون عليه الذين جاهدوا في سبيل الله على غير رضى والديهم واستشهدوا فهم لا يدخلون الجنة لعقوقهم ولا النار لانهم شهداء . اما عرض هـذا السور او الحاجز فلا يمكن ان يكون كثيراً لان الذين عليه سيخاطبون اهل الجنة والنار وهـذا فضلاً عن ان اهل الجنة واهل النار انفسهم سيخاطب بعضهم بعضاً[٢] وهو بينهم

فان لم يكن محمد قد اخذ ما قاله في امر هـذا السور عن الهوة التي ذكرها الانجيل كما تقدم فلا يبعد ان يكون قد اخذه

---

[١] البيضاوي في تفسير الآية المتقدمة [٢] الاعراف : ٤٤ الى ٤٦

عن اليهود فانهم يقولون ان بين الجنة وجهنم جداراً رقيقاً يفصل بينهما

ويعتقد المسلمون انه اذا تخلص الابرار من العراقيل المتقدم ذكرها وجازوا الصراط فقبل دخولهم الجنة يردون حوض نبيهم ويبردون اكبادهم بشربة منه وقد وصف محمد هذا الحوض فقال انه مسيرة شهر وزواياه سواء اي مربع الشكل يشخب فيه ميزاباں من الجنة اي تمده قناتان من الكوثر وهو احد انهارها بماء اشد بياضاً من اللبن او الورق يعني الفضة واطيب ريحاً من المسك وآنيته وكيزانه كعدد نجوم السماء قد صفت حوله ومن شرب منه لا يظمأ ابداً[١] وهذا اول ما يذوقه المنعم عليهم من طعم السعادة المعدة لهم وقد ازلفت لهم الآن

اما الجنة فاعلم انه وان كان القرآن قد كرر ذكرها في مواضع كثيرة الا ان المسلمين مختلفون فيها هل خلقت من قبل ام ستخلق فيما بعد فقالت المعتزلة وبعض الفرق الاخرى ان لا جنة اليوم في العالم وان الجنة التي سيقيم بها الصالحون في الاخرة هي غير الجنة التي اخرج منها آدم الا ان اهل السنة

(١) « وقد سبقه الانجيل الى هذا المعنى »

والجماعة خالفوهم في ذلك وقالوا انها خلقت من قبل ان تخلق الدنيا وقالوا في صفتها نقلاً عن احاديث نبيهم انها في السماء السابعة تحت العرش وان ملاطها مسك اذفر وترابها درمكة بيضاء او زعفران على اختلاف في الرواية وان حصباءها من اللؤلؤ والمرجان وبناءها لبنة من ذهب ولبنة من فضة وسوق اشجارها من الذهب الابريز واشهر هذه الاشجار شجرة يقال لها طوبى وقد جاء في خرافاتهم عنها ان اصلها في دار نبيهم لكن ما في الجنة اهل بيت الا وغصن منها متدل عليهم[1] وانها تحمل الرمان والعنب والرطب واثماراً غيرها كبيرة الحجم كانها قلال هجر لم يذق الناس مثل طعمها فمن اشتهى نوعاً من الفاكهة أتي به لساعته فيأكل منه ما شاء ومن اشتهى اللحم جاءته طيور مثل البخت قد اجيد طبخها فتوضع بين يديه كما يشتهي فيأكل منها قديداً او شواء ثم تطير. وقالوا ايضاً ان اغصان هذه الشجرة تتدلى من تلقاء نفسها حتى تدنو من كف من يريد ان يجني ثمراتها وانها فضلاً عن الطعام تأتي المنعم عليهم بثياب الحرير وبالخيل المسرجة الملجمة المحلاة النواشي المجللة

---

(١) قاله يحيى في تفسير الآية ٢٨ من سورة الرعد

بالدر والياقوت تنشق عنها ثمرانها وان هذه الشجرة من العظم بحيث ان الراكب الجواد المضمر السريع يسير مائة عام ما يقطع ظلها[١]

ولما كان الماء الغزير من اعظم الاشياء تحسيناً للمقام اكثر القرآن من ذكر انهار الجنة وتعدادها في جملة محاسنها الاولى فمن هذه الانهار ما يجري فيه اللبن ومنها ما يجري فيه الخمر ومنها ما يجري فيه العسل وكلها تخرج من اصل شجرة طوبى وقد تقدم ذكر اثنين منها اعني الكوثر والحيوان واذا قصرت عن الحاجة فستمدها عيون وجداول اخرى اصغر منها رضراضها ياقوت وزبرجد وترابها كافور وارضها مسك وضفافها زعفران واجدر هذه العيون بالتنبيه عليه عينان تدعى احداهما سلسبيلاً[٢] ويقال للاخرى تسنيم[٣]

غير ان ذلك كله ينكسف سناه بالاضافة الى بهاء الحور الباهرات العقول السالبات الالباب وقد دعين حوراً جمع حوراء لحور عيونهن وهو اشتداد السواد والبياض فيها مع

---

(١) تفسير الجلالين على الآية المتقدمة

(٢) سورة الانسان :١٨ (٣) سورة المطففين :٢٧

السعة فصاحبتهن ستكون من اعظم اصناف النعم المعد في الجنة للمؤمنين. وهن فيما يقول المسلمون لم يخلقن من طين كما خلقت نساء الدنيا بل من مسك خالص ولا يعتريهن ما يعتري بنات حواء من قذارة الطمث والحيض كما شهد بذلك محمد في عدة مواضع من قرآنه[١] وهن متعففات محصنات مقصورات في خيام كل خيمة منها درة واحدة جوفاء اتساعها اربعة فراسخ في مثلها وقال بعضهم بل عرضها ستون ميلاً وكذا طولها في السماء

وقد اعتاد المسلمون ان يسموا هـذا المقام السعيد جنة لكنهم قد يضيفون هذا الاسم الى اسماء اخرى فيقولون جنة الفردوس وجنة عدن[٢] وجنة المأوى وجنة النعيم وغير ذلك حتى ان بعضهم يرى ان تعدد هذه الاسماء ان لم يفد ان الجنان متعددة فلا اقل من ان يفيد من ثم مواضع متعـددة نحواً من مئة تتفاوت فيها درجات النعيم لكن ادناه يكون فيه من اصناف الملاذ والنعم لاهله ما لا يمكن ان يقوى احد على استيعابه لولا

---

[١] النساء : ٦٠ وآل عمران : ١٣ والبقرة : ٢٣ [٢] لكن معنى اللفظ عندهم غير معناها بالعبرانية لان تفسيرها بالعربية مقام او مقر

ان محمداً صرح بان الله سيعطي كل واحد منهم قوة مائة رجل ليستطيع ان يتمتع بذلك كله تمام التمتع ويتملاه كل التملي

وقد سبق لنا وصف حوض محمد الذي يشرب منه الصالحون قبل دخولهم هذا المقام الانيق وقد ذكر بعضهم[١] عينين اخريين عدا ذلك الحوض وقالوا ان مخرجهما من تحت ساق شجرة عند باب الجنة وان المنعم عليهم يشربون من احداهما فتذهب ما في بطونهم من اذى او بأس اي ما فيها من الفضلات ويغتسلون في ماء الاخرى تطهراً من الاقذار فاذا انتهوا الى باب الجنة قال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ثم يتلقى كل واحد منهم ولدان حسان قد اقيموا وصفاء له يخدمونه فيقولون له ابشر فقد اعد الله لك من الكرامة كذا وينطلق غلام منهم الى ازواجه من الحور فيبشرهن بقدومه وتتلقاه عند باب الجنة ايضاً ملكان ومعهما الهدايا والخلع التي ارسل الله بها اليه فيكسوه احدهما حلة من حلل الجنة ويضع الآخر في كل واحدة من اصابعه خاتماً قد نقش فصه نقشاً فيه اشارة الى سعيد حاله

(١) الغزالي في احياء العلوم وكنز الاسرار

ثم انهم يقولون ان للجنة ثمانية ابواب اما دخولهم اليها من أي باب من هذه الابواب سيكون فالبحث عنه لا يساوي العناء لذلك نضرب عنه صفحاً ولكن مما يجب التنبيه عليه ههنا هو ان محمداً قد صرح لهم بانه لن يدخل احداً منهم عمله الجنة فقالوا ولا انت يارسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله بفضل منه ورحمة وقد جاء مع ذلك في مواضع متعددة من القرآن ما يترتب عليه ان سعادة كل واحد منهم ستكون على قدر حسناته وان في الجنة منازل تتفاوت فيها درجات هذه السعادة فارفع هذه الدرجات قد افرزت للانبياء والثانية للعلماء والواعظين والثالثة للشهداء وما دونها لسائر الصالحين يكون فيها كل واحد منهم بحسب استحقاقه. وثم تفاوت آخر بينهم وذلك باعتبار الوقت الذي يدخلون فيه الجنة فمحمد (وهو اول من تنفتح له ابوابها ان شئت ان تصدق قوله) قد شهد صريحاً ان الفقراء يدخلونها قبل الاغنياء بخمسمائة عام[1] وللفقراء على غيرهم مزية اخرى في الاخرة يفردون بها وذلك ان النبي قد

[1] «وجاء في حديث آخر ان فقراء المهاجرين يسبقون الاغنياء يوم القيامة الى الجنة باربعين خريفاً

شهد ايضاً انه اطلع في الجنة ليلة المعراج فرأى اكثر اهلها الفقراء واطلع في النار فرأى اكثر اهلها النساء

اما طعام اهل الجنة في اول مأدبة تتخذ لهم بعد دخولهم اليها فقد زعموا ان الارض تنقلب يومئذ خبزة واحدة يكفأها الجبار بيده فتكون لهم خبزاً اما اللحم فسيذبح لهم بلعام وهو ثور الجنة ويكون سمكهم حوت ذي النون فياكل من زيادة كبده سبعون الفاً من كبراء الامة وهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب كما تقدم فيشبعون على ان في العلماء من يقول ان هذا العدد المعين لا يراد به هنا سوى عدد غير معين وان قائله لم يعن به سوى جم غفير من الناس

فاذا انقضت هذه المأدبة انصرف كل من الضيوف الى قصره الذي افرد له فيبقى هناك كما ذكرنا آنفاً بحظ من النعيم على قدر استحقاقه لكنه اوفر جداً مما يستطيع ان يدركه بشر او يرجوه فقد قال من زعموا انه اعلم الخلق بذلك ان ادنى اهل الجنة منزلة من له ثمانون الف خادم واثنتان وسبعون زوجة من الحور سوى ازواجه اللاءي كن في الدنيا وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت فسيحة الارجاء وجاء في حديث آخر

ما معناه ان ثلاثمائة وصيف يخدمونه على مائدته ويكون طعامه في صحاف الذهب يوضع بين يديه منها ثلاثمائة صحفة في كل صحفة لون ليس في الاخرى مثله ويمرأه طعم آخره كما يمرأه طعم اوله ويكون بين يديه ايضاً ثلاثمائة كاس من الذهب فيها ثلاثمائة صنف من الاشربة. ولكي يكون نعيمهم تاماً لا تعوزهم الخمر وتحل لهم في الجنة بعد ان كانت في الدنيا حراماً فيشربونها ولا يصدعون عنها ولا ينزفون[١] كما يصدع عنها شاربوها في الدنيا وينزفون ونحن نقدر ان نتصور لذة هذه الخمر خمر الجنة وطيب عرفها وان لم توصف لنا فان مزاجها من تسنيم[٢] وغيرها من عيون الجنة التي ماؤها عذب قراح غير آسن[٣] فان انكر علينا احد هذه الملاذ كما انكرها على محمد يهودي وقح وقال له تزعم ان اهل الجنة يأكلون ويشربون ومن يأكل ويشرب تكون له الحاجة اي يحتاج الى استفراغ الفضلات وهي من الاذى وليس في الجنة اذى اجبناه كما اجاب النبي ان اهل الجنة

---

[١] سورة الواقعة : ١٩ [٢] سورة المطففين : ٢٦ و٢٧

[٣] سورة محمد : ١٦ «وقد وصف القرآن هذه الخمر فقال في سورة المطففين يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك»

يأكلون فيها ويشربون ولا يتغوطون ولا يتمخطون ولا يبولون ولكن طعامم ذلك يعقبه جشاء كريح المسك وفي رواية كرشح المسك فاذا البطن قد ضمر

اما ما وعد به القرآن اهل الجنة من ناعم الثياب وفاخر الفرش فسيكون في نفاسته كطعامهم في لذته وذلك انهم سيلبسون ثياباً خضراء من سندس واستبرق تنفتق عنها اثمار الجنة وتأتيهم بها ايضاً اوراق الشجرة التي يقال لها طوبى ويحلون باساور من ذهب ولؤلؤ ويتوجون بتيجان مرصعة باللؤلؤ ادنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب ويتكئون على سرر موضونة متقابلين وتكون لهم نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وسرر مرفوعة وارائك ووسائد وغير ذلك من اثاث موشى مرصع

ولكي نكون اسرع الى تصديق ما قيل عن اقتدار اهل الجنة على تملي هذه الملاذ باسرها قيل لنا انهم سيكونون في شباب لا ينقضي وانه مهما كانت سن احدهم عند موته فانه ينشر وهو في ابان الشباب وريعانه اي في سن الثلاثين لن يتجاوزها

ابداً[١] ويكون طوله اذا دخل الجنة كطول آدم اي ستين ذراعاً ومن احب منهم ان يكون له ولد شب لساعته على هـذا الطول وهذه السن كما جاء في حديث محمد من قوله والذي نفسي بيده ان الرجل ليتمنى ان يكون له ولد فيكون حمله ووضعه وشبابه في ساعة واحدة فان لم يحب ذلك لم تحبل زوجته وكذلك ان اشتهى احدهم ان يشتغل بالفلاحة والزراعة وهذه المهنة قد تمكن ان تلائم من كان منهم بطراً خالي البال فان ما يزرعه ينبت ويبلغ في هنيهة[٢]

ولئلا تحرم حاسة من حواسهم ما يناسبها من الملاذ فقد قيل لنا ان اسرافيل وهو ارخم خلق الله صوتاً سيشنف اسماعهم ويطربها بانغامه الشجية وكذلك الحور بغنائهن وهذا فضلا عن ترنم اشجار الجنة نفسها وشدوها تسبيحاً لله تعالى بالحان متوائمة لم يسمع بشر مثلها في الحسن قط ويزاد لهم على ذلك كله صوت

---

(١) وكذلك يقال عن اهل النار

(٢) « وفي الحديث ان رجلاً من اهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال له اولست فيما اشتهيت قال بلى ولكن احب ان ازرع فاسرع وبذر فبادر الطرف نباته واستواءه وتكويره امثال الجبال »

الجلاجل المعلقة في هـذه الاشجار فكلما اشتهوا السماع جرى عليها نسيم يهب من قبل العرش فيحركها بل ان اصطفاق اغصان هذه الاشجار الذهبية الجذوع الدرية الاثمار يفوق اطراباً على كل ما يتصوره الانسان فعلى هذا لا تكون ملاذ حاسة السمع اقل من غيرها من ملاذ الجنة

وما عددناه لك حتى الآن من اصناف الملاذ والتنعم سيكون مشاعاً لكل اهل الجنة يتناولونه جميعهم حتى ادناهم منزلة وان كان ذلك كذلك فماذا ينبغي ان تكون ملاذ اصحاب المنزلة العليا يا ترى . قالوا ان هؤلاء قد اعد لهم فضلاً عن كل ما مر ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولم يخطر على قلب بشر وهـذه عبارة قد اخذوها بلا شك عن التوراة والعهد الجديد[1] ولكيما نعرف ما تقوم به سعادة اصحاب الدرجات العليا فقد قيل لنا في الحديث ان ادنى اهل الجنة منزلة من ينظر الى جناته وازواجه وخدمه وقماشه وغير ذلك مما احتوت عليه داره مسيرة الف سنة فيرى اقصى ذلك كما يرى ادناه اي ان هذه الاشياء تشغل لكثرتها مكاناً متسعاً يسير فيه الراكب الف عام ما يقطعه وان

---

[1] نبوة اشعياء ٦٤:٤ والرسالة الاولى الى اهل كورنثوس ٢:٩

صاحبها سيبصر في الآخرة ما يكون منه على هذا البعد بل ابعد لكن اكرمهم على الله من ينظر وجهه تعالى بكرة وعشياً فهذه الكرامة هي التي يقول الغزالي انها الزيادة الموعود بها في القرآن[1] وانها اللذة الكبرى التي ينسى عندها نعيم اهل الجنة ولا غرو فان باقي اللاذ تذوقها البهائم انفسها اذا سرحت في المراعي الخصبة وهذا اذا انتبهت اليه يدحض دعوى من يدعي ان المسلمين لا يقولون بلاذ روحانية في الاخرة بل يقصرون سعادة الصالحين على التمتع بلاذ جسدانية لا غير

وهات الان ننظر من اين اخذ محمد معنى جنته على ما وصفناها وهذا سهل فان اليهود لا يفتأون يصفون مقام الصديقين في الاخرة بانه جنة انيقة وانها فسيحة تبلغ السماء السابعة وان لها ثلاثة ابواب او بابين فقط على اختلاف بينهم وان فيها اربعة انهر وهـذا قد اخذوه بلا ريب عن انهر عدن على ما جاء في التوراة[2] وان هذه الانهر تفيض لبناً وخمراً وعسلا وبلسماً فاخذ محمد ذلك عنهم كما اخذ ثور جنته وحوتها عن بهيموثهم

---

[1] سورة يونس : ٢٧ [2] سفر التكوين ٢ : ١٠

ولوياثانهم [١] اللذين يزعمون انهما سيذبحان قرى للصديقين وهذا الانتحال البين قد اقر به المسلمون انفسهم ثم ان الربانيين يقولون ايضاً ان ثم سبع درجات من السعادة متفاوتة وان ارفعها درجة الذين يشاهدون وجه الله بلا انقطاع . اما ما كان يراه المجوس في سعادة الصالحين في الاخرة فلا يكاد يختلف عما ذكره محمد من امرها فهم يسمون الجنة بما تفسيره بلور ويعتقدون ان الابرار سيتنعمون فيها بكل الملاذ ولا سيما بمصاحبة الحوراني بهشت وتفسير ذلك الحوراني الحور العيون ويقولون ان عليهن قيماً من الملائكة اسمه زامياد وهذا اول ما نبه محمداً على معنى حور جنانه ولا يبعد ان يكون قد اقتبس ايضاً بعض معان مما جاء في كتب النصارى عن سعادة الصالحين في الاخرة وذلك انه لما كان يتعذر تمثيل الملاذ الروحانية على وجه تدركه افهام العامة من ما لم يؤت في وصفها لهم ببعض المحسوسات اضطر اصحاب اسفار التوراة والانجيل ان يضربوا للنعيم السماوي امثلة من اشياء دنيوية فوصفوا مقام الصديقين بانه مدينة فاخرة سنية قد بنيت بالذهب والجواهر وقالوا ان لها

---

[١] سفر ايوب ٤٠: ١٥ و ٤١: ١

اثني عشر باباً وان نهر ماء الحياة يجري في شوارعها وان على جانبيه شجرة الحياة تحمل اثني عشر نوعاً من الثمر وان ورقها فيه قوة الشفاء [١] وكذلك وصف المسيح نعيمهم بانه ملكوت ياكلون ويشربون فيه على مائدته [٢] غير انه ليس في هـذه الاوصاف شيء من تلك التخيلات الخليقة بالصبيان التي تراها في وصف جنة محمد من الاول الى الآخر وهذا فضلاً عن انه ليس فيها اقل اشارة قريبة او بعيدة تؤذن بان ثم شيئاً من تلك الملاذ الشهوانية المولع بها محمد بل الامر بالخلاف اذ قد قيل لنا بصريح العبارة انهم في الآخرة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء [٣] لكن محمداً لشدة رغبته في رفع قيمة جنته عند اعرابه آثر الاقتداء بدعارة المجوس في هـذا الامر على الاقتداء بعفاف النصارى فوعدهم بالنساء وغير ذلك مما تقوم به رفاهية العيش ورخاؤه حتى لا يتشكوا من نقض لذة ماعنهم وكأنه قاسهم بنفسه فحكم ان سائر الملاذ تكون عندهم مما لا يعتد به اذا حرموا لذة التمتع بالنساء وذلك على حد ما يرى في بعض

---

(١) سفر الرؤيا ٢١ و٢٢

(٢) لوقا ٢٢: ٢٩ و٣٠ (٣) متى ١٢: ٣٠

القصص المجوسية عن حمار دعي الى العرس فسأل هل ثم اتن وشعير. ولو ان محمداً قال لهم ان ما وصف به الجنة يجب حمله على المجاز كما تفعل المجوس في وصف زرادشت لجنته وانه لا ينبغي حمله على ظاهر لفظه لعله كان يسامح شيئاً لكن الامر بالعكس كما يتضح لك من اول القرآن الى آخره حتى اجمع اهل السنة والجماعة على وجوب حمله على ظاهر لفظه وان كان فيهم طائفة قد سمت افهامهم عن هذا الحضيض فنبذوا هذه المعاني الفظة وقالوا ان ما جاء به نبيهم من وصف الجنة انما هو من قبيل المجاز والامثال المضروبة. ولعلنا لا نخرج عما نحن فيه اذا نبهنا قبل الانتقال عن هذا البحث على بطلان ما تزعمه العامة من ان المسلمين يعتقدون ان النساء لا نفوس لهن او انه ان كان لهن نفوس فهن مع ذلك يمتن موت البهائم ولا يثبن ولا يعاقبن فلعل هذا ما يعتقده بعض جهلائهم لكنه مما لا شك فيه أن النساء كن اكرم على محمد من ان يقول فيهن مثل هذه المقالة وبعد فقد جاء في مواضع كثيرة من القرآن ما يثبت منه انهن يثبن على الحسنات ويعاقبن على السيئات كالرجال وانه

ليس في ذلك فرق عنــد الله بين الذكور والاناث [١] نعم ان الذي عليه الجمهور هو انهن لا يدخلن الى المنازل المعدة في الجنة للرجال وذلك لنيابة الحور عنهن وان كان فيهم من يزعم ان الرجل من اهل الجنة اذا احب ان يتمتع بمصاحبة زوجاته اللاتي كن في الدنيا او من اشتهاها منهن ابيح له ذلك كما تقــدم [٢] الا ان الصالحات [٣] منهن قد أفرز لهن مقام سعادة ينعمن فيه بكل أنواع الملاذ. اما هل يكون لهن في جملة هذه الملاذ اخدان حسان يتمتعن بمصاحبتهم كتمتع الرجال بالحور [٤] ليكون النظام المحمدي كاملاً من هذه الجهة فلم اجد من جزم به الا انه جاء في حديث محمد ما يؤذن انهن سيكن في ذلك كالرجل فقد روي عنه ان عجوزاً انصارية اتته ذات يوم فقالت يا رسول الله

---

[١] آل عمران : ١٩٣ والنساء : ١٢٣ وانظر ايضـاً سورة الرعد وسورة النحل والمؤمن والفتح والحديد [٢] « قال المعرب فاذا اشتهاها وكانت من اهل النار فكيف العمل ثم قد يتفق ان يكون قد مات عن المرأة زوجان فكيف العمل اذا اشتهاها كلاهما ؟ »

[٣] « وعددهن قليل لقوله اقل ساكني الجنة النساء »

[٤] «لعل محمـداً لم ينص على هذا الامر حتى لايثير غيرة الرجال اذ لا يسر احدهم ان يكون لزوجته خدن لا في الدنيا ولا في الآخرة»

ادع الله ان يدخلني الجنة فقال لها يا ام فلان ان الجنة لا يدخلها عجوز فولت تبكي فتبسم محمد وقال لها اما قرأت قوله تعالى انا انشأناهن انشاء فجعلناهن ابكاراً عرباً اتراباً [١]

اما الايمان بالقدر خيره وشره وهو الفرع السادس من فروع الاصل الاول من الاسلام فقد اوجبه القرآن على المسلمين ومذهب اهل السنة والجماعة فيه هو ان كل ما حدث او سيحدث في العالم من خير او شر فهو صادر عن ارادة الله مكتوب منذ الازل في اللوح المحفوظ مقضي به قضاء لا معقب له ولا رد بل فضلاً عن ان الله قد قدر في غيبه ما يصيب كل احد في العالم من نعمة او نقمة في ادق تفاصيلها قد قدر عليه ايضاً ايمانه وطاعته او كفره وعصيانه وبالتالي قدر عليه ما يرتب على ذلك في الاخرة من الخلود في النعيم او في الشقاء وهذا القدر لا ينفع منه الحذر ولا يمكن اجتنابه بالتبصر او الحكمة

وقد اتخذ محمد هذا المعتقد ذريعة لادراك مطالبه بجرأ به

(١) سورة الواقعة : ٢٤—٣٦ «وانظر تفسير البيضاوي في هذا الموضع»

اصحابه على القتال بلا خوف والاستبسال في نشر دينهم جازماً لهم ان تحذرهم لا يدرأ عنهم ما كتب عليهم ولا يؤخر آجالهم [١]. وصدهم به ايضاً عن عصيانه وتكذيبه ومشاقته مبيناً لهم ما في ذلك من سوء العاقبة عليهم اذ يوليهم الله ما تولوا من الضلال وقسوة القلب عقاباً لهم على عنادهم [٢]

غير انه لما رأى كثير من علماء المسلمين ان هذا المعتقد بمطلق القدر في الطاعة او المعصية وما يرتب عليه من تقدير السعادة او الشقاء على العبد منذ الازل مما لا يليق بصلاح الله اذ يجعله فاعل الشر اعملوا قرائحهم في استنباط وجوه من دقيق التأول لتعديله فنشأ فيهم لذلك فرق تخالف احداها الاخرى في تأوله حتى افضى الامر ببعضهم الى القول بما يقابله مقابلة التضاد اي الى القول بمطلق التصرف وبان للعبد كسباً كما سترى في الفصل الثامن

وهذا آخر الكلام في فروع الاصل الاول من الاسلام اعني اصل الايمان. اما الاصل الثاني منه وهو ركن الدين فله

---

(١) آل عمران : ١٣٩—١٤٨ و١٥٠—١٦٢ والنساء : ٨٠ والاحزاب : ١٦ و١٧ (٢) النساء : ١٧ و١١٥

اربعة فروع اولها الصلاة ويدخل فيها الطهارة اذ هي شرط لها لا بد منه والطهارة تكون اما بالغسل وهو غمس الجسد كله في الماء او بالوضوء وهو مسح الوجه والاطراف بالماء على كيفية موصوفة في كتبهم والغسل واجب على الرجال في احوال اي عقيب الجماع او الاحتلام او ملامسة الميت وعلى النساء عقيب الحيض والنفاس واما الوضوء فواجب في سائر الاحوال الاعتيادية قبل الصلاة ولا بد منه لكل واحد منهم اذا قام اليها[1] وقد وصف بعض العلماء كيفيته ورسومه لكن معرفة ذلك بالمعاينة اسهل من معرفته بالوصف مهما كان جيداً

ولا يبعد ان يكون محمد قد اخذ هذه الرسوم في التطهير عن اليهود فانها في اكثر امرها كرسومهم وذلك ان اليهود قد زادوا على ما امرهم به موسى في التطهير رسوماً متعددة يأثرها خلفهم عن سلفهم وشحنوا بها كتباً جمة وكانوا منذ زمن المسيح شديدي الحرص على اجرائها والتدقيق فيها حتى انه كثيراً ما كان يوبخهم عليها[2] ومن المحتمل ايضاً ان يكون محمد لم يضع في ذلك رسماً جديداً لقومه وانما ردهم الى عادة قديمة جرت

---

[1] سورة المائدة : ٨ [2] مرقس اصحاح ٧ وغيره

عليها اسلافهم في الجاهلية لانه مما لا شك فيه ان عرب الجاهلية كانوا كغيرهم من امم المشرق يستعملون ضرباً من الوضوء والغسل مما لا بد منه في بلاد حارة الهواء يحتاج فيها الى المبالغة في النظافة . على ان المسلمين يجزمون بان رسوم التطهير المتقدمة هي من عهد ابرهيم في القدم [١] وان الله امره بها حيث ظهر له جبريل في صورة غلام جميل وعلمه كيف يتوضأ بل ان فيهم من يزعم ان هذه الرسوم اقدم من ذلك بكثير وان ابوينا الاولين اي آدم وحواء قد تعلماها من الملائكة [٢] ولكي لا يهمل المسلمون هذا الفرض قال لهم نبيهم ان الدين بني على النظافة وان الطهور نصف الايمان ومفتاح الصلاة لا يقبلها الله بدونه . ثم ان الغزالي لايضاح هذا القول فصل الطهارة على اربع مراتب اولها تطهير الظاهر عن الاحداث والاخباث والفضلات والثانية تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام والثالثة تطهير القلب عن الاخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة والرابعة تطهير السر عما سوى الله تعالى . وزاد على ذلك قوله ان الجسد بالاضافة الى القلب كالقشرة الظاهرة بالاضافة الى اللب ولذلك

---

(١) الجابي في سيرة ابرهيم (٢) ابن القصاع

شدد النكير على الموسوسين الذين يبالغون في تطهير الظاهر الى ما وراء الحد المطلوب حتى انهم اذا رأوا احداً مقصراً عنهم في التنطس والحرص على نظافة الظاهر اقاموا عليه القيامة واجتنبوه واستنكفوا عن مؤاكلته ومخالطته وباطنهم مع ذلك مشحون بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء

اذا علمت هذا علمت وهن دعوى من يتهم المسلمين بانهم يعتقدون ان الوضوء وحده يطهرهم من الخطايا

وقد ابيح للمسلمين احتراساً من اهمال هذا الاستعداد الضروري ان يتيمموا صعيداً طيباً [1] من رمل او تراب ويمسحوا بوجوههم وايديهم منه ان لم يجدوا الماء او كانوا مرضى مرضاً يخاف معه من استعماله فيفتح احدهم راحتيه ويضرب بهما على الرمل او التراب ويمسح بهما وجهه واطرافه كفعله في الوضوء. وليس اكثر الفضل في استنباط هذه الحيلة لدهاء محمد بل لما رآه من فعل اليهود او فعل المجوس وهم لا يكادون يقصرون عن اليهود في شدة الوسوسة والامعان في التطهر فكلا الملتين تأمر بالتيمم اذا مست الحاجة. وقد اشتهر

[1] سورة النساء: ٤٦ والمائدة: ٩

في تاريخ الكنيسة عن بعض النصارى انه لما اضطر اعتاض المعمودية بالرمل عن الماء وذلك قبل زمان محمد بكثير

ثم ان المسلمين لا يكتفون بمجرد الغسل والوضوء بل يرون انه لا بد لهم من مراعاة شروط اخرى من النظافة كترجيل الشعر وفرقه واحفاء الشارب وتقليم الاظفار ونتف شعر الابط والاستحداد والختان . واذ قد ذكرت الختان فلا بأس ان اتكلم فيه كلاماً موجزاً هنا فاقول انه وان لم يأت القرآن بذكره قط فهو عند المسلمين مع ذلك فرض قديم الهي اقره الاسلام وهم يندبون اليه ويستحسنونه وان كانوا لا يوجبونه ايجاباً مطلقاً بل يجوزون تركه في بعض الاحوال واعلم ان هذا الرسم كانت عليه العرب قبل محمد بمدة متطاولة ولا يبعد ان يكونوا تعلموه من اسمعيل وان لم يكن مقصوراً على ذريته بل كانت تستعمله ايضاً حمير وغيرها من قبائلهم وكان الاسماعيليون فيما قبل يختنون ابناءهم لكن لا في اليوم الثامن لميلادهم كعادة اليهود [١] بل عندما يبلغون اثنتي عشرة او ثلاث عشرة سنة وهي السن التي ختن فيها جدهم اسمعيل [٢] الا ان

---

[١] يوسيفوس المؤرخ اليهودي [٢] سفر التكوين ١٧:٢٥

المسلمين لا يقتدون بهم من ذلك الا في تأخير ختان الصبي الى ان يثغر او يبلغ سناً يستطيع فيها ان ينطق نطقاً بيناً بكلمتي الشهادة اي ان يقول لا اله الا الله محمد رسول الله ولا يحدون لذلك سناً معلومة بل يختنون الصبي متى شاءوا بين ست سنين الى ست عشرة سنة واعلم انه وان كان علماء المسلمين متفقين على ان ابرهيم هو اول من سن له الختان كما جاء في التوراة ففيهم مع ذلك من يزعم ان آدم تعلمه من جبريل وذلك ليبر قسماً كان اقسمه ليقطعن هذا العضو الذي تمرد عليه بعد هبوطه من الجنة ومن هنا زعموا ان الختان واجب على الناس كافة بمقتضى هذه الحجة الواهية والمسلمون يحجمون عن القول بان احداً من الانبياء المتقدمين على ابرهيم اختتن فعلاً ولذلك يزعمون انه كثيراً من الانبياء المتقدمين عليه وكثيراً من عباد الله الصالحين الذين جاءوا من بعده ولدوا معذورين اي بلا قلفة وان آدم نفسه خلق معذوراً مسروراً واثبتوا هذا لنبيهم ايضاً ولست اجزم بان اليهود هم الذين قادوهم الى هذا الزعم

واذ قد فرغنا من الكلام فيما تجب مراعاته من شروط الطهارة قبل القيام الى الصلاة نشرع في الكلام على الصلاة نفسها

فنقول ان محمداً لشدة ما كان يراه من وجوبها دعاها عماد الدين ومفتاح الجنة ولما قدم عليه وفد ثقيف سكان الطائف يبايعونه وذلك في سنة تسع للهجرة وابى ان يدع لهم اللات وهي صنمهم كما علمت سألوه ان يعفيهم من الصلاة فقال لهم لا خير في دين لا صلاة فيه [١]

ولئلا يهدم هذا الفرض المهم اوجب محمد على اصحابه خمس صلوات في اليوم بليلته وهي صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة العتمة او العشاء وهذا ما زعم ان الله امره به ليلة المعراج . وقد اوجب القرآن في مواضع كثيرة منه اقامة الصلاة لاوقاتها لكنه لم يعين هذه الاوقات باسمائها. فاذا حانت صلاة من هذه الصلوات دعاهم اليها المؤذنون من مآذن مساجدهم اذ لا يجوز عندهم قرع النواقيس كما تفعل النصارى فاذا أذن بصلاة ما استعد كل مسلم دين لاقامتها في المسجد او في موضع آخر اياً كان بشرط ان يكون طاهراً واخذ في قضائها ركوعاً وسجوداً وتشهداً وتكبيراً كما هو منصوص عليه وكرر التسبيح عدداً معلوماً ومنهم من يشتد تشبثه فيمد ذلك

---

[١] تاريخ ابي الفداء

بسبحته[1] ولا يجوز لهم ان يقصروا من الصلاة شيئا الا اذا اضطروا اي اذا كانوا على سفر او في حرب[2] وما عدا هذه الشروط فللصلاة شرط آخر لا بد منه وهو ان يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام اذا صلوا[3] فهو قبلتهم وانما يدلهم عليها اذا كانوا داخل المسجد محراب فيه واذا كانوا خارجه دلتهم عليها المآذن فان ابوابها العليا مواجهة للقبلة وحيث لا يكون مساجد ولا مآذن فلهم زيجات وتقاويم تدلهم عليها

---

[1] اي بعد الصلاة

[2] سورة النساء : ١٠٢ [3] سورة البقرة : ١٣٩ قال المعرب اعلم انه لم يكن لمحمد واصحابه في اول امرهم قبلة يستقبلونها دون غيرها اذا صلوا اذ لم يكن للقبلة من الاهمية عندهم ما صار لها بعد ذلك ألا ترى قول القرآن لهم ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله (سورة البقرة : ١٠٩) لكن محمداً لما هاجر الى المدينة امرهم ان يستقبلوا بيت المقدس وذلك تألفاً لليهود كما قال البيضاوي (في تفسير سورة البقرة : ١٣٩) فاقاموا على هذه القبلة ستة عشر شهراً فلما يئس من استمالة اليهود الى دينه لعنادهم المعهود كما يئس ايضاً من صرف مشركي قريش عن كعبتهم امر اصحابه اذا اقاموا الصلاة ان يستقبلوا المسجد الحرام واستنزل الآية المتقدمة من السماء ليكون تغيير القبلة عن امر ربه لا امر نفسه

واعلم ان اول شيء تجب مراعاته في اقامة هـذا الفرض حضور القلب فهو كما قال علماؤهم روح الصلاة وحياتها اذ ان تلك الرسوم الخارجة المتقدم ذكرها مهما امعن في مراعاتها فقلما تفيد اذا لم يكن معها التفهم والتعظيم والهيبة والرجاء فلا ينبغي اذاً ان نظن ان المسلمين او اصحاب التميز منهم على الاقل يجتزئون بمجرد تلك الافعـال الظاهرة او يرون ان الدين كله منحصر فيها

وثم امران هذا موضع ذكرهما واری ان المسلمين فيهما اقرب منا الى فعل ما يجب اولهما انهم لا يصلون وهم لابسون ثياباً فاخرة وان كان يجب عليهم ان يلبسوا ما يواري السوءة ولا يخل بالادب فاذا قاموا الى الصلاة وكان عليهم ثياب ذات ابهة ستروها عنهم لئلا يلمح منهم الشامخ والكبر[1] وثانيهما انهم لا يبيحون لنسائهم ان يصلين معهم في الجماعة ولذا اضطررنَ ان يصلين في بيوتهنَّ فان اردن زيارة المساجد وجب ان يزرنها حين لا يكون فيها رجال لانهم يرون ان وجود النساء معهم في

---

[1] تفسير سورة الاعراف : ٢٥

المساجد يشغلهم عن القنوت الذي لا بد منه في موضع قد افرد لعبادة الله ويلهمهم عبادة اخرى[١]

ويشبه ان يكون اكثر ما عددناه من تفاصيل فرض الصلاة قد اخذه محمد عن غيره ولا سيما عن اليهود ولم يزد عليهم في شيء الا في عدد الصلوات فان اليهود قد امروا ان يصلوا ثلاث مرات كل يوم وذلك في الصباح والمساء والليل اقتداء بابرهيم واسحق ويعقوب[٢] وجرت بذلك عادتهم منذ عهد دانيال[٣] حتى لا نقول من قبله. اما ركوع المسلمين وسجودهم ولا سيما السجدة الكبرى التي تمس جباههم فيها الارض فذلك كله عين ما يأمر به الربانيون وان كان هؤلاء يدعون بان ما يفعله المسلمون من السجود انما هو بقية من رسوم العبادة القديمة التي كانت عرب الجاهلية تتعبد بها لبعل فهر[٤] وكذلك لا يصلي اليهود الا مستقبلين هيكل بيت المقدس فهو قبلتهم منذ

---

[١] وقد كتب احمد بن عبد الله المغربي رسالة الى بعض الامراء من الافرنج فند فيها عادات النصارى ولا سيما اختلاطهم بالنساء في الكنائس [٢] تكوين ١٩:٢٧ و٢٤:٦٣ و٢٨:١١ [٣] نبوة دانيال ٦:١٠ [٤] ابن ميمون

بناه سليمان[١] ولهذا لما كان دانيال في ارض الكلدانيين جعل كوى عليته مفتوحة نحو بيت المقدس للصلاة[٢] وقد اقام محمد ستة اشهر او سبعة وهذا البيت نفسه قبلته وقبلة اصحابه[٣] حتى اضطر آخر الامر ان يحول القبلة الى الكعبة . وكذلك امر اليهود اذا صلوا ان تكون ثيابهم ومواضع صلاتهم نظيفة[٤] وان ينفرد رجالهم في الصلاة عن نسائهم (وقد حذت نصارى المشرق في ذلك حذوهم) وثم اشياء اخرى كثيرة وافق فيها المسلمون اليهود في رسوم الصلاة لكن ليس هذا موضع استيفائها

اما الفرع الثاني من فروع ركن الدين فهو الزكاة وهي نوعان شرعي وتبرعي فالشرعي فرض واجب لان الشرع قد امر به وعين ما يخرج منه جنساً ومقداراً واما التبرعي فمتروك

---

[١] سفر الملوك الاول ٢٩:٨ [٢] نبوة دانيال ١٠:٦

[٣] «انظر تفسير البيضاوي على سورة البقرة : ١٠٩ و١٣٦ و١٨٣ الا انه يقول انهم اقاموا على هذه القبلة ستة عشر شهراً لا ستة اشهر او سبعة كما قال المصنف وجاء في التواريخ ان القبلة تحولت الى الكعبة في السنة الثانية من الهجرة وهذا يعضد قول البيضاوي»

[٤] كما ذكر ابن ميمون في بعض مصنفاته العبرانية

امره للرجل يخرج منه ما تسمح به نفسه من كثير او قليل . وفي العلماء من يدعو الشرعي زكاة والتبرعي صدقة وقد يدعى الاول صدقة كالثاني . وانما دعيت الزكاة زكاة من قولهم زكا الزرع اذا نمي فان اخراجها يستجلب البركة في المال ويثمر في النفس فضيلة الكرم او من الزكاء بمعنى الطهارة فانها تطهر المال من الخبث والنفس من البخل [1] والصدقة انما دعيت صدقة لانها تدل على صدق العبد في العبودية. وقد دعا بعض المصنفين الزكاة الشرعية عشراً وذلك خطأ لانها قد تزيد على العشر مقداراً في بعض الاحوال وتنقص عنه في اخرى والقرآن كثيراً ما يأمر بايتاء الزكاة ويوصي بها ويندب اليها والى الصلاة في العبارة الواحدة لان من شأن الزكاة ان تجعل الصلاة مقبولة عند الله ولذا كان الخليفة عمر بن عبد العزيز يقول الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه. وهي عند المسلمين مما يستحق الثواب وقد اشتهر بالتصدق كثير منهم ولا سيما الحسن بن علي حفيد محمد فانه شاطر الفقراء ماله ثلاث مرات واعطاهم مرتين كل ما كان يملك وهم في الغالب حراص

[1] «قابل هذا بما جاء في انجيل لوقا ١١: ٤١»

على فعل الخير والبر حتى أنهم لا يهملون البهائم من الرأفة بها والاحسان اليها[١]

وقد اوجب شرع المسلمين الزكاة في خمسة في النعم السائمة من الابل والبقر والغنم وفي النقدين من الفضة والذهب وفي المستنبتات التي يقتات بها من الحبوب وفي الثمار من الكرم والنخيل وفي عروض التجارة فتخرج الزكاة في هذه الاشياء على نسبة واحد من الاربعين او اثنين ونصف في المائة من قيمتها الا انه لا زكاة فيها ما لم تبلغ النصاب ولم يحل عليها الحول وهي في حوزة مالكها وكذلك لا زكاة في دواب الحرث او التي تحمل الاثقال لكن يجب في بعض الاحوال ان تخرج الزكاة بمقادير اكثر مما ذكرنا ففي ما يحصل من الركاز والمعادن وفي ما يؤخذ من البحر وفي ما يكتسب من الصناعات والحرف فاضلاً عن نفقة العيال بلا تقتير ولا تبذير ولا سيما اذا ارتاب الرجل في امر ربحه هل يشوبه شيء حرام او مناف للقسط في ذلك كله تجب الزكاة على نسبة عشرين في المائة وهي عبارة عن الخمس وكذلك يجب على كل مسلم اذا انسلخ شهر رمضان ان

(١) انظر سفر الجامعة ١١: ٢ وسفر الامثال ١٢: ١٠

يخرج صدقة الفطر عن نفسه وعن كل واحد من اهل بيته ان كان له اهل بيت صاعاً من جنس قوته اي مما يؤكل كالقمح او الشعير او التمر او الزبيب او الارز او غير ذلك

وكان محمد في اول الامر هو الذي يجبي الزكاة وينفقها كما يحسن عنده فبعضها كان يرزق منه الفقراء من اقاربه ويرزق بالباقي جنده وهم الذين دعاهم بالمجاهدين اي الذين جاهدوا في سبيل الله كما قال واستمر على ذلك خلفاؤه من بعده الى ان ضربت على الناس ضرائب اخر للقيام بنفقة الدولة فسئم الخلفاء من ان يكونوا جباة الزكاة وموزعيها في رعيتهم فتركوا امرها للناس يخرجها كل واحد منهم كما يهديه اليه ورعه

وكل ماذكرناه من امر الزكاة وشروط اخراجها فقد اقتفى فيه المسلمون اثر اليهود قولاً وعملاً واليهود يسمونها صدقة ويريدون بها البر بالمعنى الذي اراده الانجيل[1] وقد اكثر ربانيوهم من الندب لها وقالوا انها افضل من القرابين وانها فرض من والى قضاءه نجا من نار الجحيم واستحق الخلود في دار النعيم ولذلك ندب اليهود لافراز قسم من حبوبهم واثمارهم

[1] متى ٦:١ والرسالة الثانية الى اهل كورنثوس ٩:١٠

يرزقون منه اليتيم والغريب ودعوه عشر الفقراء[١] وهذا فضلاً عما امرهم به شرع موسى من التخلي عن زوايا الحقل ونثار الكروم لليتامى والغرباء[٢] وقد اشتهر خلق كثير منهم بالبر والاحسان في الزمن الغابر وجاء في الانجيل ان زكا العشار شاطر المساكين ماله[٣] بل قيل ان بعضهم كان يتصدق بكل ماله ولما رأى احبارهم هذا السرف اضطروا آخر الامر ان يضعوا قانوناً يصد الناس عن التصدق باكثر من خمس اموالهم وكذلك كانوا يقيمون في كل واحد من مجامعهم رجالاً يجبون الصدقات ويوزعونها

اما الفرع الثالث من فروع ركن الدين فهو الصوم وهو من مهم الفروض حتى قال عنه محمد انه باب العبادة وجاء في حديثه لخلوف فم الصائم اطيب عند الله من ريح المسك وعده الغزالي ربع الايمان. وقسمه علماء المسلمين الى ثلاثة اقسام الاول كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة الثاني كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام

(١) ابن ميمون (٢) سفر اللاويين ١٩:٩ وتثنية الاشتراع ٢٤:١٩
(٣) لوقا ١٩:٨

الثالث صوم القلب عن الهمم الدنية وكفه عما سوى الله بالكلية[١]

وقد اوجب القرآن بصريح العبارة على كل مسلم ان يصوم شهر رمضان ابتداء من رؤية هلاله الى ان يرى هلال شوال[٢] فهم يمسكون في هذه الايام عن الاكل والشرب والرفث الى نسائهم من الفجر الى غروب الشمس ولشدة اغراقهم في اتباع ما امروا به لا يدخلون شيئاً البتة في افواههم ولا في غيرها من سبل ابدانهم ويعدون استنشاق الطيب والاستعاط والاحتقان والاستحمام[٣] وابتلاع الريق[٤] عمداً كل ذلك مما يفسد الصوم ويكون في حكم الافطار وقد افرط بعضهم في التشبث حتى لا يكادوا يفتحون افواههم للكلام حذر ان يستنشقوا من الهواء زيادة عن الحاجة الطبيعية[٥] واذا قبل الرجل امرأة او

---

[١] احياء علوم الدين ١٠ [٢] انظر تفسير سورة البقرة ١٧٩ — ١٨١

[٣] كذا بالاصل — المصحح

[٤] اي اذا كان ممزوجاً بماء او مغذي — المصحح

[٥] (كذا بالاصل — المصحح). ولذا جاء في القرآن سورة مريم : ٢٧ خطاباً لمريم ام عيسى فقولي اني نذرت للرحمن صوماً فلن اكلم اليوم انسياً وذلك لتكفى مؤونة الجواب على ما قرفت به اذ كانت قد

لمسها او استقاء عامداً فسد صومه . لكن اذا غربت الشمس حل لهم الاكل والشرب والرفث الى نسائهم حتى الفجر[1] وفيهم مع ذلك من يبالغ في التدقيق والتنطس فيستأنف صومه من نصف الليل وهذا الصوم شديد جداً ناهك للقوى اذا وقع رمضان في فصل الصيف كما يتفق احياناً لانه لما كانت سنة العرب قمرية كان كل شهر من شهورها يدور على كل فصل من الفصول الاربعة حتى يجتازها مرة في الدور اي في كل ثلاث وثلاثين سنة فيكون الصوم في الصيف لطول ايامه وشدة حرها اصعب منه في الشتاء

اما السبب الذي لاجله تعين ان يكون الصوم في شهر رمضان فهو انه الشهر الذي انزل فيه القرآن[2] وزعم بعضهم انه الشهر الذي أنزل فيه على كل من ابراهيم وموسى وعيسى كتابه الخاص به[3]

ولدت ولداً وهي غير ذات بعل وكانوا لا يتكلمون في صيامهم. كذا قاله البيضاوي «وللمعرب كلام على هذه الآية سيأتي ايراده في التذييل»

(١) عبارة القرآن حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر (سورة البقرة : ١٨٣)

(٢) سورة البقرة : ١٨٠ وتفسيرها للبيضاوي (٣) الآية المتقدمة

ولا يعفى من هذا الصيام الا من كان على سفر او مريضاً[١] ويدخل في حكم المريض كل من كان الصوم يضره كالحبالى والمراضع والطاعنين في السن والاطفال لكن على هؤلاء اذا زال المانع ان يصوموا عدة من ايام اخر بعدد ايام افطارهم او ان يكفروا عن افطارهم باطعام المساكين[٢]

وقد اقتدى محمد باليهود فيما فرضه من الصيام مثلما اقتدى بهم في غيره من الفروض المتقدمة فاليهود اذا صاموا امسكوا لا عن الاكل والشرب فقط بل عن البضاع والادهان ايضاً وذلك من الفجر الى الغروب وطلوع النجم وقضوا ليلهم بتناول ما يشتهونه من الطعام والشراب وقد اباحوا ايضاً للحبالى والمراضع والمسنين والاطفال ان يفطروا في اكثر ايام الصيام

ثم انه وان كان غرضي هنا ان اتكلم بالايجاز فيما اوجبه القرآن على المسلمين من الفروض بدون ان اتعرض للبحث عما لهم من النوافل وعبادات التطوع فلا بأس مع ذلك ان اردف ما تقدم بكلام موجز في صومهم التطوعي اظهاراً لشدة متابعة

---

(١) سورة البقرة : ١٨٠ و١٨١ وتفسير البيضاوي

(٢) سورة البقرة : ١٨٠ و١٨١ وتفسير البيضاوي

محمد فروض اليهود فيما فرضه لقومه فاقول ان الايام التي يصومون فيها تطوعاً او تنفلاً هي الايام التي صامها محمد او ندب الى صومها ولا سيما بعض ايام من الاشهر التي يدعونها حرماً وذلك لما جاء في الحديث من قوله صوم يوم من شهر حرام افضل من صوم ثلاثين من غيره وصوم يوم من شهر رمضان افضل من صوم ثلاثين من شهر حرام. فمن الايام التي يفضل الصوم فيها عليه في غيرها يوم عاشوراء[1] وهو العاشر من المحرم قال بعض العلماء ان محمداً اخذ هذا اليوم باسمه ومسماه عن اليهود اذ هو عندهم اليوم العاشر من الشهر السابع وهو يوم الكفارة العظيم الذي امر شرع موسى بحفظه[2] وذكر القزويني انه لما قدم محمد المدينة وجد يهودها يصومون عاشوراء فسألهم عن ذلك فقالوا انه اليوم الذي غرق فيه فرعون وقومه ونجا موسى ومن معه فقال انا احق بموسى منهم وامر بصوم عاشوراء ثم انه كره بعد ذلك موافقة اليهود في

---

[1] «جاء في الصحيحين قول محمد هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله صيامه عليكم وانا صائمه فمن احب منكم ان يصوم فليصم ومن احب منكم ان يفطر فليفطر» [2] سفر اللاويين ١٦: ٢٩ و٢٣: ٢٧

هذا الامر[١] فقال لئن بقيت الى قابل لاصومن التاسع وفي العلماء مع ذلك من قال ان العرب ولا سيما قريش كانت تصومه قبل زمان محمد[٢]

الفرع الرابع من فروع ركن الدين الحج الى البيت الحرام اي كعبة مكة وهو فرض من فروض الدين المؤكدة ولذا قال محمد من استطاع الحج من امتي ولم يحج فليمت ان شاء يهودياً وان شاء نصرانياً وقد اوجبه القرآن نصاً[٣] ولا بأس قبل الكلام في وقته وكيفية قضائه ان الخص ما قيل في الكعبة التي هي اعظم معابد المسلمين واول مواضع عبادتهم وساوجز الكلام فيها اذ كان لي في ما كتبه غيري من جماعتنا في وصفها مندوحة عن الاسهاب وان كانوا قد اخطأوا الوصف في بعض المواضع وخالف بعضهم بعضاً لعلة اخذهم عن روايات مختلفة وليس هذا منهم بالامر العجيب فان مصنفي المسلمين انفسهم لم يتفقوا في وصفها بل اختلفوا في بعض الاشياء واعظم اسباب

---

[١] ابن الاثير [٢] البارزي في شرح الخطب النباتية

[٣] سورة آل عمران : ٩١ وانظر ايضاً سورة البقرة : ١٩٢ — ١٩٤ وسورة الحج : ٢٧ — ٣٣

ذلك ان كل واحد منهم تكلم عنها في زمان غير الزمان الذي تكلم فيه الآخر

اما موقع الكعبة فهو في وسط مكة في مسجد يدعى بالمسجد الحرام تعظيماً له وهي اعظم ما فيه وبها يقدس الموضع كله وهي بناء مربع من الحجر زعم قوم انها دعيت كعبة لنتوءها اي ارتفاعها على ما سواها من ابنية مكة[١] وقال غيرهم بل لتكعب شكلها وهذا الى الصواب اقرب وتدعى ايضاً بيت الله لانها قدست وافردت لعبادته تعالى. وطول هذا البناء من الشمال الى الجنوب اربع وعشرون ذراعاً وعرضه من الشرق الى الغرب ثلاث وعشرون ذراعاً وارتفاعه سبع وعشرون ذراعاً وبالوجه الشرقي منه باب ارتفاعه اربع اذرع عن مستوى سطح الارض وذلك نحو قامة وسطح الكعبة من داخل مساو لاسفل الباب[٢] وفي الركن الذي يلي هذا الباب الحجر الاسود وسيأتي بعيد هذا كلامنا فيه والى الشمال من الكعبة موضع محجور في شكل نصف دائرة طوله خمسون ذراعاً وفيه حجر آخر ابيض يقال

---

(١) احمد بن يوسف (٢) نزهة المشتاق للشريف الادريسي وكتاب المسالك «والمراد بسطح الكعبة ارضها لا الاحجار الذي يعلو سقفها»

انه قبر اسمعيل وعليه تقع ماء المطر من سقف الكعبة الاعلى في ميزاب كان قبلاً من الخشب[1] وهو اليوم من الذهب. وللكعبة سقف مزدوج تدعمه اساطين من خشب الساج مثمنة الاضلاع وبينها من اعلاها قضبان حديد تعلق فيها مصابيح فضة اي قناديل وجدران الكعبة مكسوة من خارج باستار من الديباج الاسود موشاة الحواشي تبدل كل سنة وكان الخلفاء العباسيون هم الذين يرسلون بهذه الكسوة ثم تولى ذلك سلاطين مصر من بعدهم ثم السلاطين العثمانيون والى الشرق من الكعبة وعلى قرب منها مقام ابراهيم وفيه حجر ثالث يعظمه المسلمون كثيراً وسيأتي كلامنا فيه . ويحيط بالكعبة من اكثر جهاتها رواق مستدير يصل بين اعمدته من اسفلها جلفق اي درابزين غير مرتفع ومن اعلاها قضبان فضة فاذا خرجت من هذه الحظيرة او الرواق رأيت الى الجنوب والشمال والغرب من الكعبة ثلاثة ابنية هي مصليات لاصحاب ثلاثة من مذاهب اهل السنة والجماعة وهم الحنفية والمالكية والحنبلية اما اصحاب المذهب الرابع وهم الشافعية فقد اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى لهم

(١) نزهة المشتاق وكتاب المسالك

ورأيت الى الشرق منها بناء رابعاً فيه بئر زمزم والخزانة وسقاية العباس ويقال لها قبة العباس[١]

ويحيط بهذا جميعه وعلى بعد منه رواق ثان مربع الشكل فاخر البناء اعمدته من الرخام تقوم عليها قباب صغيرة وفي كل ركن من اركانه الاربعة مئذنة ذات دورين لوقوف المؤذنين ولها طربال قد صفح بالذهب وركب في اعلاه صورة هلال من الذهب كما ركب ذلك على كل قبة من قباب الرواق وسائر ابنية المسجد وقد جعلوا بين كل عمودين من اعمدة هذين الرواقين سلسلة تعلق فيها القناديل فهي توقد كل ليلة واول من بنى هذا الرواق البراني الخليفة عمر بن الخطاب غير انه لم يكن ما بناه سوى سياج يسير الارتفاع وذلك صوناً لفناء الكعبة عن ان يتخطى عليه الناس بابنيتهم اذ كان لا سياج له من قبل اما البناء الفاخر الذي وصفناه فانما بني في القرون التالية وقام بنفقته جماعة من السلاطين وعظماء الرجال على التعاقب[٢]

---

[١] نزهة المشتاق وكتاب المسالك [٢] قال المعرب يتحصل من كتاب الاعلام للنهروالي ان السلاطين العثمانيين هم الذين بنوه فشرع فيه سليم الثاني واتمه مراد في اواخر سنة ٩٨٤ للهجرة

فهذا ما يدعى بالمسجد الحرام على الخصوص غير انه لما كانت ارض مكة كلها حرماً جعل لها تخم آخر يحدها وتدل عليه منار مضروبة حول البلد بعضها على بعد خمسة اميال منه وبعضها على سبعة وبعضها على عشرة[1] فما دخل في هذا الخط من الارض فهو حرم لا يحل فيه قتال العدو بل لا يحل فيه صيد الوحش ولا قنص الطير ولا اختضاد الشجر وانما كان صيد حمام مكة حراماً لهذا السبب لا لانه من نوع تلك الحمامة التي تصورها بعض المصنفين ممن كان اخلق بهم ان يربأوا بانفسهم عن هذا السخف فزعموا ان محمداً اوهم انها روح القدس

وقد كان هيكل مكة منذ القديم وقبل محمد بقرون بيت عبادة للعرب يعظمونه غاية التعظيم ولعله كان في اوائل امره معبد اوثان الا ان جمهور المسلمين يعتقدون ان الكعبة كالدنيا في القدم ويقولون انه لما اهبط آدم من الجنة دعا ربه ان يأذن له في بناء بيت يكون قبلة لصلاته ومطافاً لعبادته كما كان قد عهد في السماء من البيت المعمور ويقول الضراح ايضاً وهو مطاف الملائكة فانزل الله عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق

(١) الاصطخري

من نور وضعه في مكة تحت البيت المعمور او الضراح حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل وامر آدم ان يطوف به ويتوجه اليه فلما مات آدم تولى ابنه ووصيه شيث بناءه من حجر وطين على ذلك الرسم[١] ثم انطمس في الطوفان[٢] فامر الله ابراهيم واسمعيل فجددا بناءه بالهام من الله في موضع البيت المنطمس وعلى رسمه[٣] ثم ما زال يتشعث فيرمّ الى ان جددت قريش بناءه على الاسس القديمة وذلك بعد ميلاد محمد ببضع سنين ولما بويع عبد الله بن الزبير بالخلافة في مكة رممه ثم هدمه الحجاج ابن يوسف الثقفي وبناه ثانية على الرسم الذي نراه عليه اليوم مغيراً تغييراً يسيراً عن بناء ابن الزبير وكان ذلك في سنة اربع وسبعين للهجرة[٤] ولم يمض عليه الا القليل حتى همّ الرشيد وقيل بل ابوه المهدي وقيل بل جده المنصور باعادته الى بناء ابن الزبير لكنه عدل عن ذلك مخافة ان يقتدي خلفاؤه بفعله فيصير هذا البيت الحرام ملعبة للملوك يغيره كل واحد منهم بحسب هواه فتذهب هيبته من قلوب الناس فتركه على حاله سداً

(١) انظر تفسير الزمخشري على سورة البقرة : ١٢١ (٢) كتاب الملل والنحل (٣) سورة البقرة : ١٢١ (٤) ابو الفداء

المذريعة[١] على انه مع ما لهذه الكعبة من القدم والتقديس فقد تنبأ محمد بخرابها في آخر الزمان فذكر في الحديث ان الحبشة سيخربونها خراباً لا تعمر بعده ابداً

ولا بأس قبل الانتقال عما نحن فيه من وصف مسجد مكة ان ننبه على اشياء منه حرية بالتنبيه احدها الحجر الاسود المشهور وهو حجر قد شدت جوانبه بطوق فضة وركب في الركن العراقي من الكعبة على ارتفاع ذراعين وثلث عن الارض وذلك عبارة عن سبعة اشبار والمسلمون يبالغون في تعظيمه ويلتزمه حجاجهم بنسك شديد اذ هو عندهم يمين الله على الارض ومن خرافاتهم فيه انه احد جواهر الجنة اهبط الى الارض مع آدم ثم رفع الى السماء في الطوفان او خبئ في ابي قبيس[٢] ثم جاء به جبريل الى ابراهيم وهو يبني البيت. وقالوا انه اشد بياضاً من اللبن فلمسته في الجاهلية حائض فاسود[٣] وفي رواية اخرى سودته خطايا بني آدم[٤] والارجح انه اسود.

---

[١] الجنابي وابن بطوطة [٢] جبل بالقرب من مكة

[٣] «تلخيص ما قاله الزمخشري في تفسير سورة البقرة : ١٢١»

[٤] الزمخشري واحمد بن يوسف

لتهافت الجم الغفير من الناس على التزامه وتقبيله ايام الحج لان السواد في رأسه دون سائره. ولما استولى القرامطة على مكة كان من جملة ما ابتذلوا به الكعبة انهم قلعوا هذا الحجر واخذوه فبذل لهم اهل مكة خمسة آلاف دينار فيه فلم يردوه وبقي عندهم اثنتين وعشرين سنة فلما يئسوا من تحويل الحجاج اليهم ردوه من تلقاء انفسهم لكنهم قالوا لعباده سخرية بهم انهم لم يردوا الحجر الصحيح الا ان صحته ثبتت عندهم مما له من خاصة الطفو على الماء[1]

وثانيها حجر آخر في مقام ابراهيم يزعمون ان فيه اثر قدمي الخليل قال بعضهم كان الخليل ابراهيم يقف عليه وهو يبني الكعبة فكان له بمنزلة سلم تعلو او تهبط به من تلقاء نفسها كما كانت تدعو اليه حاجة البناء وقال آخرون انه لما زار ابنه اسمعيل في مكة وقف على هذا الحجر بينما كانت كنته تغسل

[1] القرامطة شيعة منسوبة الى قرمطة ظهروا سنة ٢٧٨ للهجرة وكادت مذاهبهم في الدين تقلب الاسلام ظهراً لبطن وسيمر بك طرف من اخبارهم في الفصل الثامن من هذه المقالة. قال المعرب يشبه ان تكون حقيقة الامر في هذا الحجر انه ضرب من النيازك والحجارة التي تتساقط من الجو احياناً

رأسه فغاصت فيه قدماه[١] وهو اليوم محرز في صندوق من الحديد يشرب الناس منه ماء زمزم وقد خبأ سدنة الكعبة هذا الحجر لما اخذت القرامطة ذاك وقد امر القرآن ان يتخذ من مقام ابراهيم الذي فيه هذا الحجر مصلى[٢]

وثالثها بئر زمزم وهي الى الشرق من الكعبة وعليها قبة والمسلمون يعتقدون انها هي العين التي انفجرت لاسمعيل اذ كان تائهاً في البرية مع امه هاجر[٣] وزعم بعضهم انهـا دعيت بزمزم من قول هاجر لابنها زم زم باللغة المصرية اي قف قف وذلك لما رأت انبجاس الماء ولعل الاظهر في تسميتها انها حكاية صوت الماء فيها. ويحسب ماء هـذا البئر مقدساً عند المسلمين ومباركاً فلذا يبالغون في تعظيمه ويشربه حجاجهم تنسكاً ويرسل به في القوارير تحفة الى اكثر البلاد الاسلامية وزعم عبد الله وهو الذي لقب بالحافظ لقوة حفظه ولا سيما حفظ الحديث انه انما حصل على هذه الموهبة لانه كان يدمن شرب

---

[١] « انظر ما قاله البيضـاوي في تفسـير سـورة البقرة : ١١٩ والمسعودي في مروج الذهب باب ٣٩».

[٢] سورة البقرة : ١١

[٣] سفر التكوين ١٩:٢١

هذا الماء فهو من هـذا القبيل كماء نهر في بلاد اليونان يقال له هلقون زعموا ان الشاعر يشرب منه فيلهمه المعاني

فكل مسلم تمكنه صحته وذات يده يجب عليه حج هـذا البيت[١] ولو مرة في عمره ولا تعفى منه النساء[٢] ولا بد للحجاج ان يلقوا عصاهم في مكة في غرة ذي الحجة وهو شهر الحج كما يظهر من ناطق اسمه فهم لذلك يجتمعون اولاً بالقرب من مكة في مواقيت تختلف باختلاف البلاد التي يأتون منها[٣]

---

[١] سورة آل عمران : ٩١ «وذلك قوله ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا . وفسر محمد الاستطاعة بالزاد والراحلة وهـذا يعضد قول الشافعي انها بالمال ولذلك اوجب الاستنابة على الزمن اذا وجد اجرة من ينوب عنه . وقال مالك انها بالبدن فتجب عنده على من قدر على المشي والكسب في الطريق . وقال ابو حنيفة انها بمجموع الامرين . واعلم ان القرآن كفر من لا يحج فقال في الآية التالية ومن كفر فان الله غني عن العالمين . وضع كفر موضع لم يحج تأكيداً لوجوب الحج كذا فهمه البيضاوي وحجته فيه قول محمد في حديثه من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهودياً وان شاء نصرانياً»

[٢] «يجب الحج على المرأة اذا كان لها محرم او زوج يحج بها»

[٣] فلاهل المدينة ذو الحليفة ولاهل العراق ذات عرق ولاهل الشام الجحفة ولاهل نجد قرن وهل اليمن يلملم»

وذلك في شوال وذي القعدة فاذا تم اجتماعهم وهل ذو الحجة بدأ الحج فأحرم الرجال اي اتخذوا ثوبين من صوف ازاراً ورداء ودخلوا الحرم متوجهين الى مكة وهم مكشوفو الرؤوس ومنتعلون نعالاً لا تغطي الكعب ولا ظهر القدم وما داموا محرمين لا يحل لهم صيد الوحش ولا الطير[١] لكن يحل لهم صيد السمك[٢] وهم يبالغون في الوسوسة وقوفاً عند هذا النهي حتى ان احدهم ليتورع عن قتل ما لعله يجده على بدنه من قمل او براغيث . وقد احل لهم في الاحرام قتل ما يؤذي من الحيوان كالغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور[٣] ويجب عليهم ما داموا محرمين ان يكفوا السنتهم وجوارحهم عما نهوا عنه من الجدال والمراء والفسوق والرفث[٤] اي مباشرة النساء ويفرغوا قلوبهم لقضاء الفرض الذي لاجله قدموا

فاذا بلغوا مكة فاول ما يفعلونه هو انهم يزورون المسجد الحرام ثم يشرعون في قضاء المناسك المأمور بقضائها وهو

---

(١) المائدة : ٩٦ (٢) المائدة : ٩٧

(٣) «لما جاء في الصحيحين من الحديث وانظر تفسير البيضاوي على الايات المتقدمة» (٤) سورة البقرة : ١٩٣

الطواف بالكعبة والسعي بين الصفا والمروة والوقوف في عرفات ونحر الهدي في وادي منى وحلق الرؤوس وهـذه المناسك قد امعن غيري في وصفها تفصيلا حتى لعلي اعذر اذا لم اذكر من رسومها الا ما كان مهماً

اما الطواف فهو سبعة اشواط يبدأون بها من الركن العراقي من الكعبة وهو الركن الذي فيه الحجر الاسود كما علمت ويكون طوافهم رملا في الاشواط الثلاثة الاولى ومشياً فيما بقي قالوا امرهم محمد بذلك لتظهر عليهم الجلادة والقوة قطعاً لطمع الكفار الذين كانوا يقولون نهكتهم حمى يثرب وكلما مروا في طوافهم بالحجر الاسود قبلوه التزاماً او استلاماً

اما السعي بين الصفا والمروة فسبعة اشواط ايضاً وهو في الاشواط الاولى مشيٌ فاذا بلغوا بطن الوادي بين الميلين الاخضرين هرولوا ثم عادوا الى المشي وهم في ذلك يلتفتون الى الوراء تارة وتارة يقفون وقوف من يطلب شيئاً ضاع منه ممثلين بذلك فعل هاجر اذ كانت تطلب الماء لابنها لانهم يعتقدون ان هذا السعي من الشعائر القديمة وانه من عهد هاجر في القدم

فاذا صلوا الفجر في التاسع من ذي الحجة نفروا من وادي منىً الى عرفات فوقفوا فيه يقضون مناسكهم [1] حتى اذا آذنت الشمس بالغروب افاضوا منه الى المزدلفة وهي مصلى بين منىً وعرفات فاحيوا هناك ليلهم دعاء وتلاوة فاذا لاح الفجر زاروا المشعر الحرام [2] وافاضوا منه قبل الشروق عائدين الى منىً عن طريق وادي محسر فاذا بلغوه رموا بسبع من حصى الرجم [3] على ثلاث جمرات تشبهاً بابرهيم حين عرض له ابليس في ذلك الموضع فيما زعموا ليدخل على حجه شبهةً او يفتنه بمعصية وقد همّ ان يذبح ابنه ضحية فامره الله ان يرجمه اخزاءً له [4] وفيهم مع ذلك من يزعم ان هذا الشعار قديم من عهد آدم فانه اخزى ابليس رجماً في هذا الموضع كما قيل عن ابرهيم [5]

فاذا فرغوا من الرجم نحروا هديهم في وادي منى في يومهم ذلك وهو عاشر ذي الحجة فاكلوا منه واطعموا اصحابهم واخوانهم وتصدقوا بباقيه على الفقراء (ويشترط في الهدي ان

---

[1] سورة البقرة : ١٩٤ [2] سورة البقرة : ١٩٤

[3] وذكر الغزالي سبعين حصاة يرمون بها في مواضع واوقات مختلفة

[4] الغزالي واحمد بن يوسف [5] ابن الاثير

يكون من ذكور الضان او المعز او من اناث البقر او الابل بسن معلومة) ثم حلقوا رؤوسهم وقلموا اظافرهم وطرحوا القلامة في موضعهم ذلك وبانقضاء هذه الشعائر تكون مناسك الحج قد قضيت[1] لكنهم مع ذلك يطوفون بالكعبة ثانية للوداع وهذا ما يدعى بطواف الصدر

واعلم ان المسلمين انفسهم يقرون بان هذه الرسوم والشعائر ولا سيما الطواف والسعي ورمي الحصى هي عين ما كانت عليه عرب الجاهلية قبل مبعث محمد يقرون وبان محمداً اقرها بعد ان غير فيها ما مست الحاجة الى تغييره كامره اياهم ان يتستروا بالثياب اذا طافوا بالبيت[2] وكانوا قبله يطوفون عراة مطرحين الثياب اشارة الى انهم قد اطرحوا الآثام[3] او الى ان هذه الثياب آية عصيانهم لله[4]

وكذلك يقرون بان تردد السعي ورمي الجمار وامثال هذه الاعمال لا حظ للنفوس ولا انس للطبع فيها ولا اهتداء للعقل

---

[1] سورة البقرة : ١٩٦ [2] سورة الاعراف :٢٥

[3] الفائق . وقابل هذا بما ورد في نبوة اشعياء ٦٤:٦

[4] انظر تفسير الجلالين والبيضاوي على سورة الاعراف : ٢٥

الى معانيها فليس في الاقدام عليها باعث الا امر مجرد وقصد الامتثال للامر من حيث انه امر واجب الاتباع فقط[١] وان اكثر ما في الحج من المناسك امتحان وابتلاء للعبد بامتثاله ما شرع له[٢] وقد حاول بعضهم مع ذلك ان يجعل وجهاً مقبولاً لامثال هذه الفرائض التي لا تعد الا ضرباً من التحكم فزعم احد مصنفيهم وهو ابو جعفر بن طفيل انه يجب على الناس ان يتقيلوا الاجرام السماوية اي يتشبهوا بها لا في طهارتها فقط بل في استدارة سيرها ايضاً[٣] وكأنه رام بذلك ان يجعل الطواف بالكعبة ضرباً من الرياضة العقلية

وذكر احد علماء الافرنج ان قدماء الروم كان لهم عادة مثل هذه في عبادتهم وذلك ان زعيمهم وحبرهم نوما امرهم اذا سجدوا لآلهتهم وعبدوها ان يدوروا دوراناً ليمثلوا بذلك دوران الافلاك او ليشعروا بان صلاتهم باسرها موجهة الى الاله صانع العالمين او تلميحاً الى الدواليب المصرية التي كانت قدماء المصريين ينقشونها على الحجر وهي عندهم رمز الى تقلب حظوظ الناس ولعل من تأمل فيما وصفناه من رسوم الحج وجد فيها

---

(١) الغزالي (٢) ابن العبري (٣) رسالة حي بن يقظان

مجالاً للتفنيد اكثر من كل ما وضعه محمد من فروض العبادات وذلك انها فضلا عما يرى فيها من السخف ليست الا بقية من بقايا العبادة الوثنية ورسومها الباطلة [١] لكنك مع ذلك اذا تأملت في الصعوبة التي يصادفها من تصدى لنقل الناس طوعاً لا كرهاً عما ألفوه من قديم عاداتهم مهما كانت مباينة لمقتضى العقل ولا سيما اذا كان لطائفة كبيرة منهم مصلحة في استمرارها وانعمت النظر ايضا في ان تغيير عدة اشياء صغيرة هو اقرب منالا على من يزاوله من تغيير شيء واحد ذي بال فلا يسعك الا ان تعذر محمداً على تساهله فيما لا يهم ليفوز بمراده فيما يهم فقد كانت العرب ولا سيما اهل مكة منهم يبالغون في تعظيم الكعبة [٢] اذ كان لهم في ذلك مصلحة ولما كان اخس الاشياء واقلها طائلا اعزها واكرمها في الغالب على اصحاب المعتقدات

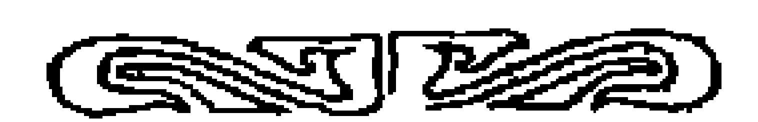
---

[١] قال ابن ميمون ان من الاقدمين قوماً كانوا اذا صلوا الى عطارد رموا بالحجارة وقوماً اذا صلوا الى معبودهم خوش كشفوا رؤسهم وتردوا بثياب غير مخيطة . قال المعرب وكذلك النصارى اذا صلوا كشفوا رؤسهم والافرنج منهم يكشفون رؤوسهم لمن يريدون تجيله

[٢] الا قبيلتي طي وخثعم وبعض بني الحارث بن كعب فقد قال الشهرستاني انهم لم يكونوا يحجون البيت

الباطلة واشدها حرمة لديهم وجد محمد ان ابطال الوثنية نفسها اسهل عليه من ابطال ما الفته العرب من رسومها وشعائرها التي كانوا يقيمونها في الكعبة ويغلون فيها اشد الغلو فلما عجز عن ردهم عنها بعد ان حاول ذلك مراراً وجد الاصلح ان يوافقهم عليها فاباح لهم حج البيت واتخاذه قبلة لصلاتهم حتى لا يبطل الامر الذي كان يتوخاه كله وقنع منهم بان يصرفوا عن آلهتهم واصنامهم ما كانوا يقضونه ثم من المناسك ويوجهوها الى الاله الحق بعد ان غير من رسومها ما رآه معيباً . وانما نسج في ذلك على منوال من تقدمه من كبار اصحاب الشرائع فانهم لم يضعوا من الشرائع احسنها في حد نفسها بل احسن ما كانت امة كل واحد منهم تقدر عليه حتى ان الله نفسه قد تساهل هذا التساهل بعينه مع اليهود ملاينا لهم ومجاريا اياهم في غلظ قلوبهم فاعطاهم فرائض غير صالحة واحكاماً لا يحيون بها [١]

[١] نبوة حزقيال ٢٠:٢٥



الفصل الخامس

في بعض نواهي القرآن

اذ قد بحثت في الفصل السابق عن اصول الاسلام ما يتعلق منها بالايمان وما يتعلق منها بالدين اي قضاياه النظرية والعملية قصرت هذا الفصل والفصلين اللذين بعده على البحث بعبارة موجزة عن اهم ما جاء به القرآن من الاحكام والفروض الفرعية متخيراً من ذلك ما هو اجدر بالبحث عنه والتنبيه اليه وليكن كلامي اولا فيما نهى عنه القرآن

فمن ذلك الخمر ويندرج في حكمها كل المسكر [١] وقد حرّم القرآن شربها في عدة مواضع [٢] وزعم بعضهم انه انما حرم الافراط في شربها لكنه بالاقتصاد مباح في موضعين منه [٣] الا ان المذهب الغالب هو ان شرب المسكر كثر ام

---

[١] «وفي الصحيحين كل مسكر خمر وكل مسكر حرام وكل شراب اسكر فهو حرام» [٢] سورة البقرة :٢١٦ وسورة النساء :٤٦ وسورة المائدة :٩٢ [٣] سورة البقرة :٢١٦ والنحل :٦٩ بحسب ما فسر ذلك بعض الصحابة وقال البيضاوي في تفسير الاولى من هاتين الآيتين روي انه قد نزل بمكة قوله تعالى ومن ثمرات النخيل الخ

قل محرم على الاطلاق . نعم ان فساق المسلمين لا يقفون عند هذا النهي بل يشربون المسكرات ولا يبالون بالتحريم ولكن ورعيهم ولا سيما من حج منهم يرون شربها بل عصرها وبيعها والانفاق من ثمنها حراماً . اما الفرس والترك فهم مولعون بها فان قيل لهم كيف يقدمون على شربها وقد حرمها دينهم بنص صريح قالوا ان الامر عندهم كما هو عند النصارى فالنصارى قد حرم عليهم دينهم السكر والزنى وهما فيه من الكبائر وفيهم مع ذلك من يباهي بارتكاب الفاحشة من المخدرات والمحصنات ومن يفتخر بادمان السكر اما قهوة البن فقد تنازعوا في هل هي داخلة في حكم هذا التحريم فحللها قوم[١] وحرمها آخرون لما في ابخرتها من التأثير في المخيلة . واول ما شربت القهوة في

(النحل:٦٩) فاخذ المسلمون يشربونها ثم استفتاه بعضهم فيها فانها مذهبة للعقل فنزلت هذه الآية (اي ٢١٦ من البقرة) فشربها قوم وتركها آخرون

[١] ومنهم عبد القادر محمد الانصاري كتب في حلها رسالة «ومنهم الشيخ الاكبر وهو الذي يقول فيها

قهوة البن حلال ما نهى الناهون عنها
كيف تدعوها حراماً وانا اشرب منها»

عدن من بلاد اليمن وذلك في اواسط القرن التاسع من الهجرة ثم سرت عادة شربها شيئاً فشيئاً الى مكة والمدينة ومصر والشام والى غير ذلك من بلاد المشرق ونشأ عنها مشاحات وهرج اذ كانت تحرم تارة وتحلل اخرى وهي في ايامنا هذه مغضى عنها اذا لم نقل مباحة وكذلك الدخان المعروف بالتبغ لكن الورعين منهم يتحرجون من التبغ لا لما فيه من فعل التخدير فقط بل لحديث يزعمون انه جاء فيه ايضاً وهو حديث لو امكن اثباته لمحمد لكان برهاناً على انه نبي حقاً وفيه يقال ما معناه انه سيكون في آخر الزمان قوم يدعون مسلمين وليسوا من الاسلام في شيء يدخنون ضريساً او نباتاً يقال له تبغ . ومهما يكن من هذا فاهل المشرق مولعون بقهوة البن وبالتبغ جداً حتى انهم يقولون فنجان قهوة وقصبة تبغ ولمة تامة وجاء في امثال الفرس القهوة بلا تبغ كالطعام بلا ملح

وكذلك الافيون والبنج [١] قد حرمهما الورعون من المسلمين لانهما يذهبان العقل ويفعلان فيه فعل الخمر بل اشد

---

[١] الافيون معروف اما البنج فشيء يؤخذ من ورق القنب ويصنع حبوباً او لعوقاً

فحرّموها وان لم يذكرها القرآن وفي المسلمين مع ذلك من يتعاطاها الا انه يعد فاسقاً فاجراً

وقد كثرت الاقاويل في الاسباب التي بعثت محمداً على تحريم الخمر الا ان اصح الاسباب هو ما صرح به القرآن وهو ان اثمها اكبر من نفعها[1] اذ كان اكثر ما ينشأ عن شربها وقوع العداوة والبغضاء بين الناس وصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة[2] وانما حظر شرع اللاويين شرب الخمر والمسكر على الكهنة اذا دخلوا خيمة الاجتماع[3] لاجل هذه الاسباب عينها وهي التي حملت النذيرين[4] وبني بيت الركابيين[5] وغيرهم من ديني اليهود والنصارى الاولين[6] على الامساك عن شربها بتة بل ان طائفة من النصارى الاولين نهت عن شربها وعدته من الكبائر فان كان محمد لم يقتد في تحريمها عن ذكرنا فلا اقل من ان يكون قد اقتدى في تحريمها بمثال الاتقياء من رجال قبيلته

(١) سورة البقرة ٢:١٦ (٢) سورة المائدة ٩٢:٠ وانظر ايضاً سفر الامثال ٢٣:٢٩—٣٢ (٣) سفر اللاويين ١٠:٩ (٤) سفر العدد ٦:٢ (٥) ارميا ٣٥:٥ (٦) وهم الذين دعوا بالمائيين نسبة الى الماء لانهم لم يبيحوا شراباً غيره

اذ كان فيهم من حرمها على نفسه [١]

والآيات التي حرمت فيها الخمر حرم فيها الميسر ايضاً لتلك الاسباب عينها والميسر ضرب من الاقتراع بالقداح كثيراً ما كانت العرب تستعمله في الجاهلية وكانت طريقتهم فيه ان يجتمع سبعة منهم ويشتروا جزوراً وينحروه ويقسموه عشرة اقسام او ثمانية وعشرين قسماً ثم انهم يأتون باحد عشر قدحاً وهي سهام بلا سنان ولا ريش فيسمون منها سبعة اولها بنصيب وثانيها بنصيبين وهكذا الى السابع ويتركون الاربعة الباقية غفلا [٢] ثم يخلطونها معاً في خريطة ويأتي عدل فيجيلها ويخرجها من الخريطة ويناولها لاجنبي يكون الى جانبه حتى لا يحيف فمن خرج له قدح من ذوات الانصباء اخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح ومن خرج له قدح من الغفل لم يأخذ شيئاً من الجزور بل غرم الثمن الا ان الفائزين كانوا كالخائبين الغارمين لا يأكلون منه شيئاً بل يوزعونه كله بين الفقراء لانهم انما كانوا ييسرون فخراً ومباهاة وكان الرجل منهم يأنف

(١) «انظر المستطرف باب ٧٤» (٢) لم يذكر الزمخشري سوى عشرة قداح سبعة منها موسومة وثلاثة غفل

ان يتزل الياسرين ولا يخاطر بشيء من ماله في مثل هـذه الغاية[١] ومع ما في هذه العادة من النفع للفقراء واللهو للاغنياء فقد حرمها محمد لان ضررها اكبر من نفعها وذلك انها منشأ الشحناء التي تسببها شماتة القامرين بالمقمورين

وقد اجمع المفسرون على ان الميسر يندرج تحته ويدخل في حكم تحريمه كل انواع القمار وكل لعب موقوف على البخت والاتفاق كالنرد والورق وغيرهما فكل ذلك هو من الخسة عندهم بمكان حتى ان المتصاعبين منهم يردون شهادة من يلعب به ولا يكاد علماؤهم يبيحون شيئاً من اللعب غير الشطرنج لانه موقوف على المهارة ومزاولة الخصم لا على البخت والاتفاق وقد ارتاب بعضهم مع ذلك في جوازه على ان من اجازه منهم لا يجيزه الا بشرط ان لا يشغل اللاعبين به عن قضاء فروض دينهم وان لا يكون فيه مراهنة اي مقامرة والسنية والترك منهم يحرصون على الوقوف عند هـذا الشرط خلافاً للفرس

---

[١] وكانوا يسمونه برما على ما ذكره صاحب نظم الدر والزمخشري والفيروزابادي والشيرازي في شرح الخطب النباتيـة والحريري والبيضاوي وغيرهم

والمغول . اما ما كان محمد يكرهه من الشطرنج فهو على ما يظنه بعضهم القطع المصورة التي كانت العرب تلعب بها لأنها كانت على صور الرجال والفيلة والخيل والابل وقال بعض المفسرين ان هذه الصور هي الانصاب التي حرمها القرآن في احدى الآيات التي اشرنا اليها[1] اما ما قلناه من ان العرب كانت تلعب بقطع مصورة في عصر محمد فيدل عليه ما يروى عن علي بن ابي طالب انه مر بقوم يلعبون بالشطرنج فقال لهم ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون[2] ولم يكن رآها قبل ذلك اذ ان الشطرنج لم يعرف في بلاد العرب الا وقتئذ بل ان دخوله من الهند الى بلاد الفرس لم يكن قبل ذلك بكثير فانه اول ما عرف فيها على عهد انوشروان العادل وهو الذي ولد محمد في ايامه فاستنتج من ذلك علماء المسلمين انه لم يكره الا من اجل هذه الصور ولذا لا يلعب السنية الا بقطع من الخشب او العاج بسيطة غير مصورة اما الفرس واهل الهند الذين ليس عندهم ما عند السنية من الوسوسة فيلعبون بقطع مصورة

والمسلمون اكثر وقوفاً عند تحريم القمار منهم عند تحريم

---

(١) سورة المائدة : ٩٢ (٢) سكيكر الدمشقي وصاحب المستطرف

الخمر. نعم ان كثيراً من عوام الترك وبعض عوام الفرس مولعون بالقمار الا ان اماثلهم قلما يقامرون

على ان القمار او الافراط فيه قد نهي عنه في كل البلاد التي انتظمت سياستها فكانت بيوته تعد عند اليونان مواخير وبيوت ريبة وكان ارسطوطاليس ينزل المقامر منزلة السارق. اما الرومانيون فقد حظر مشايخهم كل لعب فيه مخاطرة وسنوا لذلك سنناً يقام الحد على من يخالفها ولم يبيحوه الا في المواسم الا ان العامة كانوا مع ذلك يقامرون في غير ايام المواسم ولا يبالون بالحظر. وكذلك نهى شرعهم المدني عن سائر الالعاب المضرة كما جاء في مجلة يستنيانوس وحظر على ارباب الدين ان يلعبوا بالنرد اذ هو من الالعاب الموقوفة على الاتفاق بل نهاهم عن النظر الى اللعب به وان كان قد ابيح للعامة ان يلعبوا به على الدراهم في بعض الاحوال بشرط ان لا يسرقوا. وقد رأى بعض فقهائهم ان الشطرنج غير داخل في حكم الالعاب المنهي عنها لانه غير موقوف على البخت او الاتفاق ولذلك قالوا بجوازه لارباب الدين ولا سيما انه لم يكن معروفاً يومئذ في المملكة كلها بل كان منحصراً في القسم منها فقط ولم يبلغ القسم

الغربي منها بعد الشرح لحدثان العهد به في ذلك العصر اذ لم يستنبط الا على عهد يستنيانوس المتقدم ذكره اي في اواسط القرن السادس للميلاد ومع ذلك فرهبان ذلك العصر لم يكن يباح لهم شيءٌ من الالعاب ولا الشطرنج

وكذلك اليهود الذين هم قدوة محمد ومرشدوه فقد كان القمار عندهم من المنكرات حتى اوجب تلمودهم تعزير المقامر وقال ان شهادته لا تقبل

وقد حرم القرآن ايضاً في احدى الآيات التي اشرنا اليها عادة اخرى كانت عليها عرب الجاهلية وهي الازلام اي الاستقسام بسهام لا ريش لها كسهام الميسر كانوا يحفظونها في بيت من بيوت اصنامهم ويستخيرون بها عند الصنم وكان سبعة منها في الكعبة[1] لكنهم كانوا اكثر ما يستخيرون بثلاثة فقط فكانوا اذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة سهام مكتوباً على احدها امرني ربي وعلى الثاني نهاني ربي وتركو الثالث غفلا ووضعوها في خريطة فاذا اراد احدهم سفراً او حاجة ادخل يده في تلك الخريطة واخرج منها سهماً فان كان الامر مضى على حاجته

[1] كما مر في الفصل الاول

وان كان الناهي كف فان كان النفل عاودها ثانية حتى يخرج احد السهمين المكتوبين وكان هذا دأبهم قبل الاقدام على مهم من الامور كالنكاح والسفر وما اشبه ذلك[١] وهـذه العقيدة الباطلة اي الاستقسام بالسهام كانت فاشية في قدماء اليونان وغيرهم من الامم وقد ذكرت في التوراة بصريح العبارة[٢] حيث قيل عن ملك بابل انه وقف على ام الطريق على رأس الطريقين ليعرف عرافة . فصقل السهام وسأل بالترافيم[٣] ونظر الى الكبد . وفسر القديس ايرونيموس هـذا الموضع بما يوافق ما يروى عن عادة العرب موافقة تقضي بالعجب فقال يقف (اي ملك بابل) على الطريق الاعظم ويشاور الكاهن على طريقة قومه حتى يلقي السهام في الخريطة وقد وسمت باسم امة امة ويجيلها لكي يرى اي امة يخرج سهمها واي مدينة ينبغي ان يهاجمها اولا

اما التمييز بين الاطعمة فامر شائع في امم المشرق قاطبة

---

[١] ابن الاثير وصاحب المستطرف والزمخشري في تفسير الآية ٤ من سورة المائدة [٢] نبوة حزقيال ٢١:٢١ [٣] جاء في الترجمة العامية خلط السهام وسأل من الاصنام ولعله اوجه في هذا الموطن

فلا غرو ان يضع له محمد بعض قوانين ويقرر له بعض قواعد فمن هـذه القوانين والقواعد ما جاء في القرآن من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع[١] وانما اقتفى محمد في هـذا كله آثار اليهود ناسجاً على منوالهم فان شرع اليهود قد حرم عليهم هذه الاشياء كما هو معلوم الا ان محمداً اباح اكل اشياء هي في شرع موسى محرمة[٢] ولاسيما لحم الجمل[٣] وقد وافق شرع المسلمين ما نص عليه علماء اليهود من انه يباح تناول اي كان من هذه اللحوم اذا مست الحاجة اي اذا كان الرجل في خطر من الهلاك جوعاً ولم يجد غيرها لسد رمقه[٤] ومع ان الدم والميتة تعافهما النفس طبعاً فبعض عرب الجاهلية كان يأكلهما وسترى بعيد هذا شواهد اكلهم الميتة. اما الدم فكانوا يفصدون الناقة ويستفرغون شيئاً من دمها في معى ثم يشدون رأسه

---

[١] البقرة : ١٦٨ والمائدة : ٤ والانعام ١٢١ و١٤٦ والنحل : ١١٦

[٢] سفر اللاويين ١١ : ٤ والتثنية ١٤ : ٧ [٣] الانعام : ١١٩ و١٤٥ وانظر ايضاً آل عمران : ٨٧ وتفسير البيضاوي [٤] سورة البقرة : ١٦٨ وسائر آيات التحريم المشار اليها في عدد ٢

فيشوونه او يعالجونه بالسلق ثم يأكلونه ويدعى هـذا الطعام بالمسود من اسوداده

اما اكل ما أهل به لغير الله اي ما ذبح للاصنام فارى انه عادة شائعة لكل عبدة الاوثان ينزلونه منزلة ما يعرف عند النصارى بسر الشركة او تناول القربان ولهذه العلة عدة النصارى مدعاة الى الشك ومعثرة للضعفاء ان لم يكن حراما على الاطلاق [١] الا ان العرب كانوا شديدي التمسك بهذه العادة حتى انهم كانوا لا يذبحون ما اعدوه لطعامهم الا على حجارة نصبت لهذه الغاية حول الكعبة او بالقرب من دورهم وكانوا عند الذبح يدعون باسم واحد من اصنامهم فيقولون باسم اللات او باسم العزى.[٢]

اما لحم الخنزير فلم يكن متقدمو العرب يأكلونه ولم يفعل محمد في تحريمه سوى اقرار ما كانت عليه الامة من الكراهة له. قال بعض العلماء من الاجانب كان العرب يمتنعون بالكلية

---

[١] اعمال الرسل ١٥: ٢٩ والرسالة الاولى الى كورنثوس ص٨

[٢] كما ذكر البيضاوي في تفسير الآية ٤ من المائدة

عن اكل لحم الخنزير ويعدون الاغتذاء به حراماً [١] ولا يكاد هذا الحيوان يوجد في بلادهم اذ ليس له فيها غذاء يلائمه [٢] ولذلك قال آخر انه لو حمل خنزيراً الى بلاد العرب لمات بعد قليل !

اما الربا فقد اتبع محمد في تحريمه [٣] اليهود الذين حرم شرعهم ان يقرض احدهم فضته بالربا لابن دينه على انهم شر الناس شهرة في هذا الامر مع غير بني دينهم اما نبي المسلمين فلم يميز في تحريم الربا بين احد من الناس وغيره

وهنالك عادات كثيرة تفردت بها العرب في الانعام وابطلها محمد فقد ورد في القرآن ذكر اربعة اسماء [٤] كانوا يسمون بها بعض الابل والشاء التي كانوا لسبب من الاسباب الآتي ذكرها يسيبونها ولا ينتفعون بها انتفاعهم بغيرها من نوعها وهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي

فالبحيرة ناقة او شاة كانوا اذا نتجت عشرة ابطن بحروها اي شقوا اذنها وتركوها ترعى واذا ماتت حرموا لحمها على

---

[١] و [٢] تعريب ما قاله ايرونيموس في موضعين

[٣] البقرة: ٢٦٧ الى ٢٨٩ وآل عمران: ١٢٥ [٤] المائدة: ١٠٢

نسائهم واكله الرجال فقط . وانما دعيت بحيرة من البحر وهو شق الاذن . او هي ناقة خليت بلا راع او هي التي اذا نتجت خمسة ابطن والخامس ذكر ذبحوه فاكله الرجال والنساء جميعاً وان كانت انثى بحروا اذنها وخلوها ترعى حيث شاءت وكان حراماً لحمها ولبنها وركوبها فاذا ماتت حل اكل لحمها للنساء او هي ابنة السائبة وحكمها حكم امها كما سيأتي او هي في الشاء خاصة او هي شاة نتجت خمسة ابطن فبحرت ولا يستوعب هذا كل ما قيل في البحيرة فقد قيل فيها ايضاً انها ناقة اذا نتجت خمسة ابطن آخرها ذكر بحروا اذنها وخلوا سبيلها فلم تركب ولم تحلب ولم تمنع من كلاء ولا ماء وكذلك عرفت بانها ناقة اذا نتجت نحروا سقبها وهو ولدها وقالوا اللهم ان عاش فقني وان مات فذكي فاذا مات اكلوا لحمه[١]

والسائبة ناقة اذا نتجت عشرة ابطن كلهن اناث سيبت او كانت تسيب لنذر ونحوه فكان الرجل اذا ابل من مرض او قدم من سفر بعيد او نجت دابته من مشقة او حرب قال

---

[١] انظر الكشاف وانوار التنزيل والمستطرف والقاموس والصحاح ومصنفات ابن الاثير

هي سائبة وكان ينزع من ظهرها فقارة ثم لا تمنع بعد ذلك عن كلاء ولا ماء ولا تركب او هي ناقة اذا ولدت عشرة ابطن كلهن اناث سيبت فلا تركب ولا يشرب لبنها غير ولدها او الضيف حتى تموت فاذا ماتت اكل لحمها الرجال والنساء جميعاً وبحرت ابنتها الاخيرة فسميت البحيرة وسيبت كامها كما تقدم. وليس هذا الاسم خاصاً بالنوق وحدها بل كان يسمى به ذكر الابل ايضاً اذا ادرك نتاج نتاجه وهو كذلك اسم للعبد يعتق على ان لا ولاء له[1] وقال بعضهم يراد بالسائبة كل دابة جعلتها العرب للاصنام وحرمتها الا على النساء[2]

اما الوصيلة فقد عرفها احد المصنفين[3] بانها الناقة التي وصلت بين عشرة ابطن ومن الشاء التي وصلت بين سبعة ابطن عناقين عناقين فان ولدت في السابعة عناقاً وجدياً قيل وصلت اخاها فلا يشرب لبن الام الا الرجال دون النساء وتجري مجرى السائبة. او هي الشاة خاصة[4] كانت اذا ولدت انثى فهي لهم واذا ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم وان ولدت ذكراً وانثى قالوا

---

[1] ابن الاثير [2] القاموس والكشاف [3] الفيروزابادي

[4] قوله خاصة يخرج المعزي ويقصر المعنى على الغنم

وصلت اخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم او هي شاة تلد ذكراً ثم انثى فتصل اخاها فلا يذبحونه من اجلها واذا ولدت ذكراً قالوا هذا قربان لآلهتنا

وعرفها غيره[1] بانها الشاة تلد سبعة ابطن عناقين عناقين فان ولدت في الثامنة جدياً ذبحوه لآلهتهم وان ولدت جدياً وعناقاً قالوا وصلت اخاها فلا يذبحون اخاها من اجلها ولا يشرب لبنها النساء. وقال آخر ما معناه انها شاة وصلت بين سبعة ابطن فان ولدت في السابع جدياً ذبحوه لآلهتهم وان ولدت عناقاً سيبوها فصارت للنساء دون الرجال وان ولدت جدياً وعناقاً حرما كلاهما الا على الرجال ولم يشرب من لبن العناق وهي الانثى غيرهم[2] وقيل هي شاة ولدت عشر اناث في خمسة ابطن متواليات متئماً فيهن فما ولدت بعد ذلك كان للرجال دون النساء الى غير ذلك من التعاريف

اما الحامي فهو الفحل من الابل تنتج من صلبه عشرة ابطن ثم هو حام حمى ظهره فلا ينتفع منه بشيء ولا يمنع من ماء ولا مرعى ولا يركب ولا يجز له وبر

---

(1) الجوهري (2) المطرزي

فما تقدم هو من جملة ما ابتدعته العرب من العادات تعظيماً لطواغيتهم وتعبداً بها لهم ونسبوا وضعها الى الله فرد القرآن ذلك وانكره ودعاه كذباً مفترى[1]

وكذلك ابطل شرع محمد عادة فظة كانت عليها العرب منذ القديم وهي وأد البنات مخافة الاملاق او لحوق العار بهم من اجلهن[2] ان سبين او فجرن فكان احدهم اذا بشر بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم[3] وكانوا لذلك يعدون دفن البنات من المكرمات[4] وقد اختلف في كيفية الوأد فقال بعضهم كان الرجل اذا ولدت له بنت فاراد ان يستحييها البسها جبة من صوف او شعر وارسلها ترعى له الابل والغنم في البادية وان اراد قتلها تركها حتى اذ كانت سداسية يقول لامها طيبيها وزينيها حتى اذهب بها الى احمائها وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالارض وقال آخرون كانت الحامل اذا اقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة

(١) المائدة: ١٠٢ والانعام ١٣٩ (٢) البيضاوي في تفسير سورة التكوير: ٨ (٣) سورة النحل: ٦٠ (٤) مجمع الامثال للميداني

فان ولدت بنتا رمت بها في الحفرة وان ولدت ابنا حبسته[1] فهذه العادة الفظة وان لم تعم العرب كلها فقد كان عليها كثير من قبائلهم ولا سيما قريش وكندة وثم جبل بالقرب من مكة يقال له دلامة كانت قريش تئد فيه البنات. وكان صعصعة وهو جد الفرزدق الشاعر المشهور كثيراً ما يفتدي البنات من الوأد كل بنت بناقتين عشراوين وجمل والى هذا اشار الفرزدق وقد فاخر رجلا عند بعض الخلفاء الامويين[2] فقال انا ابن محيي الموتى فانكر الرجل ذلك فقال الفرزدق ان الله يقول ومن احياها يعني المؤودة فكانما احيا الناس جميعا[3] واعلم هنا ان قتل الاولاد لم يكن مما تفردت به العرب دون غيرهم من الامم فقد كان عرض الاطفال وقتلهم عادة جارية عند القدماء ولذا لما رأى استرابون ان المصريين يستحيون كل اولادهم عد ذلك شيئاً خارقاً للعادة وقد نهى شرع اليونان عن استحياء الولد الا باذن بل ان الفقراء من اهل الصين كثيراً ما يقتلون اولادهم

---

(١) الزمخشري في تفسير سورة التكوير:٨ (٢) ابن خلقان . قال المعرب وفي ذلك يقول الفرزدق ومنا الذي منع الوائدات فاحيا الوئيد فلم توأد (٣) المائدة :٣٥

ولا سيما البنات في يومنا هذا[١] على ما يقال ولا يخشون تبعة

وقد نهى القرآن عن هذه العادة الفظيعة اعني وأد البنات في مواضع متعددة[٢] اما قوله في احد هذه المواضع وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم فقسره بعضهم بانه نهي عن عادة اخرى من عادات العرب ليست في فظاظتها وفشوها فيهم وفي غيرهم من الاقدمين دون الوأد وهي عادة ذبح الاولاد للآلهة كما كانوا يفعلون كثيراً وخاصة للوفاء بنذر فكان الرجل منهم يحلف لئن ولد له كذا غلاماً ليذبحن احدهم . وكذا ابطل محمد عادات أخر كثيرة كانت شائعة عند العرب منشأها من العقائد الكاذبة لكني اضرب صفحاً عن ذكرها هنا اما لانها ليست بذات بال فلم ينبه عليها القرآن او لاني ذكرتها استطراداً في مواضع اخرى[٣]

---

[١] «اي في عصر المؤلف» [٢] سورة الانعام :١٣٨ — ١٥٢ وسورة النحل :٦١ وسورة الاسرى :٣٣ وسورة التكوير :٨

[٣] اي في حواشي الترجمة . قال المعرب وقد اورد صاحب صبح الاعشى جملة شافية من عادات العرب واجدرها بالتنبيه عليها عادة دفن الذنوب وهي بمنزلة ما يدعى عند النصارى بغفران الخطايا لمن يعترف بها فمن احب الوقوف على عادات العرب بالتفصيل فعليه بالكتاب المذكور

الفصل السادس

في شرح القرآن المدني اي فيما شرعه في المعاملات

قد بني شرع المسلمين في المعاملات على اوامر القرآن واحكامه مثلما بني شرع اليهود على اوامر التوراة اي اسفار موسى الخمسة واحكامها الا ان فقهاء المسلمين ولا سيما الائمة الاربعة الكبار وهم ابو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل قد ذهبوا في تأويل نصوص القرآن واحكامه مذاهب شتى واختلفت فتاويهم فيها حتى صار التصدي للكلام في هذا الشرع بالاسهاب والتفصيل اللذين يستحقهما لما في هذا الموضوع من الطائل والغرابة يستلزم تأليف كتاب ضخم ولا تتسع له هذه المقالة ولذا فغاية ما ينتظر منا فيها إنما هو إيراد خلاصة تحيط بالمهم من اصول هذا الشرع اجمالاً لا تفصيلاً واول ما نبدأ به اوامر القرآن واحكامه المتعلقة بالنكاح والطلاق فنقول

كل يعلم ان القرآن يبيح تعدد الزوجات للرجل الواحد وقد مر بك في الفصل الثاني من هذه المقالة ما لعلماء المسلمين

من الحجج على ان ذلك جائز غير مناف لناموس الآداب ولكن قل من يعلم ما لهذه الاباحة من الحدود . وقد توهم كثير من علمائنا ما توهمته العامة من ان محمداً اباح لامته ان ينكحوا ما طاب لهم من النساء عدداً غير محدد حتى قال واحد يحل للمسلم ان ينكح من الزوجات ما شاء وما استطاع ان يفي بحقوقهن وقال آخر في السراري ما قاله الاول في الحلائل وقد وهم كلاهما فانه لا يجوز للرجل بصريح عبارة القرآن ان يكون له منهن زيادة على اربع[1] حلائل كن او سراري فان خاف الا يعدل بين هـذا العدد من الحلائل فلا ينكحن سوى واحدة وهذه مشورة يتبعها كثير من المسلمين ولا سيما فقراؤهم واهل الطبقة الوسطى منهم فان لم يقنع بواحدة نكاحاً تسرى سفاحاً ولم يتجاوز الاربع[2] فهذا قصارى ما اباحه محمد لامته بنص صريح ولا يرد عليـه ما يأتيه اهل الفساد من المسلمين الذين اكثرهم ولا سيما ذوو الوجاهة واليسار منهم يفرطون في ذلك ويفحشون وكذلك لا يرد عليه فعل محمد نفسه لانه كان

---

[1] سورة النساء ٣:

[2] قال المعرب لا ادري من اين اخذ المصنف هذا

له في هذا الامر وغيره خصائص ليست لغيره كما سننبه عليه بعد هذا . وانما اقتدى محمد في تحديد عدد الزوجات بما قال به علماء اليهود فانهم قصروا عددهن على اربع وذلك بطريق المشورة اذ كان شرعهم لم يحدد عليهم عدداً[1]

اما الطلاق فمعلوم ايضاً ان شرع محمد قد اباحه مثلما اباحه شرع موسى وانما فرق ما بينهما ان شرع موسى لا يبيح لمن طلق زوجته ان يراجعها بعدما صارت لغيره بزواج او املاك[2] وان شرع محمد اباح لمن طلق زوجته ثلاثاً ان يراجعها ولكن بعد ان يكون قد نكحها آخر واصابها ثم طلقها[3] وقولنا ثلاثاً يخرج ما اذا طلقها اي قال لها انت طالق مرتين فقط ولم يثلث ثم ندم على فعله فلا يلزمه مفارقتها وانما الحكمة في هذا الشرط ردعهم عن التسرع الى الطلاق لاسباب غير راهنة او لملال عارض فحسنت آثار هذا الاحتراس حتى ان المسلمين قلما يقدمون على الطلاق بتاتاً مع كونه حلالاً لهم لانهم يحسبونه عاراً وقل فيهم من يرضى لنفسه ان يراجع مطلقته بالشرط

(١) ابن ميمون (٢) تثنية الاشتراع ٢٤: ٣ و ٤ ونبوة ارميا ٣: ٢
(٣) سورة البقرة : ٢٣٠

المطلوب اللهم الا قليل النخوة ساقط المروّة . ثم اعلم انه وان كان شرع محمد وشرع موسى[1] قد اباحا للرجل ان يطلق زوجته متى كره منها شيئاً الا انهما لم يبيحا للمرأة ان تفارق بعلها الا اذا اساء معاشرتها اي كان فظاً عنيفاً او اذا لم يف بحقها او هجر مضجعها او كان عنيناً او لغير ذلك من الاسباب الراهنة فاذا فارقته لسبب من هذه الاسباب لم تأخذ مهرها واذا طلقها هو اخذت مهرها وذلك الا اذا اتت بفاحشة مبينة كالنشوز وعدم التعفف[2] اي عدم الاحصان

وقد أوجب القرآن على المطلقة ان تتربص بنفسها ثلاثة قروء[3] اي ان تتربص حتى تحيض ثلاث دفعات فان كان هنالك شك من قبل سنها المحيض ام لا لم تنكح زوجاً آخر حتى يمضي على طلاقها ثلاثة أشهر[4] فاذا انقضت عدتها هذه ولم تكن حاملاً كان لها الخيرة من نفسها فان كانت حاملاً فأجلها اي منتهى عدتها ان تضع حملها ولها ما دامت معتدة ان تسكن حيث يسكن بعلها وعلى نفقته اذ كان القرآن قد نهى عن

---

(١) تثنية الاشتراع ٢٤:١ (٢) النساء:٢٣ (٣) سورة البقرة :٢٢٨
(٤) سورة الطلاق :٤

مضارتها في السكنى والجائها الى الخروج قبل انقضاء عدتها الا ان تأتي بفاحشة مبينة[١] فان طلق الرجل امرأته من قبل ان يمسها فما له عليها من عدة [٢] ولا لها عليه سوى نصف ما فرض لها من المهر[٣] فان كان للمطلقة ولد وجب ان ترضعه حولين كاملين وعلى المولود له رزقها وكسوتها بالمعروف[٤] وهذا ايضاً حكم التي مات زوجها الا انها تتربص بنفسها اربعة اشهر وعشراً اي لا تنكح بعلا ثانياً الا بعد مضي اربعة اشهر وعشر ليال على موت بعلها الاول[٥]

وهذه الاحكام قد اخذت عن اليهود ففي شرعهم لا يحل للمطلقة او للارملة ان تتزوجا ثانية قبل مضي تسعين يوماً على طلاق احداهما وموت بعل الاخرى والمرضعة منهما ينفق عليها عامين يحسبان من ولادة الولد وليس لها قبل انقضاء هذه المدة ان تتزوج ثانية الا ان يموت الرضيع او ينقطع لبانها

اما الزواني فقد كان عقابهن شديداً في صدر الاسلام

(١) سورة الطلاق: ١ الى ٦ (٢) سورة الاحزاب: ٤٧
(٣) سورة البقرة: ٢٣٨ (٤) سورة البقرة: ٢٣٣
(٥) سورة البقرة: ٢٣٤

وذلك انهم كانوا يحبسون الزانية حتى تموت [١] عزباً كانت او ذات بعل الا ان السنة بعد ذلك جعلت الرجم حد المحصنة اذا زنت والمحصنة هي ذات البعل [٢] فاذا ثبت الزنى على غير ذات البعل جلدت مائة وغربت حولاً كاملاً [٣] اما الامة فحدها اذا زنت نصف حد الحرة [٤] اي انها تجلد خمسين وتغرب ستة اشهر لكنها لا تقتل . ولا يثبت الزنى على المرأة ثبوتاً يستوجب الحد الا بشهادة اربعة رجال كما نص عليه القرآن [٥]. وبه قال المفسرون فاذا رمى رجل احدى المحصنات بالزنى ولم يأتي باربعة شهود لاثبات ما رماها به جلد ثمانين ولم تقبل له شهادة بعد ذلك ابداً [٦] اما زنى غير المحصنين فحده مائة جلدة بنص القرآن [٧] وسواء في ذلك الرجل والمرأة

واذا رمى الرجل زوجته بالزنى ولم يكن له شهود الا نفسه وحلف اربعاً انه لمن الصادقين والخامسة ان لعنة الله عليه ان

---

(١) سورة النساء : ١٩ (٢) وكذلك الزاني يرجم بحكم آية من القرآن منسوخة الحرف باقية الحكم كما مر بك في الفصل الثالث (انظر كتاب آية الرجم) (٣) سورة النور : ٢ (٤) سورة النساء : ٣٠

(٥) سورة النساء : ١٩ (٦) سورة النور : ٤ (٧) سورة النور : ٢

كان من الكاذبين ثبت الزنى على الزوجة فان حلفت هي اربعاً انه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين فذلك يدرأ عنها العذاب[1] اي يسقط عنها الحد لكن لا بد من الفرقة لان الزواج ينفسخ باللعان

وفي اكثر ما ذكرناه من حدود الزنى قد وافقت احكام القرآن احكام اليهود فقد اوجب شرع موسى حد القتل على الزانية وسواء في ذلك ذات البعل والعذراء المخطوبة كما اوجب حد القتل على من زنى بهما[2] اما زنى غير المحصنين فحده الجلد عند اليهود وهو القصاص الذي ألقوه في سائر الذنوب التي لم يعين لها حد باسمه وكانوا يقيمون هذا الحد نفسه على الامة المخطوبة اذا زنت لانها لما لم تكن حرة سقط عنها حد القتل[3] وكذلك لا يقتل احد في شرع موسى بشهادة شاهد واحد[4] ومن قذف زوجته جلد وغرم مئة من الفضة . تنبيه — قوله الجلد اصله في التوراة العقاب الا ان الاحبار واصحاب التلمود

---

[1] سورة النور ٦ الى ٩ وانظر ايضاً تفسيرها للبيضاوي

[2] سفر اللاويين ٢٠:١٠ والتثنية ٢٢:٢٢ [3] سفر اللاويين ١٩:٢٠ [4] التثنية ١٩:١٥ و١٧:٦ وسفر العدد ٣٥:٣٠

فسروه بالجلد ولما كانت التوراة لم تصرح بنوع الحد الذي يجب ان يقام على المحصن من الزناة اجمعوا على انه الخنق لانهم زعموا ان التوراة تعنيه كلما قالت يقتل او موتاً يموت اما الرجم فيزعمون ان التوراة تعنيه كلما قالت ودمه يكون عليه. واستنتجت من ذلك طائفة ان المرأة التي أخذت بالزنى (على ما جاء في انجيل يوحنا ص ٨) انما هي عذراء مخطوبة لورود النص الصريح (تثنية ٢٢: ٢٣و٢٤) برجم العذراء المخطوبة اذا زنت وبرجم من يزني بها لكن هذا غير مذهب الاقدمين فانهم ذهبوا الى ان الرجم حد الزاني كائناً ما كان» . ثم ان طريقة اليهود في محاكمة المرأة المتهمة بالزنى ولا شهود عليها بان تكره على شرب ماء اللعنة المر[1] وتقول بعد حلف اللعان آمين آمين[2] أشبه شيء بالحيلة التي فتقها محمد في هذه النازلة مما مر بيانه قريباً على ان اليهود قد عدلوا عن هذه الطريقة قبل عصر محمد بكثير

اما احكام محمد في اعتزال النساء اذا حضن[3] وفي نكاح

---

[1] و[2] سفر العدد ٥: ١١ الخ

[3] سورة البقرة: ٢٢٢.

الاماء[١] وتحريم الزواج بذوي القربى[٢] فهي كثيرة المشابهة لاحكام موسى[٣] وتوجد هذه المشابهة في اشياء كثيرة غير ما ذكرناه

وعلى ذكر تحريم التزوج بذوي القربى يحسن ان نقول ان عرب الجاهلية كانوا لا ينكحون الامهات ولا البنات ولا الخالات ولا العمات وكان اقبح شيء عندهم ان يجمع الرجل بين الاختين او يخلف على امرأة ابيه[٤] وكانوا يعيبون من يتزوج بامرأة ابيه ويسمونه الضيزن وعلى ما في ذلك من القبح فانهم كثيراً ما كانوا يفعلونه فنزل القرآن بتحريمه[٥]

وقبل ترك الكلام على ما نحن فيه من امر النكاح لا بأس ان ننبه على بعض خصائص متعلقة به زعم محمد ان الله خصه بها دون سائر المسلمين . فمن ذلك دعواه انه قد احل له ان ينكح من الحلائل ويتخذ من السراري ما شاء ولم يحدد عليه العدد كما حدد على غيره من المؤمنين وادعى ان هذا ما خص به الانبياء

(١) سورة النساء :٢٩ (٢) سورة النساء :٢٧ (٣) سفر اللاويين ١٥:٢٤ و١٨:١٩ و٢٠:١٨ وسفر الخروج ٢١:٨—١١ والتثنية ص ٢٠:١٠—١٤ . (٤) ابو الفداء والشهرستاني (٥) سورة النساء :٢٦ .

الذين جاءوا قبله . ومن تلك الخصائص ايضاً انه قد احل له
ان يبدل نوبات زوجاته ويؤوي اليه من شاء منهن من غير ان
يعدل بينهن في ذلك على خلاف ما يلزم سائر الازواج . ومنها
انه لم يكن يحل لاحد ان ينكح ازواجه من بعده ابداً[1]
وسواء في ذلك من يطلق منهن في حياته او من يذر منهن ارملة
بعد وفاته . وهذا يوافق ما حكم به الربانيون من اليهود في امر
ازواج ملوكهم وذلك انهم استقبحوا ان ينكح احد السوقة
مطلقة الملك او ارملته فحرموه . ولعل محمداً رأى ان المقام
النبوي يستحق من الحرمة والتوقير ما يستحقه المقام الملكي
فقضى على ارامله ان يقضين بقية عمرهن في تأيم لا انقطاع له .

اما شرائع القرآن في المواريث فتوافق شرائع اليهود
من عدة وجوه وان كان اول ما قصد في وضعها ابطال عادات
كانت عليها عرب الجاهلية من ظلم الارامل واليتامى في الميراث .
اذ كانوا كثيراً ما يحرمون الارامل حظهن من ميراث بعولتهن
واليتامى حظهم من ميراث ابائهم ويقولون انما يرث من يحارب
ويذب عن الحوزة وكانوا يتصرفون في الارامل تصرف

[1] سورة الاحزاب : ٤٩—٥٣

المالك في ملكه فيرثون مناكح الميت كرهاً كما يرثون ماله[١] فلاجل كف هذا البغي امرهم محمد ان يعاشروا النساء بالمعروف ولا يأكلوا اموال اليتامى ونهاهم خاصة على ان يرثوا النساء كرهاً[٢] واوصى ان يكون لهن نصيب من والديهن وبعولتهن وذوي القربى ممن يرثنه على الوجه الذي فرض لهن[٣] والقاعدة التي وضعها لقسمة الميراث هي ان للذكر حظ الانثيين[٤] وشذ عنها بعض احوال فمن ذلك ان ابوي الميت واخوته واخواته اذا لم يقطعوا الميراث اي اذا لم يكن لهم كل الميراث بل بعضه اقتسموا نصيبهم منه على التساوي اي بلا فرق بين الذكور والاناث[٥] وفي ما عينه من الانصباء نصاً لكل صنف من الورثة دليل بين على انه تحرى القسط ما استطاع فقدم اولاد الميت اولاً ثم ذوي القربى منه[٦] فان اوصى بشيء من ماله فلا بد لصحة الوصية من شهادة رجلين في الاقل ويجب ان يكونا

---

(١) كتاب نثر الدر «وفي الاصل يرثون نكاح الميت كما يرثون ماله»
(٢) سورة النساء: ٢٣ «وانظر تفسيرها للبيضاوي فذلك ما يراد بالعضل» (٣) سورة النساء: ٨—٢٣ (٤) سورة النساء: ١٢ و١٧٥
(٥ و٦) سورة النساء

مسلمين ومن قبيلة الموصي او من اقاربه متى امكن ذلك[1] ثم وان لم يكن في الشرع ما ينهي عن الايصاء الا ان الفقهاء يرون انه من الجنف ان يزوي الرجل شيئاً من ماله عن عترته الا ما كان لعمل الخير حتى انهم في عمل الخير نفسه لا يسوغون للرجل ان يوصي بكل ماله بل ببعضه فقط بحسب تحمله لكنه من الجهة الاخرى اذا مات احد ولم يوص بشيء من ماله ينفق في سبيل البر فعلى ورثته عند قسمة الميراث اذا بلغ نصاباً ان يرزقوا منه اليتامى والمساكين ولا سيما المساكين من اولي القربى[2]

اما اول قانون وضعه محمد للميراث فلم يكن قسطاً وذلك انه صرح فيه بان المهاجرين الذين هاجروا معه من مكة والانصار الذين آووه ونصروه في المدينة اولئك بعضهم اولياء بعض في الميراث يقدمون فيه على ذوي الارحام ويحجبونهم بل ان الذين آمنوا اذا لم يكونوا قد هاجروا مع الرسول فما للمسلمين مهاجريهم وانصارهم من ولايتهم من شيء اي من توليهم في الميراث[3] فهم بمنزلة الاجانب والاباعد الا ان هذا

(١ و ٢) سورة النساء (٣) الانفال :٧٣

الحكم لم يلبث حتى نسخ[١] واعلم ان اولاد المسلم من سراريه او امائه هم في حكم الشرع كاولاده من حلائل اذ ليس عند المسلمين نغل الا ولد البغي اذا لم يعرف ابوه[٢]

اما العهود والعقود بين رجل وآخر فقد كرر القرآن الامر بالوفاء بها في غيرما موضع[٣] واوصى دفعاً للنزاع ان تبرم امام شهود[٤] فاذا لم يكن التبايع حالا او من باب التجارة الحاضرة التي يتعاطونها بينهم بل كان الى اجل مسمى فقد امرهم ان يكتبوه امام شاهدين من رجالهم[٥] فان تعذر حصول رجلين فرجل وامرأتان[٦] وهذا واجب ايضاً فيما يتداينونه الى اجل مسمى فاذا لم يجدوا من يكتب صكوك التداين فرهان مقبوضة[٧] ولذلك اذا استرسل الناس بعضهم الى بعض بلا صك مكتوب ولا شهود ولا رهن فالشرع يبرئ المدعى عليه

---

[١] الانفال :٧٦ والاحزاب ٦ [٢] قال المعرب فاذا عرف ابوه كان له ابناً وان كانت امه بغياً وذلك لقول محمد الولد للفراش وللعاهر الحجر [٣] البقرة :١٧٦ والمائدة : ١ والاسرى :٣٧ [٤] البقرة :٢٨٢. [٥] البقرة :٢٨٢ . وفي شرع اليهود ايضاً لا تثبت دعوى الا بشهادة شاهدين وان لم تكن متعلقة بالقتل انظر سفر التثنية ١٩ :١٥ ومتى ١٨: ١٦ ويوحنا ٨ :١٧ وكورنثوس الثانية ١٣ :١ [٦] و[٧] البقرة ٢٨٢ و٢٨٣

اذا انكر وحلف انه ليس عليه للمدعي دين الاهم الا ان يكون ثم من الامارات والمظانّ القوية الحجة ما تثبت به صدق المدعي [1]

اما القتل عمداً فالقرآن قد نهى عنه واوعد مرتكبه باشد العقوبات في الاخرة [2] لكنه اجاز له في موضع آخر ان يعقل القتيل اي يعطي اهله الدية وان يحرر رقبة مؤمنة او يفتدي مسلماً من الاسر ولولي القتيل وهو الذي تدعوه التوراة ولي الدم ان يقبل هذا العقل او يأباه اذ كان له ان يطلب تسليم القاتل اليه ليقيده بالقتيل كما يحسن عنده [3] وقد خالف محمد في هذا ما نص عليه شرع موسى اذ نهى اليهود فيه ان يأخذوا فدية او دية عن نفس القاتل [4] فلعله بتجويزه عقل القتيل انما كان ينظر الى ما كانت عليه عادة العرب في ايامه فانهم كانوا مطبوعين على الاخذ بالثأر الى حد الاسراف [5]

---

(1) انظر ما قاله البيضاوي في تفسير الآية ١٠٦ من سورة المائدة فيتضح لك معنى الامارات والمظان التي تقوم مقام البينة (2) النساء : ٩٥ (3) قال المعرب لا ادري من اين اخذ المصنف هذا اذ لا شيء يؤيده في سورة البقرة التي اشار اليها في الحاشية (4) سفر العدد ٣٥: ٣١ (5) الاسرى : ٣٥ ومعنى قوله فلا يسرف اي لا يقتل غير القاتل كعادة الجاهلية

حتى انه كثيراً ما كانت تستعر نار الحرب بين قبائل برمتها من اجل قتيل أخذ بثاره وهذا ما يترتب بحكم الضرورة على استقلالهم وعلى كونهم فوضى اي بلا حكم نافذ القول على جميعهم فان كان الشرع المحمدي قد تساهل شيئاً في الاقتصاص من القاتل المتعمد فلعله قد تشدد في الاقتصاص ممن يقتل خطأً لانه اوجب عليه الدية يسلمها الى اهل القتيل الا ان يتصدقوا عليه بها كما اوجب عليه تحرير رقبة مؤمنة فان لم يجدها فصيام شهرين متتابعين توبة من الله[١] والدية ستة مئة من الابل تقسم في الورثة قسمة الميراث

واعلم انه اذا كان القتيل من قوم عدو للمسلمين او من قوم ليس بينهم وبين المسلمين ميثاق وهو مع ذلك يؤمن فما على قاتله المسلم دية وانما عليه الكفارة وهي تحرير رقبة مؤمنة وعندي ان محمداً انما تشدد في قصاص القاتل خطأً لا تحذيراً للناس من ارتكاب هذه الجريمة فقط بل مجاراة لقومه الى حد ما ايضاً فانهم لشدة ما طبعوا عليه من حب الانتقام لم يكد يرضيهم قصاص اخف من هذا . اما اليهود الذين لم يكونوا في

(١) النساء :٩٥

حب الانتقام يقصرون شيئاً عن جيرانهم العرب فعندهم ان القاتل خطأً اذا هرب الى مدينة ملجئه وجب عليه ان يقيم بها حتى يموت الكاهن العظيم الذي وقعت الجريمة في ايامه عسى ان يخمد تغيبه وكرر الايام غضب اهل القتيل ويسكن من غليلهم لكنه اذا خرج من حدود ملجئه ووجده ولي الدم جاز له ان يقتله قوداً ولا حرج عليه[١] وليس له قبل موت الكاهن العظيم ان يعقل اي يدي القتيل ويرجع فيسكن في ارضه[٢]

اما السرقة فعقوبتها بنص القرآن قطع العضو الذي ارتكب الجناية اي يد السارق[٣] ولعل هذا يظهر اول وهلة انه من العدل ولكن اعدل منه شرع يستنيانوس الذي ينهي عنه لانه لما كان الباعث على السرقة انما هو الفاقة في غالب الامر كان قطع يد السارق بمنزلة حرمانه مما يقدره على تحصيل معاشه بالحلال وقد نهت السنة المحمدية عن قطع يد السارق الا في ربع دينار فصاعداً

---

(١) سفر العدد ٣٥:٢٦—٢٨ (٢) سفر العدد ٣٥:٣٠

(٣) المائدة ٤٢:٢

اما الجنايات التي لا يترتب عليها سوى الاضرار بالبدن كالجراح ونحوها فشرع القرآن فيها مقابلة المثل بالمثل [١] وهو عين ما شرعه موسى في التوراة ولكلا الشرعين سبب واحد وهو كف الناس عن الدحل (اي حب الانتقام) الذي طبعت عليه كلتا الامتين الا انه لما كان هذا الشرع غير تام القسط وكان انفاذه بالفعل يتعذر في كثير من الاحوال لم يحكموا به الا نادراً وبدلوه بالارش يؤدي لمن اصابه الضرر ويشبه ان يكون قصد محمد ان يفهم كلامه في ذلك كما ينبغي ان يفهم كلام التوراة فيه اي ان المقصود به قودٌ ما او عقاب يفي بالجناية لا مقابلة المثل بالمثل فعلاً على ما يقتضيه ظاهر اللفظ. الا ترى انه اذ فقأ احد عين آخر لم تكن تسمل عين الجاني في شرع موسى ولا تصلم اذنه ولا يجدع انفه بل من حكم الشرع المذكور على من يجرح انساناً جرحاً لا ينشأ عنه موت ان يؤدي الارش او يغرم فقط [٢] لان قول التوراة ان العين بالعين والسن بالسن هو اسلوب من التعبير قد جرى مجرى الامثال ولا يعنى به سوى ان القاضي يقتص من الجاني بحسب اهمية الجناية [٣]

---

[١] سورة المائدة ٤٩: [٢]و[٣] خروج ٢١: ٢٤ الخ ولاويين ٢٤:

اما ما دون ذلك من الجنايات التي لم يعين لها القرآن عقوبة ولا يجزئ عنها ارش ولا غرامة فالمسلمون قد تابعوا اليهود على عقوبتها بالجلد او الضرب. وقد كان الضرب ولا يزال الى ايامنا هذه اكثر انواع التأديب شيوعاً عند الشرقيين لان العصا التي يزعمون انها نزلت من السماء لما فيها من قوة حفظ النظام بين الناس وكفهم عن تعدي حدودهم هي الالة التي ينفذ بها حكم القاضي

ثم انه مع كون المسلمين يعتبرون القرآن دستور شرعهم المدني ويتبع الترك منهم في الاقضية احكام السنة والفرس فتاوي الائمة وكلا الفريقين يراعي في ذلك شروح علمائه فان اصحاب المحاكم المدنية وان شئت قلت الدنيوية لا يرون في كثير من الاحوال وجوب مراعاة تلك الاحكام والفتاوي بل كثيراً ما يخالفونها في اقضيتهم لانها ليست في كل الاحوال مطابقة للقسط والصواب. فلذلك ينبغي ان نفرق في الشرع المدني او شريعة المعاملات بين احكام المحاكم الدينية او القضائية واحكام المجالس العرفية او الفرعية وبعبارة اخرى ان هناك فرقاً في

٢٠ وتثنية ١٩: ٢١ والتفاسير

اجراء الاحكام بين محاكم الشرع ومحاكم الفرع وان هذه الاخيرة احب الى ولاة الامور

ويندرج تحت الشرع المدني ما ندب اليه المسلمون من جهاد الكفار في عدة آيات من القرآن [١] لما في ذلك من عظيم الثواب عند الله اذ ان الذين يقتلون في سبيل الله لا يحسبون امواتاً بل احياء عند ربهم شهداء في جنته وعدهم ان يدخلهم اياها وعداً عليه حقاً [٢] ولذلك بالغ علماؤهم وفقهاؤهم في تعظيم الجهاد ودعوا السيف مفتاح الجنة والنار وحاولوا ان يحملوا قومهم على اعتقاد ان اقل قطرة من دمهم تراق في سبيل الله في الجهاد هي من احب الاشياء الى الله وان احياء ليلة واحدة في حماية ثغور الاسلام اعظم صواباً من صيام شهرين. اما التولي اي الانهزام في الجهاد او القعود عنه او الامتناع من الانفاق عليه مع القدرة على التبرع فكل ذلك يعد من افظع الذنوب وكثيراً ما بالغ القرآن في تقبيحه [٣]

---

(١) سورة الحج : ٤٠ (٢) انظر عدة مواضع من سورة براءة وانظر سورة محمد : ٧ وسورة الصف : ١١

(٣) سورة براءة ايضاً وسورة آل عمران : ١٤٩ — ١٥٩

فهذه المقالة التي لم يجترئ محمد على المجاهرة بها الا بعدما مكنته الاحوال من العمل بها فعلاً[١] جاءت على وفق رغائبه وعادت عليه وعلى خلفائه بالنفع العظيم. لا جرم ان قوماً قد تولد فيهم من الاستبسال وثبات الجنان ما يولده قوم مثل هذا لا يحجمون عن اقتحام الاهوال ولا يهابون ركوب الاخطار. حتى ان اليهود والنصارى على ما بهم من انكار هذا التعليم على غيرهم لم يكونوا يجهلون ما لبسالة المتحمسين في الدين من شدة البأس ولذلك لم يهملوا تشجيع انصارهم بمثل تلك الحجج والمواعيد فمن قول ابن ميمون لليهود من انتظم منكم في الجند للدفاع عن الشرع فليتوكل على الله رجاء اسرائيل ومخلصه في زمان الضيق[٢] وليعلم انه يقاتل في سبيل الله ونصرة دين التوحيد وليجعل نفسه في كفه[٣] ولا يفتكر في اهله ولا بنيه بل ليتناس ذكرهم ولا يشتغل باله بشيء سوى الجهاد لانه ان تشوشت افكاره فشل وأثم بل صار على عنقه دم كل الشعب لانهم ان غلبوا وكان هو لم يصدق القتال بكل وسعه فكأنه قد

(١) كما تقدم في الفصل الثاني (٢) ارميا ١٤: ٨
(٣) ايوب ١٣: ١٤

سفك دماءهم كافة وهذا على حد ما جاء في التوراة من كان جباناً فليرجع الى بيته لئلا تذوب قلوب اخوته مثل قلبه [١]

وجاء في نبوة ارميا ملعون من يعمل عمل الرب برخاء وملعون من يمنع سيفه عن الدم [٢] وفسر علماء اليهود هذا الموضع بالحضّ على الجهاد ايضاً وقالوا ان من أبلى في الحرب بلاء حسناً وهو غير وانٍ ولا متهيب بل عاقد قلبه على تمجيد اسم الله فله ان يثق بالفوز ويرجو الفتح ولا يوجس في نفسه خيفة من الاخطار والموبقات وليوقن انه سيبنى له بيت في اسرائيل يكون له ولبنيه الى الابد كما جاء في التوراة ان الرب يصنع لسيدي بيتاً اميناً لانه حارب حروبه فتكون نفسه محزومة في حزمة الحياة مع الرب الهه [٣] الى غير ذلك اما علماء النصارى فلم يقصروا عنهم في ذلك كثيراً فمما كتب به احدهم الى الافرنج وهم في الحرب الدينية انا لنود ان نتحقق بركم جميعاً وذلك ان من يقتل منكم في هذه الحرب لا يحرم ملكوت السموات وناشدهم آخر فقال انبذوا كل خوف ظهرياً واطرحوا

---

(١) تثنية ٢٠:٨ (٢) ارميا ٤٨:١٠

(٣) صموئيل الاول ٢٥:٢٨ و٢٩

كل فزع واصدقوا قتال اعداء الايمان الاقدس واضداد كل دين لان الله يعلم ان من يموت منكم فانما يموت لاجل الايمان وانقاذ الوطن وحماية المسيحيين فيخوله اجراً سماوياً

على ان اليهود قد ندبوا بامر صريح من الله ان يوقعوا باعداء دينهم ويقهروهم ويبيدوهم وزعم محمد انه قد ندب الى ذلك هو وامته بامر صريح من الله كامره لليهود فلا عجب اذاً ان تفعل كلتا الامتين بحسب ما امرها به شرعها وانما العجب كل العجب ان يعلم بعض فرق النصارى تعليماً مثل هذا منافياً لفحوى الانجيل ويعملوا به ايضاً ومع ذلك فانا نراهم قد جاوزوا اليهود والمسلمين في مناصبة اعداء دينهم

اما شرع المسلمين فيما يتعلق بالحرب فقد سبقني احد العلماء فشرحه للافرنج وبينه لهم تبياناً كافياً مدققاً فكفاني مؤونة الإطالة فيه ولذلك اقتصر هنا على تبيين بعض ما بين هذا الشرع وشرع اليهود من التطابق فاقول

كان مخالفو الاسلام في الصدر الاول منه اذا اسروا في الحرب تضرب رقابهم بلا رحمة[1] فلما عز الاسلام وامن

(١) سورة الانفال ٨: .

المسلمون شر مقاوميه رأى محمد ان العدول عن هـذه الفظاظة اصلح فخيرهم بين قتل الاسير او المنّ عليه او اخذ الفداء منه[١] وقديماً قضى شرع اليهود بقتل امم الكنعانيين السبع الذين اعطيت ارضهم للاسرائيليين[٢] لانه لم يكن يتأتى لهم سكناها والقرار فيها الا بعد استئصالهم منها ثم لم يكتف بذلك بل قضى بالقتل ايضاً على عماليق والمديانيين[٣] لانهم حاولوا صد بني اسرائيل عن الوصول الى ارض ميراثهم

وعليه فاذا عزم المسلمون على قتال امة تخالفهم في الدين دعوها الى احدى خصال ثلاث اما ان تسلم فتعصم منهم دمها وعرضها ومالها ويكون لها ما لهم وعليها ما عليهم. واما ان تعطي الجزية[٤] فيباح لها ان تبقى على دينها ما لم يكن شركاً فاحشاً او منافياً لناموس الاداب. واما ان تخرج الى الحرب فان ظهروا عليها استرقوا الاسرى من النساء والذراري وبقي الامام بالخيار في الاسرى من الرجال ان شاء قتلهم الا ان يسلموا وان شاء استرقهم وان شاء اعتقهم ذمة للمسلمين[٥]

---

[١] سورة محمد ٥: وانظر تفسير البيضاوي [٢] تثنية ٢٠: ١٦— ١٨ [٣] تثنية ٢٥: ١٧ و١٩ و٣١ [٤] برآءة ٢٩: [٥] برآءة ٥:

وهـذا ايضاً مطابق لشرع اليهود في حرب الامم التي لم يقضَ بابادتها[1] حتى ان الكنعانيين انفسهـم المقضي بابادتهـم ارسل اليهم يشوع بن نون فيما يقال بثلاث رقاع قبل ان يدخل ارضهم وكتب على احداها ليهرب من شاء وعلى الثانية ليخضع من شاء وعلى الثالثة ليقاتلن من شاء[2] ومع ذلك فلم يسالم بني اسرائيل احد من هؤلاء الشعوب ما خلا الجبعونيين فانهـم احتالوا حتى اخذوا الامان لانفسهم بعدما رفضوا ما عرضـه يشوع عليهم وانما لم يسالم احد منهم بني اسرائيل لانه كان من قبل الرب ان يقسي قلوبهم ليبيدهم قاطبة[3]

ثم انه لما تنازع اصحاب محمد على قسمة الغنائم في الحرب اضطر محمد ان يضع في ذلك حكماً يرجع اليه فزعم ان الله امره ان يقسم الانفال في جنده[4] كما شاء بعد ان يستثني خمسها لما سيأتي ذكره[5] وبناءً على ذلك زعم انه قد رخص له في احوال خاصة ان يقسم الغنائم كما يراه الاصلح بدون مراعاة المساواة

وانظر ما قاله الزمخشري والبيضاوي في تفسير الآية الرابعة من سورة محمد (1) تثنية ٢٠:١٠—١٥ (2) ابن ميمون في تفسير التلمود (3) سفر يشوع ١١:٢٠ . (4) سورة الانفال ١: (5) سورة الانفال:٤٢

وهكذا فانه وهب ما غنم من هوازن يوم حنين لاهل مكة دون اهل المدينة وميز القرشيين منهم بوافر العطاء وذلك تألفاً لقلوبهم بعد استيلائه على بلدهم[١] وكذلك استأثر بغنائم بني النضير كلها وتصرف فيها تصرف المالك في ملكه محتجاً انه لم يكن في تلك الغزاة خيل ولا جمال بل كان الجيش كله رجالة فصار ذلك سنة ولعل سببه ان الغنائم التي يغنمها جيش كله رجالة تحسب نفلا او فيئاً من الله فهي لذلك في تصرف رسوله[٢]

وكذلك الغنائم في شرع اليهود تقسم قسمين متساويين فيوزع احدهما في الغانمين والآخر يأخذه الملك لينفق منه على نفسه ويصرف الباقي في مصالح الامة[٣] ولا يرد على ذلك ما جاء في التوراة من تنصيف موسى نهب المديانيين بين الذين خرجوا الى الحرب وباشروا القتال بانفسهم وبين باقي الجماعة[٤] فانهم يقولون ان تلك نازلة شاذة جرت بامر من الله مخصوص فلا يقاس عليها[٥] ثم انه تحصل في خطاب يشوع للسبطين

(١) انظر تاريخ ابي الفداء (٢) سورة الحشر ٦: (٣) كذا في تلمود بابل (٤) سفر العدد ٣١: ٨٢ (٥) ابن ميمون

ونصف السبط الذين ارسلهم الى جلعاد انه اوصاهم بان يشاطروا اخوتهم ما يغنمونه من ارض كنعان بعد فتحها واقتسامها[١] فمن المحتمل اذاً ان النصف الذي صار الملك بعد ذلك يأخذه من الغنائم انما كان يأخذه باعتبار كونه رئيساً للجماعة ونائباً عنها

ومما هو جدير بالتنبيه عليه ان ما وقع من الاختلاف بين اصحاب محمد عند اقتسام غنائم بدر[٢] هو عين ما وقع بين اصحاب داود النبي عند اقتسام الغنائم التي استردوها من العمالقة[٣] وذلك ان الذين باشروا القتال بانفسهم ارادوا ان يستأثروا بالغنائم دون الذين اقيموا حفظة على الاموال فكان الحكم في الحادثتين واحداً وهو ان تقسم الغنائم في الجماعة على السواء ثم صار ذلك سنة

اما الخمس الذي امر القرآن ان يؤخذ من الغنائم قبل قسمتها في الغانمين فهو لله وللرسول ولذي القربى واليتامى

(١) سفر يشوع ٢٢:٨ (٢) قال البيضاوي في تفسير الآية الاولى من سورة الانفال ان سبب نزولها اختلاف المسلمين في غنائم بدر فقسمها محمد بينهم على السواء

(٣) سفر صموئيل الاول اصحاح ٣٠: ٢١—٢٥

والمساكين وابن السبيل وقد اختلف الائمة في تأويل هذه العبارة فقال الشافعي تقسم هذا الخمس خمسة اسهم فيجعل احدها وهو الذي يدعوه سهم الله في بيت المال ويصرف في مصالح المسلمين كمدة الغزاة من السلاح والكراع وفي بناء الحصون وترميمها وبناء القناطر ونحو ذلك ويرتزق منه الولادة والشرط والمدرسون والفقهاء وغيرهم من اصحاب الوظائف. والثاني يوزع في ذوي القربى من محمد اي في بني هاشم وبني المطلب وسواء في ذلك اغنياؤهم وفقراؤهم صغارهم وكبارهم نساؤهم ورجالهم بشرط ان يكون للذكر حظ الانثيين والثالث لليتامى والرابع للمساكين وهم الذين ليس لهم شيء ينفقونه في عامهم ولا يقدرون على كسب معايشهم. والخامس لابناء السبيل المنقطع بهم وان كانوا ذوي يسار في بلدهم. وقال مالك ان الامر في الخمس كله مفوض الى الامام يصرفه الى ما يراه اهم. وذهب ابو العالية الى ظاهر الآية فقال يقسم الخمس ستة اسهم ويصرف سهم الله الى رتاج الكعبة. وذهب غيره الى ان سهم الله مضموم الى سهم الرسول وقال ابو حنيفة سقط سهم الرسول وسهم ذوي القربى بوفاته وصار الكل مصروفاً الى

الثلاثة الباقية اي اليتامى والمساكين وابناء السبيل . وقال غيره ان ذوي القربى الذين يستحقون سهماً من الغنائم هم بنو هاشم وحدهم . وادعت طائفة ان بني المطلب اخي هاشم يستحقون سهماً ايضاً وحجتهم ما ورد في الاثر عن محمد انه قسم سهم ذوي القربى فيهم وفي بني المطلب فقال له عثمان بن عفان وجبير بن مطعم (وهما من بني عبد شمس ونوفل اخوي هاشم والمطلب) . هؤلاء اخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم . ارأيت اخواننا من بني المطلب اعطيتهم وحرمتنا وانما نحن وهم بمنزلة فقال انهم لم يفارقونا في جاهلية ولا اسلام وشبك بين اصابعه امارة على ما بين المطلبين والهاشميين من اشتباك اللحمة . ومن الائمة من لا يرى حرمان احد من قريش من هذا الخمس ولا فرق عنده بين غنيهم وفقيرهم لكن مذهب من يقول ان القرآن لم يعن سوى الفقراء من ذوي القربى كما انه بلا خلاف لم يعن سوى الفقراء من ابناء السبيل هو المذهب الاقرب الى العقل . وفي المسلمين مع ذلك من شط في التعصب للقرشيين حتى قال ان الخمس الذي امر القرآن باخراجه هو كله لهم وان المعني باليتامى والمساكين وابن السبيل انما هو من

كان كذلك من قريش وحدهم (١)

واعلم ان حكم ما يغنم في الحرب من العقار حكم المال المنقل الا انه لا يخمس بنفسه كالمال المنقل وانما تخمس غلته او ثمنها اذا بيعت ويصرف ذلك الى مصالح الامة وفي سبيل الخير مرة في العام. والامام في الارض بالخيار ان شاء اخذ خمسها وان شاء اخذ خمس غلتها

(١) انظر كلام الزمخشري والبيضاوي وغيرهما من المفسرين على الآية الثانية والاربعين من سورة الانفال



الفصل السابع

في الاشهر التي حرمها القرآن وفي افراز يوم الجمعة لله

كانت عادة العرب في الجاهلية ان يحرموا اربعة من شهور السنة فلا يحل لهم ان يحاربوا فيها وكانوا لذلك ينزعون اسنة رماحهم ويكفون عن الغزو والقتال وان كان لاحد منهم عدو يخشاه عاش آمناً منه في هذه الاشهر الحرم حتى لو لقي احدهم قاتل ابيه او اخيه لم يتعرض له بشر وهذا ما اتخذ منه بعض علماء عصرنا حجة تثبت ما في طباع العرب من المروءة وذلك انهم بسبب استقلال كل واحدة من قبائلهم بنفسها وغيرتها على حفظ حقوقها اصبحوا ودواعي المشاجرات بينهم متعددة وقد تأتي لهم مع ذلك ان يهدوا غليل صدورهم ويطفئوا نار الحرب في اوقات معلومة يتهادنون فيها

وهذه الاشهر كانت تحرمها قبائلهم كلها الا قبيلتي خثعم وطي وبعض بني الحارث بن كعب فانهم ما كانوا يحرمونها ولا البلد الحرام[1] واما باقي العرب فكانوا شديدي الوقوف عند تحريمها

---

[1] الشهرستاني

حتى انه ليس في التاريخ ذكر لانتهاك حرمتها الا نادراً قيل انها انتهكت اربع مرات وقيل ست مرات[١] ولذلك دعوا ما انتشب فيها من الحروب بينهم حروب الفجار[٢] ومنها حرب بين قريش وقيس عيلان[٣] نبل محمد فيها على عمومته وعمره يومئذ اربع عشرة سنة في قول قوم[٤] وعشرون في قول آخرين[٥] والاشهر الحرم المذكورة هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ثلاثة سرد وواحد فرد ولما كان ذو الحجة شهر الحج حرموه وحرموا معه الشهر الذي يتقدمه والشهر الذى يليه ليتأتى لكل احد ان يتقدم الى مكة ويقفل عنها وهو آمن . اما رجب فيقال ان العرب كانوا اشد صوناً له منهم لغيره من الاشهر الحرم ولعل ذلك لانه كان في الجاهلية شهر الصيام[٦] اذ ان شهر رمضان الذي افرده محمد للصيام كان في الجاهلية شهر السكر واللهو[٧] ولما كان رجب شهر سلم وأمان كان

---

(١) المغلطاني (٢) قال المعرب انما سموها فجاراً لانها كانت في الاشهر الحرم فلما قاتلوا فيها قالوا فجرنا (٣) كذا في الاصل ولعل الصواب بين قريش وهوازن» (٤) ابو الفداء (٥) القضاعي والفيروزابادي (٦) المقريزي (٧) المقريزي وصاحب نشق الازهار والبيروني

يوزع فيه على اهل مكة قسم من الميرة التي كانت تأتي بها رحلتا الشتاء والصيف اللتان كانت تسيرهما قريش كل سنة للامتياز[١] وكان الباقي يوزع عليهم ايام الحج للسبب المتقدم اي شمول السلم والامان فيها . فلما جاء محمد استصوب هذا التحريم فاقرّه في عدة آي من القرآن[٢] ونهى عن اثارة الحرب في تلك الاشهر على الذين يحرمونها لكنه اباح فيها قتال الذين لا يحرمونها كما اباحه في غيرها[٣] ولم يغير من عادات العرب فيها سوى عادة واحدة اعني النسيء وذلك ان قوماً منهم كانوا اذا ملوا القعود عن الحرب ثلاثة اشهر متتابعة وتاقت انفسهم الى ما اعتادوه من شن الغارة للنهب انسأوا المحرم وهو من الاشهر الحرم اي اخروه وحرموا الشهر الذي يليه وهو صفر كلما رأوا ذلك ملائماً لهم وهذه حيلة استنبطوها زاعمين انه يحل لهم انتهاك حرمة المحرم بشرط ان يحرموا شهراً آخر مكانه وينذروا بذلك في الحج المتقدم فهذا هو معنى النسيء الذى انكره القرآن وصرح بانه زيادة في الكفر[٤] لا ما

---

[١] انظر سورة قريش والفصل الاول من مقالتنا [٢] براءة : ٣٦ والبقرة : ١٩٠ والمائدة : ٢ [٣] براءة : ٣٦ [٤] براءة : ٣٧

توهمه بعض علمائنا من ان القرآن نهى في الآية المذكورة عن تطويل السنة بكبس شهر فيها. نعم ان العرب كما نسجوا على منوال اليهود في جعل سنتهم قرية تعلموا منهم ايضاً طريقة ردها الى سنة شمسية وذلك بان يكبسوا شهراً تارة في كل غب سنة وتارة في كل ثلاث سنين ليقر الحج الى مكة في فصل معلوم من السنة اي في فصل الخريف لانه اكثر ملاءمة للحجاج وذلك لاعتدال الهواء فيه وتوفر الميرة وكذلك مما لا شك فيه ان محمداً نهى عن هذا الكبس في آية من تلك السورة نفسها الا ان هذه الآية هي غير تلك ومتقدمة عليها في النسق يصرح فيها بان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً [1] فلو كان الكبس جائزاً لصارت عدة الشهور في كل غب سنة او كل ثلاث سنين ثلاثة عشر شهراً خلافاً لما هي عند الله .

ولما رأى محمد ان ما اوجبه شرع اليهود والنصارى من افراز يوم من ايام الاسبوع وتخصيصه لعبادة الله هو شيء حسن استصوبه ولم يسعه الا الاقتداء بفعلهم لكنه ليتميز عنهم رأى انه لا بد له من ان يجعل لامته يوماً غير السبت والاحد

---

[1] براءة : ٣٦

فوقع اختياره على يوم الجمعة[١] وذلك لاسباب شتى ذكروها لكن الارجح عندي انه آثره على غيره من ايام الاسبوع لان العرب كانت تجتمع فيه من قبل وان كان اكثر اجتماعهم لغاية دنيوية . وعلماء المسلمين يعظمون قدر هذا اليوم غاية التعظيم ويدعونه سيد الايام وخير يوم طلعت فيه الشمس ويزعمون انه اليوم الذي تقوم فيه الساعة ويقولون ان من جملة ما فضل الله به الاسلام انه هداهم لهذا اليوم وجعله عيداً لهم وخصهم به فهم أولى الناس به سبقاً . ثم مع كونهم لا يرون انه يجب عليهم حفظ يومهم مثلما يجب على اليهود والنصارى اذ كان القرآن على ما يذهب اليه الجمهور قد اباح لهم اذا انقضت الصلاة ان ينتشروا في الارض ويبتغوا من فضل الله[٢] فان شديدي التدين منهم يكرهون ان يشتغلوا فيه بامور دنيوية ويوجبون التفرغ فيه لامر الآخرة[٣] واذ قد ذكرت عيد المسلمين الاسبوعي فلا بأس ان اذكر عيديهم السنويين فالاول منهما عيد الفطر وهو يبتدئ اذا هلّ شوال وذلك عقيب الصوم في شهر رمضان

---

(١) انظر تفسير الآية التاسعة من سورة الجمعة

(٢) سورة الجمعة :٨—١٠ (٣) سورة الجمعة :٨—١٠

والثاني عيد الاضحى وابتداؤه في العاشر من ذي الحجة وهو اليوم الذي ينحر الحجاج فيه هديهم في الحج . واكبر هذين العيدين عيد الاضحى الا ان العامة واكثر مصنفينا الذين تكلموا في امور المسلمين يخالفون في ذلك فيدعون العيد الذي يتلو شهر رمضان بالعيد الاكبر وذلك لانهم اكثر تأنقاً فيه ويعيدون فيه ثلاثة ايام متتالية في القسطنطينية وغيرها من بلاد الترك وتعيد فيه عوام الفرس خمسة ايام او ستة ويعكفون فيه على اللهو والقصف تعويضاً عما نالهم من الجهد في الشهر المتقدم عليه . اما عيد الاضحى فالعامة اقل التفاتاً اليه وان كانوا يعيدون فيه ثلاثة ايام اولها اعظم ايام الحج الذي هو اهم ما يأتونه من افعال التعبد الا انهم لا يرون فيه شيئاً جديراً باحتفالهم لان رسوم هذا الحج انما تقام بمكة بعيدة عن ابصارهم



الفصل الثامن

في فِرق المسلمين الكبيرة وفي من ادعى النبوة في العرب على عهد محمد او بعده

لا بد قبل البحث عن فِرَق المسلمين من ان نقول شيئاً في العلمين اللذين تفصل بهما كل قضية يتنازع فيها عندهم وهما علما الكلام والفقه

اما الكلام فعلم مختلط يدخل فيه شيء من المنطق وعلم المعقولات والالهيات والفلسفة لكن اصوله وطرق الاحتجاج فيه مباينة لما الفه العلماء الذين يعتبرهم المسلمون انفسهم اصح مذهباً وابرع فلسفة من المتكلمين ولذلك اذا بوّبوا العلوم ورتبوها اهملوا منها هذا العلم اذ لا محل له منها [1] وقد حاول العلامة ابن ميمون ان يبين في كتابه المسمى دلالة الحائرين ان مبادئ اصحاب الكلام ومذاهبهم كثيراً ما تنافي طبائع الاشياء وتخالف نظام الكون وانها من السخف والفهاهة بمكان

ولم يكن هذا الفن فن المناظرة الدينية معلوماً في اوائل

[1] ابن سيناء ونصير الدين الطوسي

الاسلام لكنه حدث بحدوث البدع اذ صار يعترض على اركان الاسلام ومباني الايمان فلجأوا اليه للذب عنها [1] وقمع المبتدعين فهو عندهم من العلوم المحمودة ما دام مقتصراً على اثبات العقائد الدينية والدفاع عن السنة فاذا خرج به الى المراء والمماحكة في امور الدين فهو مذموم وحقه التعزير . هذا ما قاله الغزالي فانه اتخذ طريقاً وسطاً بين الذين يغالون بهذا العلم والذين يطرحونه بتةً كالامام الشافعي مثلاً فانه قال عن الذين ينفقون ايامهم فيه ان حكمه فيهم ان يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل وينادى عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واخذ في الكلام . اما مذهب الغزالي فهو انه لما كان هذا العلم قد حدث بحدوث البدع وجب التمسك به لقمع المبتدعة لكنه يشترط على المشتغل به ثلاث خصال اولها التجرد له وثانيها الذكاء وثالثها ان يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى وان لا يدرسه على العموم . فهو اذاً معرفة طريق المجادلة عندهم ويبحث فيه عن ذات الله وصفاته واحوال الممكنات من المبدإ والمعاد على قانون الاسلام [2] . اما العلم الثاني وهو الفقه ويعرف بانه العلم بالاحكام

---

(١) احياء علوم الدين للغزالي (٢) ابن القصاع وقال ايضاً ان

الشرعية العملية من ادلتها التفصيلية فرأي الغزالي فيه كرأيه في ذاك لان الباعث على وضعهما انما هو فساد العقائد والاخلاق فكلاهما ضروري لا لذاته بل بالعرض فوُضع علم الكلام لصيانة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ووضع الفقه لفصل الحكومات فيما يختلف فيه من اوامر الشرع ونواهيه فيستقيم الناس وتنتظم امورهم في الدنيا ويحفظ القانون الذي به يكف السلطان عدوان بعضهم عن بعض مبيناً الحلال والحرام معيناً احكام الجراحات والحدود والغرامات وغير ذلك من احكام المعاملات وذلك فضلا عن افتاء الفقيه في امور الدين وشروط الصحة والفساد فيها. الا ان هذا انما ينظر فيه الى اللسان دون القلب اذ القلب خارج عن ولاية الفقيه. ثم انه لما اشتد فساد سيرة الناس أضحت معرفة احكام الشرع ضربة لازب ولذلك صار هذا الفن يطلق عليه اسم الفقه اي العلم[1] هكذا بلا قيد

شيوخ المعتزلة طالعوا كتب الفلاسفة في المنطق وغيره من فنون العلم فسموا منهجهم هذا بعلم الكلام مقابلة للفلاسفة في تسميتهم فناً من فنون علمهم بالمنطق والمنطق والكلام مترادفان [1] وعن ابن الاثير الفقه لغة العلم بالشيء والفهم له وقد جعله العرف خاصاً بعلم الشريعة

غيره وذلك تعظيماً له حتى لا يعتد بغيره من العلوم ولا يعد الانسان فقيهاً اي عالماً الا به

اما الاصول التي فيها الخلاف بين المتكلمين فتنحصر في اربع قواعد[١] الاولى يبحث فيها عن صفات الله من حيث وحدانية ذاته وهي تشتمل على مسائل الصفات القديمة اثباتاً عند جماعة ونفياً عند جماعة وبيان صفات الذات وصفات الفعل وما يجب لله تعالى وما يجوز عليه وما يستحيل وفيها الخلاف بين الاشعرية والكرامية والمجسمة والمعتزلة[٢]

القاعدة الثانية يبحث فيها عن القضاء والقدر وعن العدل فيهما وتشتمل على مسائل قضاء الله وقدره وما يدعى بالجبر والكسب وارادة الله للخير والشر وعلى المقدور والمعلوم اي ما يقدر الله عليه لقدرته وما يعلمه لعلمه اثباتاً عند جماعة ونفياً عند آخرين وفيها الخلاف بين القدرية والنجارية والجبرية والاشعرية والكرامية[٣]

---

(١) تاريخ الدول لابن العبري

(٢) الشهرستاني في كتاب الملل والنحل

(٣) الشهرستاني في كتاب الملل والنحل

القاعدة الثالثة يبحث فيها عن الوعد والوعيد وتعيين مفاد الاسماء والاحكام التي تنسب الى الله وهي تشتمل على مسائل الايمان والتوبة والوعيد والارجاء والتكفير والتضليل وفيها الخلاف بين المرجئة والوعيدية والمعتزلة والاشعرية والكرامية[1]

القاعدة الرابعة يبحث فيها عن السمع والعقل اعني النص والاجتهاد والى اي حد يحتج بهما في امور الدين والايمان. ويبحث فيها ايضاً عن الرسالة والامامة وهي تشتمل على مسائل التحسين والتقبيح ويراد بذلك البحث عما هو حلال او حرام مباح او محظور من الاشياء والاعمال هل هو كذلك لسبب في ذاته او لنص وارد فيه وتشتمل ايضاً على مسائل الصلاح والاصلح واللطف والعصمة في النبوة او الرسالة وعلى شرائط الامامة نصاً عند جماعة واجماعاً عند آخرين وكيفية انتقال الامامة في مذهب من قال بانتقالها بالنص اي بالعهد او الوراثة وكيفية اثباتها في مذهب من قال بالاجمال اي بالمبايعة ورضى الامة والخلاف في مسائل هذه القاعدة بين الشيعة والمعتزلة والكرامية والاشعرية

---

[1] الشهرستاني في كتاب الملل والنحل

وفرق المسلمين على اختلافها يمكن قسمتها الى نوعين او طبقتين احداهما يعرف اصحابها باهل السنة والجماعة والاخرى بالمبتدعة وانما غلب على الطبقة الاولى اسم السنية وذلك لانهم يعتقدون ان السنة اي الحديث حجة يرجع اليها وهي بمنزلة تكملة القرآن تأمرهم باشياء كثيرة اهملت فيه فهي كالمشنا عند اليهود

والسنية ينقسمون الى اربعة مذاهب اولية تختلف في الفروع اي في تأويل بعض الاشياء المتعلقة بالدين والمعاملات مما امر به القرآن وتتفق في الاصول اي في اركان الايمان فمن كان على واحد من هذه المذاهب الاربعة فهو من الفرقة الناجية. ولاصحاب كل واحد منها مصلى في المسجد الحرام كما تقدم وواضعوها الاربعة يعدون كبار ائمة الفقه ويقال انهم كانوا رجالاً عابدين زاهدين عالمين بعلوم الآخرة فقهاء في مصالح الخلق في الدنيا مريدين بعلمهم وفقههم وجه الله تعالى. وهذه خمس خصال اثنى بها عليهم الغزالي وقال اتبعهم فقهاء العصر على واحدة منها وهي التشمير والمبالغة في تفاريع الفقه وادعوا مشابهتهم في هذه الخصلة فقط واهملوا سائر فضائلهم

فظلموهم وهيهات ان تقاس الملائكة بالحدادين

واول مذاهب السنية الاربعة هو المذهب الحنفي نسبة الى واضعه ابي حنيفة النعمان بن ثابت ولد بالكوفة سنة ثمانين للهجرة ومات سنة مئة وخمسين على الاصح[١] وذلك في السجن ببغداد وانما سجن لانه دعي الى تولي القضاء فامتنع منه فسجن وعذب على ان يقبل فلم يغن ذلك شيئاً واختار عذاب السلطان في الدنيا على عذاب الله في الاخرة كما قال الغزالي. ويروى انه لما ندب للقضاء قال معتذراً انا لا اصلح لهذا فقيل له لم فقال ان كنت صادقاً فما اصلح له وان كنت كاذباً فالكاذب لا يصلح للقضاء. وقيل انه ختم القرآن سبعة آلاف ختمة وهو في السجن . والشهرستاني يدعو الحنفية اصحاب الرأي ويدعو اصحاب المذاهب الاخرى اصحاب الحديث لان الحنفية يفتون بالرأي اي بالاجتهاد غالباً والاخرون اشد منهم تمسكاً بالسنة اي حديث نبيهم وما يؤثر عنه . ولم يكن مذهب ابي حنيفة في اول الامر معمولاً به الا في العراق[٢] واما الان فهو فاش في بلاد الترك والتتر ايضاً وقد رفع اعلامه القاضي ابو

[١] ابن خلكان [٢] الشهرستاني

يوسف في ايام موسى الهادي وهرون الرشيد

والمذهب الثاني واضعه مالك بن انس ولد بالمدينة ومات بها واختلف في تاريخ مولده وموته فقيل ولد سنة ٩٠ او ٩٣ او ٩٤ او ٩٥ ومات سنة ١٧٧ او ١٧٨ او ١٧٩ وكان هذا الامام كثير التعظيم للسنة قال القعنبي دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه فرايته يبكي فقلت ما الذي يبكيك فقال ومالي لا ابكي ومن احق بالبكاء مني والله لوددت اني ضربت سوطاً بكل مسألة افتيت فيها بالرأي (ويروى برأيي) وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت اليه فليتني لم أفت برأيي . ويروى عن الشافعي انه قال شهدت مالكاً وقد سئل عن ثمان واربعين مسألة فقال ان اثنتين وثلاثين منها لا ادري وقد اتخذ الغزالي ذلك حجة اثبت بها انه لم يرد بعلمه غير وجه الله لان من اراد غير ذلك بعلمه لا تسمح نفسه بان يقر بانه لا يدري واكثر شيوع مذهب مالك في افريقية بين برقة والمغرب الاقصى

والمذهب الثالث واضعه الامام محمد بن ادريس الشافعي ولد سنة ١٥٠ يوم وفاة ابي حنيفة كما يظن وذلك بغزة وقيل بعسقلان وحمل وهو ابن سنتين الى مكة فنشأ بها ومات سنة

٢٠٤ وذلك بمصر وكان قد ذهب اليها قبل ذلك بخمس سنين.
واشتهر هذا الامام بتبريزه في كل فروع العلم وكان ابن حنبل وهو معاصر له يعظمه جداً ويقول عنه انه كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن وكان اولاً لا يعترف بفضله بل كان ينهى عنه تلامذته فلقيه واحد منهم ذات يوم والشافعي راكب بغلة وابن حنبل يمشي خلفه فقال له يا ابا عبد الله تنهانا عنه وتمشي خلفه فقال اسكت لو لزمت البغلة لانتفعت. والشافعي اول من تكلم في اصول الفقه ورد هذا العلم الى اصول بقوانين وقواعد وهذا ما اراده ابن خلكان بقوله استنبطه. وقال الزعفراني كان اصحاب الحديث رقوداً حتى جاء الشافعي فايقظهم. وكان خصماً الد لاصحاب علم الكلام كما اسلفنا. وقال الغزالي انه كان يقسم الليل ثلاثة اجزاء ثلثاً للعلم وثلثاً للعبادة وثلثاً للنوم. وكذلك يحكى عنه انه ما حلف بالله لا صادقاً ولا كاذباً قط. وانه سئل عن مسألة فسكت فقيل له الا تجيب فقال حتى ادري الفضل في سكوتي او في جوابي. ومن كلامه من ادعى انه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب. ويدعى تبعة مذهبه بالشافعية نسبة اليه وكانوا قبلاً قد امتدوا الى ما وراء النهر وما

يلي تلك البلاد شرقاً واما الان فاكثرهم في جزيرة العرب وبلاد فارس

والمذهب الرابع واضعه احمد بن حنبل ولد سنة ١٦٤ الا ان في موضع ميلاده قولين احدهما ان امه خرجت من مرو وهي حامل به فولدته في بغداد والاخر انه ولد بمرو وحمل رضيعاً الى بغداد ثم بلغ بعد ذلك من الفضل والعلم ما ذاع به صيته في الافاق ولشدة تبحره في الحديث قيل انه كان يحفظ الف الف حديث وكان من خواص الشافعي وعنه اخذ اكثر ما كان يحفظه من الحديث ولم يزل مصاحباً له الى ان ارتحل الى مصر . ودعي ابن حنبل الى القول بخلق القرآن فلم يجب فضرب وحبس بامر الخليفة المعتصم ثم مات في بغداد سنة ٢٤١ وقدر من حضر جنازته بثماني مئة الف رجل وستين الف امرأة. ويحكي عنه من الخوارق ان لم يعد من المعجزات انه اسلم يوم موته عشرون الفاً بين نصارى ويهود ومجوس . ثم اخذ عدد اصحابه ينمو نمواً سريعاً ويزدادون قوة وجراءة حتى احدثوا في خلافة الراضي وذلك سنة ٣٢٣ فتنة في بغداد وهرجاً وصاروا يكبسون دور الناس فان وجد نبيذاً اراقوه او مغنية ضربوها

وكسروا آلة الغناء فاضطر الخليفة ان يصدر فيهم امراً مشدداً حتى ارتدعوا [١] لكنهم في ايامنا هذه ليسوا بكثيرين وقلما يلقى منهم احداً خارجاً عن جزيرة العرب

اما الطبقة الثانية من الفرق اعني المبتدعة فهم الذين ذهبوا في اركان الايمان الى مذاهب تنافي الدين القيم وهو ما يعتقده اهل السنة والجماعة واعلم ان اول تنازع وقع بين المسلمين على تلك الاركان او الاصول انما وقع بعد موت اكثر الصحابة [٢] ولم يقع في ايامهم تنازع على امر ذي بال الا ما اثارته الاثرة والمطامع الشخصية كاختلافهم في الامامة ومن هو الاحق بها بعد محمد اذ كانت العرب وقتئذ اشد اشتغالاً بالحروب من ان يخوضوا في دقيق المباحث وغامض الفروق فلما همدت سورة الفتوح في صدورهم او كادت اقبلوا على القرآن يمعنون فيه النظر فنشأ عن ذلك ما لا يمكن اجتنابه من اختلاف الآراء ولم يزل هـذا الاختلاف يتشعب والاراء تتفرق حتى اصبح الاسلام وفرقه لا تنقص عن ثلاث وسبعين كما يقر به المسلمون انفسهم

---

(١) ابو الفداء وابن العبري. واعلم ان ما تقدم من تراجم الائمة الاربعة قد اخذ عن ابن خلكان (٢) الشهرستاني

وذلك انهم لشدة حرصهم على ان يكون لدينهم مزية على سائر الاديان حتى في عدد فرقه قالوا افترقت المجوس على سبعين فرقة واليهود على احدى وسبعين والنصارى على اثنتين وسبعين وافترقوا هم على ثلاث وسبعين فرقة كما انبأ به محمد[1] الا انه ليس من هـذه الفرق على حق الدين الا واحدة فقط وهي الناجية دونهن

واول تلك البدع بدعة الخوارج وهم الذين خرجوا على علي بن ابي طالب سنة سبع وثلاثين للهجرة ثم لم يمض على ذلك الا القليل حتى ظهر معبد الجهمي وغيلان الدمشقي ويوانس الاسواري وخالفوا الجماعة في القدر واسناد جميع الاشياء من خير او شر الى تقدير الله ثم نسج على منوالهم واصل بن عطاء وكان تلميذ حسن البصري فطرحت مسألة في مجلس استاذه هل مرتكب الكبيرة كافر او لا وكان يتردد على المجلس رجال من الخوارج للمناظرة فقالوا بتكفير صاحب الكبيرة وقالت

(١) فقال ستفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة الناجية منها واحدة والباقون هلكى فقيل له ومن الناجية قال اهل السنة والجماعة قيل وما السنة والجماعة قال ما انا عليه اليوم واصحابي

السنية ليس بكافر فلم ينتظر واصل حكم استاذه في هذه المسألة بل اعتزل الجماعة واقبل يقرر على رفقائه من التلامذة مذهباً جديداً فقال ان صاحب الكبيرة هو في منزلة بين المنزلتين فطرده لذلك الحسن عن مجلسه وسمي هو واصحابه بالمعتزلة

اما ما ظهر بعد ذلك من المذاهب فيتركب من مقالات اربع فرق كبيرة اعني المعتزلة والصفاتية والخوارج والشيعة[١]

الفرقة الاولى اعني المعتزلة هم اصحاب واصل بن عطاء المتقدم ذكره والذي يعمهم من الاعتقاد هو اولاً القول بنفي الصفات القديمة عن ذات الله وذلك هرباً مما يقول به النصارى من تمييز الاقانيم ولهذا قالوا ان القدم اخص وصف ذاته وانه عالم قادر حي وذلك لذاته لا بعلم وقدرة وحياة هي صفات[٢]

---

(١) وكبار الفرق اربع ايضاً عند الشهرستاني لكنه وضع القدرية موضع المعتزلة اما ابن العبري فعنده ان كبار الفرق ست وهي المعتزلة والصفاتية والخوارج والشيعة والجبرية والمرجئة وهي عند صاحب شرح المواقف ثمان اي المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة والنجارية والجبرية والمشبهة والناجية واراد بالناجية الاشعرية لانه كان اشعرياً

(٢) وهذا عين مذهب ابن ميمون عالم اليهود فانه قال في دلالة الحائرين ان الله موجود لا بوجود حي لا بحياة قادر لا بقدرة عالم لا بعلم بل الكل راجع لمعنى واحد لا تكثير فيه

الا انهم لم يتفقوا على معاني هـذه الالفاظ وقد سموا بالمعطلة ايضاً لانهم جعلوا الله عطلا من الصفات اي انهم عرّوه منها وقالوا من اوجبها له فقد قال بقدعين وذلك مناف لوحدانية الله وهذا انما هو مذهب امامهم واصل بن عطاء فانه كان يقول من اثبت صفة قديمة لله فقد اثبت الهين غير ان مسألة الصفات هذه لم تكن مقررة في ايامه حتى قررها اصحابه وذلك على اثر مطالعتهم كتب الفلاسفة . ثانياً اتفاقهم على ان كلام الله اي القرآن محدث مخلوق في محل وهو حرف وصوت كتب امثاله في المصاحف حكايات عنه فما وجد في المحل فهو عرض يفنى . ثالثاً انكارهم مطلق القدر وقولهم ان الله لم يخلق الشر بل الخير فقط وان العبد قادر خالق لافعاله خيرها وشرها . ولما كان هذا مذهب القدرية ابقيت ما عندي من القول فيه الى ان آخذ في الكلام عنهم . وقد سمى المعتزلة انفسهم اهل العدل والتوحيد اي المناضلين عن عدل الله وعن وحدانيته وذلك لما ذهبوا اليه في القدر ولما تقدم من مذهبهم في الصفات . رابعاً اتفاقهم على ان المؤمن اذا خرج من الدنيا من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار لكن يكون عذابه اخف

من عذاب الكفار . خامساً اتفاقهم على ان الله غير مرئي في الاخرة بالابصار

ويقال ان المعتزلة اول من وضع علم الكلام وهم مفترقون فرقاً ربما تبلغ العشرين[1] كل واحدة منها تكفر الاخرى واهمها هذه

عدد ١ الهذيلية اصحاب ابي الهذيل حمدان العلاف وهو معتزلي خالف جماعة المعتزلة في اشياء منها قوله ان الله عالم بعلم هو ذاته قادر بقدرة هي ذاته وهلم جراً في باقي الصفات . وانما اخذ هذا القول عن الفلاسفة فانهم يعتقدون ان الذات الالهية بسيطة لا تعدد فيها اصلا وان الصفات ليست وراء الذات معاني قائمة بذات الله بل هي ذاته نفسها . وهذا القول ينكره اهل السنة لانه قريب مما تقوله النصارى في الاقانيم . ومنها قوله في القرآن ان بعضه لا في محل فهو لذلك غير مخلوق كقوله كن وان بعضه في محل فهو لذلك مخلوق كالامر والنهي والخبر والاستخبار

عدد ٢ الجبائية اصحاب ابي علي محمد بن عبد الوهاب

(١) انظر شرح المواقف

الجبائي فهؤلاء اذا عبروا عن الصفات بالاسلوب المصطلح عليه عند المعتزلة وهو قولهم ان الله عالم لذاته فانما يريدون بذلك ان كونه عالماً لا يقتضي صفة هي علم او حال توجب كونه عالما. وقالوا في القرآن انه كلام يخلقه الله في محل كذكر اللوح المحفوظ او جبريل او النبي وهلم جراً وقالوا بنفي رؤية الله بالابصار في الآخرة واتفقوا على اثبات الفعل للعبد خلقاً وابداعاً بقدرة زائدة على سلامة البنية وصحة الجوارح. ومن ارتكب كبيرة سمي عندهم في الحال فاسقاً لا مؤمناً ولا كافراً فان لم يتب عنها ومات عليها خلد في النار. واتفقوا على ان الله تعالى لم يدخر عن عباده شيئاً مما علم انه اذا فعل بهم اتوا بالطاعة والتوبة

عدد ٣ البهشمية اصحاب ابي هاشم بن عبد السلام بن ابي علي الجبائي المذكور ومذهبهم في اكثر المقالات مذهب الجبائية الا في قولهم ان الله عالم لذاته ومعنى هذا القول عند البهشمية انه تعالى ذو حالة هي صفة معلومة وراء كونه ذاتاً موجودة. ولشدة احتراسهم من اضافة فعل الشر الى الله امتنعوا من اطلاق القول بانه يخلق الكافر وذلك لان الكافر عندهم كفر وانسان والله لا يخلق الكفر. وقد اشتهر ابو هاشم هذا

وابوه بالبراعة في علم الكلام (١)

عدد ٤ النظامية اصحاب ابرهيم النظام . هذا الرجل طالع شيئاً كثيراً من كتب الفلسفة فاحدث فرقة جديدة ثم توهم انه لا يستطيع ان ينزه الله حق التنزيه عن كونه خالقاً للشر ما لم يعرّه عن القدرة على ذلك بتة فقال انه تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصي نخالف في ذلك اصحابه لانهم يقولون ان الله قادر على فعل الشرور لكنه لا يفعلها لانها قبيحة وقد مر بك في الفصل الثالث قوله بخلق القرآن

عدد ٥ الحائطية اصحاب احمد بن حائط وقد كان هذا الرجل اولاً من اصحاب النظام ثم لما طالع كتب الفلسفة انفرد عن النظامية بمسائل منها ان عيسى المسيح هو الكلمة القديمة وقد تدرع جسداً وهو الذي يحاسب الخلق في الآخرة. وقال ان للخلق خالقين احدهما قديم وهو الله والاخر محدث وهو المسيح وانت خبير ان هذا القول غير بعيد عما يقول به الاريوسيون . وقال ايضاً بالتناسخ وان النفس تنتقل من جسد الى جسد على التعاقب وان آخر جسد تتقمصه هو الذي يثاب

(١) «قد اختلط على المؤلف ههنا اقوال الهاشمية باقوال البهشمية»

او يعاقب على ما تكون قد كسبته او اكتسبته في كل كرة من كراتها[١] وقال ايضاً ان الله لا يرى في الاخرة باعين الجسد بل باعين العقل

عدد ٦ الجاحظية اصحاب عمرو بن بحر الجاحظ وهو في الاصل من فضلاء المعتزلة بليغ العبارة لطيف البراعة لكنه انفرد عن اصحابه من المعتزلة بمسائل منها قوله في اهل النار انهم لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرون الى طبيعتها وانها تجذب اليها اهلها من دون ان يدخل فيها احد دخولاً . ومنها قوله ان من اعتقد ان الله ربه وان محمداً رسول الله فهو مؤمن ولا تكليف عليه غير ذلك . وقد مر بك في الفصل الثالث قوله في القرآن

عدد ٧ المزدارية اصحاب عيسى بن صبيح الملقب بالمزدار وكانت له مقالات هي من السخف والحمق بمكان لانه

---

[١] « قد احال المؤلف ههنا على كتاب الملل والنحل وليس في النسخة التي وقعت للمعرب من الكتاب المذكور شيء يلمح منه ان الحائطية يعتقدون ان آخر جسد تقمصته النفس هو الذي يثاب او يعاقب على ما تكون قد استحقته في كل كرة من كراتها »

فضلاً عما ذكرناه في الفصل الثالث من مقالته في القرآن قد خالف منكري قدرة الله على فعل الشر مخالفة افضت به الى القول بانه تعالى قادر حتى على الكذب والظلم. وقال من لابس السلطان فقد كفر. ثم شط في التكفير حتى قال ان الناس كافرون في قولهم لا اله الا الله. وسأله ابرهيم بن السندي ذات يوم عن اهل الارض جميعاً فكفرهم فقال له ابرهيم الجنة التي عرضها كعرض السماء لا يدخلها الا انت وثلاثة وافقوك نخزي وانقطع

عدد ٨ البشرية اصحاب بشر بن معتمر استاذ المزدار وكان هذا الرجل من افضل علماء المعتزلة الا انه انفرد عنهم بمسائل منها انه غلا في القول بالتولد اي بقدرة العبد على الفعل حتى جعل الانسان مستقلا بالكلية. وقال ان الله قادر على تعذيب الطفل الا انه لو عذبه لكان ظالماً اياه. وقال ايضاً انه تعالى لا يجب عليه رعاية الاصلح فيفعله لانه لو شاء لكان الناس كلهم مؤمنين. وقال من تاب عن كبيرة ثم راجعها عاد استحقاقه العقوبة الاولى

عدد ٩ الثمامية اصحاب ثمامة بن اشرس النميري وهو

من كبراء المعتزلة لكن انفرد عنهم بمسائل منها قوله ان الفاسق يخلد في النار وقوله ان الافعال المتولدة لا فاعل لها وقوله ان الكفار والمشركين والمجوس والنصارى واليهود والزنادقة والدهرية يصيرون في القيامة تراباً

عدد ١٠ القدرية. اعلم ان هذا اسم المعتزلة القديم وقد سمي به معبد الجهني ومن وافقه لمجادلتهم في القدر من قبل ان يعتزل واصل بن عطاء عن استاذه ثم اختاره بعض المصنفين للمعتزلة لانه ينطبق عن كل فرقهم . والقدرية الذين كلامنا فيهم هم الذين ينكرون القدر ويقولون ان الشر والظلم لا يضافان الى الله بل الى العبد لانه هو خالق افعاله ولذا يثاب او يعاقب عليها لان الله اقدره على فعلها او تركها فانكارهم القدر هو علة تسميتهم بالقدرية ولما رأى بعض العلماء انه لا وجه لتسميتهم باسم مشتق من قول ينكرونه زعم ان اسمهم مشتق من القدرة لا من القدَر وذلك لقولهم بقدرة العبد على افعاله ومهما يكن من هذا فان الذين يسمون المعتزلة بالقدرية انما هم اضدادهم اذ المعتزلة انفسهم يتبرأون من هذا الاسم ويطلقونه على خصومهم اي على الجبرية وهؤلاء ايضاً يتبرأون منه احترازاً عن الوصمة

اذ كان الذم به متفقاً عليه لقول محمد ان القدرية مجوس امته غير انا لا نعلم يقيناً ماذا كان مذهب القدرية ايام محمد. وهـذا الاسم اليق عند المعتزلة بالذين يقولون بالقدر ويجعلون الله فاعل الخير والشر اي بالجبرية الا ان باقي فرق المسلمين متفقون على اطلاقه على المعتزلة لانهم كالمجوس في القول باصلين احدهما الله فاعل الخير وهو في مقابلة النور عند المجوس والاخر ابليس فاعل الشر وهو في مقابلة الظلمة عندهم. اما انا فارى ان هذا لا يصح اطلاقه على المعتزلة لانهم كلهم او جلهم ينسبون ما يفعله العبد من الخير الى الله وما يفعله من الشر الى العبد نفسه ومعنى ذلك عندهم ان للعبد سعةً اي قدرة على فعل الخير والشر وانه هو نفسه خالق افعاله غير مكلف عليها. لكن باقي المسلمين يدعونهم مجوساً لهذه العلة اي لمشابهة مذهبهم لمذهب المجوس في اثبات خالقين للافعال احدهما الله والاخر الانسان نفسه. اما ما كان محمد يقوله في هذه القضية فلا تسهل علينا معرفته وذلك لاننا نراه تارة يصرح بالقدر غاية التصريح لا في قرآنه فقط بل في كثير من احاديثه ايضاً ولا سيما في واحد منها يقول فيه ما معناه ان آدم وموسى تحاجا فقال موسى انت آدم خلقك

الله ونفخ فيك من روحه وامر الملائكة ان يقعوا لك ساجدين واسكنك الجنة فعصيت واخرجتنا منها بمعصيتك مدحورين. فقال آدم انت موسى بعثك الله نبياً واصطفاك بكلامه وخط لك التوراة بيده واتاح لك ان تشافهه افتدري بكم من سنة قبل ان أخلق قد كتب التوراة. قال باربعين سنة قال اما وجدت فيها مكتوباً وعصى آدم ربه فغوى[1] قال بلى. فقال آدم أتلومني على امر قدّره الله علي من قبل ان يخلقني باربعين سنة بل من قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة. فحج آدم موسى. وتارة نراه يقول ما يؤيد حجة المعتزلة في نفي القدر وذلك قوله ان القدرية والمرجئة قد لعنتهم ألسنة سبعين نبياً فسألوه من هم القدرية فقال هم الذين يقولون ان الله قدّر عليهم ان يعصوا ثم يعاقبهم على العصيان. وكذلك قول حفيده الحسن ان الله بعث جده محمداً الى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله. وتصديق ذلك قول القرآن واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون (سورة الاعراف: ٢٧)

---

[1] سورة طه: ١٢١

الثانية من الفرق الكبيرة الصفاتية. وهم يقابلون المعتزلة مقابلة التضاد في اثبات الصفات لله ولا فرق عندهم بين صفات الذات وصفات الافعال ولهذه العلة لقبوا بالصفاتية. واما مذهبهم في ذلك عين مذهب السلف اي المسلمين الاولين فانهم ما كانوا يعرفون هذه الضروب الدقيقة من الفروق. ثم ان الصفاتية ضموا الى مذهب السلف القول بصفات خبرية وهي ما لا بد من ذكره اذا ذكروا اخبار الاولين كاليدين والعينين والوجه وغير ذلك مما لم يفسروه بل قالوا انها صفات وردت في الشرع فنحن نسميها صفات خبرية. ثم لما اقبلوا يأولونها كثر فيها اختلافهم حتى افترقوا فرقاً متعددة فنهم من جرى في تأويلها على ظاهر لفظها فسقط في تشبيه الخالق بالخليقة سقوط قرائي اليهود الذين نهجوا لهم هذا النهج من التشبيه المحض واجراء كلام التوراة على ظاهر اللفظ ومنهم من توقف وقال ما من خليقة تشبه الخالق الا انا لا نعرف معنى اللفظ من قوله الرحمن على العرش استوى وخلقت بيدي وجاء ربك ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الايات وانما نحن مكلفون بالاعتقاد بان الله لا شريك له ولا شبيه. ومن هؤلاء مالك بن

انس قال في ما جاء في القرآن من استواء الرحمن على العرش انه وان كان معناه معلوماً الا ان كيفيته مجهولة وان الايمان به واجب والسؤال عنه بدعة . وقد افترقت الصفاتية فرقاً متعددة كما اسلفنا فنهم

عدد ١ الاشعرية اصحاب ابي الحسن الاشعري وكان اولاً من المعتزلة وتلميذاً للجبائي ثم خالف استاذه على القول بانه يجب على الله ان يراعي الاصلح فيفعله كما تقول المعتزلة فتركه وانشأ فرقة جديدة. وانما دعاه الى مخالفة استاذه مناظرة جرت بينهما وذلك انه سأل استاذه عن ثلاثة اخوة كان احدهم مؤمناً براً تقياً والثاني كافراً فاسقاً شقياً والثالث صغيراً فماتوا فكيف حالهم فقال الجبائي اما المؤمن التقي ففي الدرجات واما الكافر الشقي ففي الدركات واما الصغير فمن اهل السلامة اي لا يثاب ولا يعاقب . فقال الاشعري ان اراد الصغير ان يذهب الى درجات الزاهد هل يؤذن له فقال الجبائي لا لانه يقال ان اخاك انما وصل الى هذه الدرجات بسبب طاعته الكثيرة وليس لك تلك الطاعات . فقال الاشعري فان قال ذلك الصغير التقصير ليس مني فانك ما ابقيتني ولا اقدرتني على الطاعة فقال الجبائي

يقول الباري جل وعلا كنت اعلم انك لو بقيت لعصيت وصرت مستحقاً للعذاب الاليم فراعيت مصلحتك . فقال الاشعري فلو قال الاخ الكافر يا اله العالمين كما علمت حاله فقد علمت حالي فلمَ راعيت مصلحتك دوني فقال الجبائي انما احياه ليعرضه لأعلى المراتب فهو الاصلح اي انه طال عمره عسى يرعوي فيفوز باعلى المراتب اذ كان ذلك هو الاصلح له. فقال الاشعري لِمَ لم يفسح في اجل الصغير اذ كان ذلك اصلح له فضاقت على الجبائي سبله وقال للاشعري قد وسوست . فقال لا بل وقف حمار الشيخ على القنطرة ايْ ان الاستاذ وقع في مشكل فافحم وانقطع

اما مقالات الاشعرية فهي اولاً ان لله صفات هي غير ذاته لكنهم منعوا من التشبيه وهذا مذهب ابن حنبل وداود الاصبهاني وجماعة من ائمة السلف جروا على منهاج الامام مالك وكانوا يحترزون عن التشبيه غاية الاحتراز حتى قالوا من حرك يده عند قراءة خلقت بيدي او اشار باصبعه عند تلفظه بما قاله محمد بان قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن وجب قطع يده وقلع اصبعه . وقالوا انما توقفنا في تفسير الآية وتأويلها

لامرين احدهما المنع الوارد في التنزيل وذلك قوله فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه فنحن نحترز من الزيغ. والثاني ان التأويل امر مظنون بالاتفاق والقول في صفات الله بالظن غير جائز فربما اولنا الاية على غير مراد الله منها. وقد افرط بعضهم في الاحتراز حتى لم يجز تفسير اليد بالفارسية او غيرها ولا الوجه ولا الاستواء ولا ما ورد من جنس ذلك في القرآن بل ان احتاج في ذكرها الى عبارة عبر عنها بما ورد لفظاً بلفظ اي تركها على اصلها العربي وهذا ما يدعونه طريق السلامة.

ثانياً ان لله ارادة واحدة ازلية متعلقة بجميع المرادات من افعاله الخاصة وافعال عباده من حيث انها مخلوقة له لا من حيث انها مكتسبة لهم وانه يريد الجميع خيرها وشرها ونفعها وضرها وكما يريد ويعلم يريد من العباد ما يعلم. وقد امر القلم فكتب في اللوح المحفوظ فذلك حكمه وقضاؤه الذي لا يتغير ولا يتبدل. وتكليف ما لا يطاق جائز عندهم لكنهم وان قالوا بان للانسان قدرة على افعاله فقد قيدوا هذه القدرة تقييداً لا تطيق معه ابتكار الفعل ثم قالوا مع ذلك ان الله اجرى سنته بان يخلق عقيب القدرة الحادثة او تحتها او معها الفعل الحاصل اذا اراده العبد وتجرد له.

وهـذا الفعل يسمى كسباً فهو من الله خلق وابداع واحداث ومن العبد كسب

ولما كان هذا مذهب اهل السنة والجماعة ايضاً رأينا انه لا بأس ان نورد ما قاله فيه غير الشهرستاني وذلك لزيادة ايضاحه قال صاحب شرح المواقف ان افعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله وحدها وليس لقدرتهم تأثير فيها بل ان الله اجرى عادته بانه يوجد في العبد قدرة واختياراً فاذا لم يكن هناك مانع اوجد فيه فعله المقدور مقارناً للقدرة والاختيار فيكون فعل العبد مخلوقاً لله إبداعا واحداثا وللعبد مكسوبا . والمراد بكسبه اياه مقارنته لقدرته وارادته من غير ان يكون هناك منه تأثير او مدخل في وجوده سوى كونه محلا له. وقال آخر وهو من اصحاب الاشعري وبحسب صحيح المذهب ما معناه ان لقدرة العبد الحادثة اثراً في افعاله وهذا ما يدعى بالكسب.وقال ثالث ان الاشعري يقول ان افعال العباد كلها واقعة بقدرة الله مخلوقة له ولا تأثير لقدرة العبد في مقدوره اصلا بل القدرة والمقدور كلاهما واقعان بقدرة الله. وقال الباقلاني ان ذات الفعل واقع بقدرة الله وكون الفعل طاعة كالصلاة او معصية كالزنى صفات

له اي للفعل تقع بقدرة العبد. وقال امام الحرمين والحسن البصري والحكماء ان افعال العباد واقعة بقدرة يخلقها الله فيهم وذلك انه يوجد فيهم القدرة والارادة وهاتان توجبان وجود المقدور. وقال الاسفرايني ان المؤثر في الفعل مجموع قدرة الله وقدرة العبد. وقال صاحب شرح المواقف ما معناه لما رأى السلف فرقا ظاهراً بين الافعال الواقعة بارادة العبد والافعال الاضطرارية الواقعة عن فواعل من الجماد لا علم لها ولا اختيار والزمتهم البراهين ان يسلموا بان الله خالق كل شيء وانه لذلك خالق افعال العباد سلكوا طريقا وسطا ليلائموا بين القضيتين فقالوا ان الافعال واقعة بقدرة الله وكسب العبد يعنون بذلك ان الله اجرى عادته بان يخلق في العبد فعل طاعة اذا صمم على الطاعة او فعل معصية اذا صمم على المعصية فيكون العبد على هذا كالموجد لافعاله وان لم يكن موجداً لها. الا ان هذه الطريق الوسط نفسها محفوفة بالمصاعب عند شرح المواقف لانه لما كان الله خالق التصميم لم يكن للعبد مدخل اصلاً في ايجاد افعاله ولذلك كان السلف يكرهون التعمق في البحث عن هذه القضية لانه يفضي في الغالب اما الى نفي التكليف اي نفي الاوامر

والنواهي او الى الشرك اي جعل شريك لله هو غير الله ويكون هو الفاعل فطريق السلامة عندهم ان يقال انه ليس ثم جبر ولا تفويض بل الامر بين الامرين وان الله قد خلق في العبد قدرة وارادة فلنفسه ما كسب وعليها ما اكتسب وان الاولى ان يسلك في هذا الامر طريق السلف وتترك المناظرة فيه ويفوض علمه الى الله. ثالثا ذهبت الاشعرية الى ان مرتكب الكبيرة المؤمن اذا خرج من الدنيا من غير توبة كان حكمه الى الله فاما ان يغفر له برحمته او يشفع فيه النبي اذ قال شفاعتي لاهل الكبائر من امتي او يعذبه بمقدار جرمه ثم يدخله الجنة برحمته ولا يجوز ان يخلد في النار لما ورد في الحديث انه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان. هذا ما يدعى مذهب اهل السنة والجماعة في هـذه المسألة وانت اذا امعنت فيه النظر وجدته يقابل مذهب المعتزلة مقابلة التضاد. وكل ما مر من مذاهب الصفاتية فانما هو ما يعتقده عقلاؤهم واما جهلتهم فانهم اذ لم يهتدوا لتأويل ما ورد في القرآن من اليد والوجه وغير ذلك من الصفات الخبرية حملوه على ظاهر لفظه حتى

افضى بهم اثبات هذه الصفات الى التجسيم وذلك غاية في السخف والحماقة . فنهم

عدد ٢ المشبهة قالوا ان معبودهم صورة ذات اعضاء وابعاض روحانية او جسمانية ويجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتمكن . وفيهم من مال الى مذهب الحلولية الذين يعتقدون انه يمكن اتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص واحد فقالوا انه يجوز ان يظهر الله في صورة شخص كما كان جبريل ينزل في صورة اعرابي وحجتهم في ذلك قول محمد رأيت ربي في احسن صورة وقول التوراة ان موسى شافهه ربه

عدد ٣ الكرامية اصحاب محمد بن كرام . هؤلاء لم يكتفوا بتشبيه الله بالمخلوقين حتى قالوا انه جسم ومعنى كونه جسما عند مقاربيهم انه قائم بذاته هذا حد الجسم عندهم الا ان بعضهم اثبت له النهاية من الجهات الست واثبتها له آخرون من جهة تحت فقط وجوز عليه غيرهم الملامسة والرؤية اي انه يلامس باليد ويرى بالعين . وقال واحد منهم يقال له داود الجواري ان معبوده جسم ولحم ودم وله جوارح واعضاء من

يدين ورجلين ورأس ولسان وعينين واذنين وهو مع ذلك جسم لا كالاجسام ولا يشبه شيئا من المخلوقات وقال ايضا انه أجوف من اعلاه الى صدره مصمت ما سوى ذلك وله وفرة سوداء وشعر قطط. وانما حداهم الى هذا الكفر الفاحش حملهم على الظاهر والحقيقة ما ورد في القرآن مجازاً من نسبة افعال جسمية الى الله وما جاء في الحديث عن الصورة وذلك قول محمد خلق آدم على صورة الرحمن وقوله وضع يده على كتفي حتى وجدت برد انامله الى غير ذلك مما أجروه على المتعارف في صفات الاجسام وزادوا في ذلك اكاذيب نحلوها محمداً وهم في الحقيقة واضعوها اكثرها اخذوه عن اليهود وذلك ان اليهود دأبهم تشبيه الاله بالبشر وهم الذين قالوا عنه انه بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه. فان قال قائل ان هذا من جملة ما موه به اليهود على محمد واتباعه تمويهاً اذ كانوا كثيراً ما يفعلون ذلك ويلقنونهم الاكاذيب تلقين الحقائق الراهنة وهم لا يعتقدونها لعلمهم بكذبها قلنا الامر كذلك الا ان في كتبهم مع ذلك مقالات تحاكي في سماجتها مقالات المشبهة فقد جاء في التلمود ان الله كان يزأر مزمجراً كالاسد في كل محرس من الليل

ويصرخ واأسفاه لقد دمرت بيتي غادرت هيكل قدسي حتى اكلته النار. اقصيت بنيّ ابعدتهم مع عابدي الاوثان وغير ذلك مما جاء فيه من هذا النمط

عدد ٤ الجبرية وهم يقابلون القدرية مقابلة التضاد وذلك لانهم ينفون عن العبد لا الفعل فقط بل القدرة عليه ايضاً ويضيفون ذلك الى الله واسمهم مشتق من الجبر اي الاضطرار والاكراه لانهم يقولون ان العبد مضطر على افعاله مجبور عليها بقضاء الله الازلي الذي لا يتغير ولا يتبدل ولا محيص عنه للعبد. وهم اصناف فمنهم الغلاة في مذهبهم ولذلك يدعون بالجبرية الخالصة لا يثبتون للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل اصلاً ومنهم الجبرية المتوسطة يثبتون للعبد قدرة لكنهم يقولون انها غير مؤثرة اصلاً وبذلك خالفوا الخالصة الذين يقولون انه لا قدرة للعبد اصلاً لا مؤثرة ولا كاسبة بل لا يوصف العبد بالاستطاعة لشيء اذ هو مجبور في افعاله لا قدرة له ولا اختيار ولا ارادة بل هو بمنزلة الجمادات وان الثواب والعقاب جبر وكذلك التكليف. وهذا مذهب الجهمية منهم وهم اصحاب جهم بن صفوان ومن اقوالهم ايضاً ان الجنة والنار تفنيان بعد

دخول اهلهما فيهما حتى لا يبقى موجود سوى الله ولذلك حملوا قول القرآن خالدين فيها على المبالغة والتأكيد دون الحقيقة في التخليد وذلك على حد ما يقال خلد الله ملك فلان . اما الجبرية المتوسطة فهم الذين يثبتون للعبد قدرة ما كما اسلفنا لكنها غير مؤثرة في الفعل اصلا . فان اثبت احد للقدرة الحادثة اثراً ما في الفعل وسمي ذلك كسباً فهو غير جبري عند الشهرستاني لكنه عند صاحب شرح المواقف وغيره معدود من الجبرية المتوسطة لما عليه هؤلاء من التوسط بين القول بالجبر المحض والقول بالتفويض ولاثباتهم للعبد كسباً في الفعل من غير تأثير فيه . ولما كان هذا مذهب الاشعرية ايضاً حسبوا من المتوسطة وعلى ذكر الكسب لا بأس ان نذكر ماله من المعنى عند متكلمي المسلمين فالكسب في اصطلاحهم هو الفعل المفضي الى اجتلاب نفع او دفع ضر فلا يوصف به فعل الله لانه منزه عن جر النفع او دفع الضر[1]

ومن الجبرية المتوسطة النجارية وهم اصحاب الحسن بن محمد النجار قالوا ان الله خالق افعال العباد خيرها وشرها حسنها

[1] ابن القصاع وتعريفات الجرجاني

وقبيحها والعبد مكتسب لها لكنهم اثبتوا تأثيراً للقدرة الحادثة وسموا ذلك كسباً فوافقوا في ذلك مذهب الاشعري . ومنهم الضرارية اصحاب ضرار بن عمرو قالوا ان الله خالق افعال العباد وان العبد مكتسب لها

ومن اقوال الجبرية ان الله مالك في خلقه يفعل فيهم ما يشاء ولا يسأل عما يفعل فلو ادخلهم باجمعهم الجنة لم يكن حيفاً ولو ادخلهم باجمعهم النار لم يكن جوراً فوافقوا في ذلك الاشعرية ايضاً لان الثواب عند هؤلاء فضل من الله والعقاب عدل منه والطاعة علامة على الثواب المقبل والمعصية علامة على العقاب

عدد ٥ المرجئة وهي صنف من الجبرية قالوا بارجاء الحكم على صاحب الكبيرة المؤمن الى يوم القيامة فلا يقضون عليه بحكم في الدنيا من كونه ناجياً او هالكاً . وقالوا ايضاً لا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وقد اختلف العلماء في سبب تسميتهم بالمرجئة لاختلاف معاني اللفظ المشتق منه اسمهم فعزى كل واحد منهم السبب الى معنى من معاني ذلك اللفظ يناسب مذهباً من مذاهب الفرقة فقال واحد منهم انهم

سموا مرجئة لانهم يرجئون اي يؤخرون رتبة العمل عن رتبة النية اي ان الاعمال عندهم ادنى رتبة من النيات. وقال آخر بل لانهم يعطون الرجاء لقولهم لا يضر مع الايمان معصية . وقال ثالث انهم سموا مرجئة لارجائهم اي لتأخيرهم الحكم على صاحب الكبيرة الى يوم القيامة . وقال غيره بل لتأخيرهم علي بن ابي طالب عن الدرجة الاولى الى الرابعة فانهم وافقوا الخوارج في بعض مسائل الامامة

وهذه الفرقة اربعة اصناف ثلاثة منها اذا وافق اصحابها فرقة الخوارج او القدرية او الجبرية في قول من اقوالهم حسبوا مرجئة تلك الفرقة . والصنف الرابع المرجئة الخالصة وهؤلاء ايضاً خمسة اصناف يدعى اصحاب احدها بالثوبانية وهم اصحاب ابي ثوبان . ويروى عن رجل منهم اسمه مقاتل ابن سليمان انه قال ان المعصية لا تضر صاحب التوحيد والايمان وانه لا يدخل النار مؤمن وان الله يغفر ما دون الكفر لا محالة وان المؤمن العاصي يعذب يوم القيامة على السراط الذي على متن جهنم يصيبه لفح النار ولهبها فيتألم بذلك على مقدار المعصية ثم يدخل الجنة . ونقل عن آخر منهم اسمه بشر بن عتاب انه قال ان

أدخل اصحاب الكبائر النار فانهم سيخرجون منها بعد ان يكونوا عذبوا بذنوبهم واما التخليد فيها فمحال وليس بعدل وهذا عين مذهب الاشعرية كما علمت

الثالثة من كبار فرق المسلمين فرقة الخوارج . اعلم ان كل من خرج على الامام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة سمي خارجياً فالخوارج من هـذا اشتق اسمهم . واول من سمي به اثنا عشر الف رجل خرجوا على علي بن ابي طالب بعد ان حاربوا معه يوم صفين وذلك انهم نقموا عليه انه رضي بالتحكيم في حقه بالخلافة التي كان ينازعه عليها معاوية مع انهـم هم الذين حملوه على هـذا التحكيم اولاً . وكان هؤلاء يدعون ايضاً بالمحكمة وذلك لقولهم ان السبب في خروجهـم على عليّ هو انه حكم الرجال في امر لا حكم فيه الا لله

وانما كان خروجهم في الزمن الاول على امرين احدهما بدعتهـم في الامامة اذ جوزوا ان تكون في غير قريش بل جوزوا ان يكون الامام عبداً اذا كان عادلاً تقياً مستجمعاً ما لا بد منه من شروط الامامة فان غير السيرة وعدل عن الحق وجب عزله او قتله . وجوزوا ان لا يكون في الدنيا امام

اصلا . ثانيهما انهم خطأوا علياً لتحكيمه الرجال في امر لا حكم فيه الا لله كما مر بل جاوزوا تخطئته الى تكفيره فلعنوه وفي سنة ثمان وثلاثين للهجرة اي بعد خروجهم بسنة قاتل عليّ من بقي منهم مصراً على عصيانه وكانوا اربعة آلاف فاستأصلهم عن آخرهم في قول بعض المؤرخين الا ان الشهرستاني يقول انه افلت منهم تسعة فهرب اثنان منهم الى عمان واثنان الى كرمان واثنان الى سجستان واثنان الى الجزيرة والتاسع الى تل مورون باليمن فاظهروا بدعتهم في هذه المواضع وهي باقية فيها الى يومنا هذا (اي يوم المؤلف)

وكبار فرق الخوارج غير المحكمة المذكورين ست وهم على اختلافهم في كثير من المسائل يجمعهم القول بالتبرؤ من عثمان وعليّ ويقدمون ذلك على كل طاعة ولا يصححون المناكحات الا عليه ويكفرون اصحاب الكبائر ويرون الخروج على الامام اذا خالف السنة حقاً واجبا ومن اشهر فرقهم فرقة يقال لها الوعيدية من الوعيد وهم يقابلون المرجئة مقابلة التضاد قالوا بتكفير صاحب الكبيرة وتخليده في النار وان كان مسلما وهذا اول ما سبب ظهور المعتزلة كما اسلفنا الا ان رجلا من النظامية

اسمه جعفر بن مبشر تجاوز الوعيدية في شطط الحكم على اصحاب الكبائر حتى قال ان سارق الحبة الواحدة فاسق منخلع من الايمان

الرابعة من كبار فرق المسلمين الشيعة وهم اضداد الخوارج والشيعة اسم يعم كل فئة تقوم بنصرة مذهب او رجل لكن خص في عرفهم باصحاب علي بن ابي طالب لانهم شايعوه وقالوا بامامته وخلافته نصا ووصية وزعموا ان الامامة لا تخرج من ولده فان خرجت فبظلم يكون من غيره او بتقية من عنده . وقالوا ليست الامامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الامام بنصبهم بل هي ركن الدين ولا يجوز للرسل اغفاله ولا تفويضه الى العامة . ومنهم فرقة تدعى بالامامية قالوا ليس في الدين امر اهم من تعيين الامام والدين في معرفة الامام فقط

والشيعة خمس فرق كبيرة تنقسم كل واحدة منها الى فرق متعددة يعسر حصرها حتى زعم بعض المسلمين ان ما قاله محمد عن افتراق امته الى ثلاث وسبعين فرقة انما يراد به فرق الشيعة وحدها ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص اي ان تعيين الامام واجب نصا والقول بثبوت عصمة الائمة وجوبا

عن الكبائر والصغائر والقول بالتولي والتبرؤ قولا وفعلا وعقداً الا في حالة التقية اي انه يجب على كل مسلم ان يصرح بانه يتولى هذا الانسان ويتبرأ من ذاك قولا وفعلا وعقداً الا في حالة الخوف . غير ان الزيدية وهم اصحاب زيد بن علي الملقب بزين العابدين من ذرية علي بن ابي طالب خالفوا الشيعة في مسألة التولي والتبرؤ

اما المسائل التي اختلفت فيها فرق الشيعة فمنها ما يقارب مذهب المعتزلة ومنها ما يقارب مذهب المشبهة ومنها ما يقارب مذهب اهل السنة والجماعة . فمن يقارب اهل السنة والجماعة فرقة تنسب الى محمد الباقر وهو ابن آخر لزين العابدين المقدم ذكره . قال في الارادة ان الله اراد بنا شيئاً واراد منا شيئاً فما اراده بنا طواه عنا وما اراده منا اظهره لنا فما بالنا نشتغل بما اراده بنا عما اراده منا . وقال في القدر هو امر بين امرين لا جبر ولا تفويض . ومنهم الخطابية اصحاب ابي الخطاب محمد بن ابي زينب الاسدي زعموا ان الدنيا لا تفنى وان الجنة هي ما يصيب الناس في الدنيا من خير ونعمة وعافية وان النار هي ما يصيبهم فيها من شر ومشقة وبلية فلا عجب بعد هذا ان استحلوا

الخمر والزنى وسائر المحرمات ودانوا بترك الصلاة والفرائض

وقد شط بعض الشيعة في تعظيم عليّ وذريته حتى خرجوا عن حد المعقول نعم ان فيهم طائفة هم اقل شططاً في ذلك من سائرهم الا ان الغلاة منهم (وسموا بذلك لغلوهم في تعظيم الائمة) قد افرطوا في تعظيمهم حتى اخرجوهم من حدود الخليقة وحكموا فيهم باحكام الالهية فربما شبهوا احدهم بالاله وشبهوا الاله بالخلق وهم على طرفي الغلو والتقصير لانهم ألهوا الانسان وجسموا الاله . وقد كثرت فرقهم وتعددت اسماؤهم بتعدد الامصار فنهم السبائية اصحاب عبد الله بن سبا كان يهودياً فاسلم وكان وهو يهودي يقول في يشوع بن نون ما صار يقوله وهو مسلم في علي بن ابي طالب وذلك انه سلم عليه بقوله له انت انت اي انت الاله. ومنه تشعبت اصناف الغلاة فكان بعضهم يقول في عليّ ما قاله فيه صاحب فرقتهم او ما اشبهه وبعضهم يقول في ذرية علي ثم انهم زعموا ان علياً حي لم يقتل وانه سينزل في ظلل الغمام الى الارض فيملأها عدلا كما ملئت جوراً. وعلى كثرة اختلافهم يجمعهم القول بالتناسخ وبالحلول ويريدون بالحلول ان الله قائم بكل مكان ناطق بكل لسان ظاهر بشخص من اشخاص

البشر ولذا قال الفريق منهم ان الائمة انبياء ثم الهوهم . ومنهم النصيرية والاسحاقية قالوا بظهور الروحاني بالجسد الجسماني كما تظهر الملائكة والشياطين بصور الناس . وقالوا ان الله ظهر بصورة اشخاص من الناس ولما لم يكن بعد محمد احد افضل من علي ثم بعده اولاده خير البرية ظهر الله بصورتهم ونطق بلسانهم واخذ بايديهم ولذا اطلقوا عليهم اسم الالهية ويروون لتأييد هذا الكفر والقول الفاحش احاديث متعددة عن محمد وينسبون الى علي نفسه معجزات كثيرة ليثبتوا انه خير البرية ومن جملة هذه المعجزات قلعة باب خيبر[1] لا بقوة جسدية وهذا ادل دليل عندهم على ان فيه طرفاً من الالهية والقوة الربانية والا فهو الذي ظهر الاله بصورته وخلق بيده وامر بلسانه ولذا قالوا انه كان موجوداً قبل خلق السماوات والارض فبلغ من كفرهم انهم

---

[1] وذلك في غزوة خيبر وتلخيص القصة على ما حكاها ابو رافع مولى محمد ان احد يهود خيبر ضرب علياً وهو يقاتل فطرح ترسه فقلع علي باباً كان على حصن البلد فتترس به او لم يزل يقاتل وهو في يده حتى فتح الله عليه ثم القاه من يده قال ابو رافع فلقد رأيتني في سبعة نفر انا ثامنهم نجهد على ان نقلب ذلك الباب فما نقلبه . «قال المعرب قد شهد ابو رافع بمعجزة علي فمن يشهد لابي رافع يا ترى ؟»

اخذوا ما جاء في كتب النصارى عن المسيح فقالوه في علي وليس هذا الغلو الفاحش في وصف الائمة بصفات الآلهة ولا بجور الائمة انفسهم في انتحال هذه الصفات مما تفردت به الشيعة بل معظم فرق المسلمين بهم مس من هذا الجنون وذلك ان فيهم ولا سيما في الصوفية منهم رجالاً متعددين زعموا انهم من المقربين الى الحضرة الالهية وادعوا بمكاشفات غريبة صدقها منهم العوام . قال الغزالي قد انتهى قوم في الشطح (لعله يريد الشطط) والدعاوي العريضة الى دعوى الاتحاد بالله وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب فيقولون قيل لنا كذا وقلنا كذا ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي قتل وصلب لاجل اطلاقه كلمات من هذا الجنس ويستشهدون فيه بقوله انا الحق ربما حكي عن ابي يزيد البسطامي انه قال سبحاني سبحاني وهذا فن من الكلام قد عظم ضرره في العوام حتى ترك جماعة من اهل الفلاحة فلاحتهم واظهروا مثل هذه الدعاوي فان هذا الكلام يستلذه الطبع اذ فيه البطالة من الاعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والاحوال فلا تعجز الاغبياء عن دعوى ذلك لانفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ومهما أنكر

عليهم ذلك لم يعجزوا ان يقولوا هذا انكار مصدره العلم والجدل والعلم حجاب والجدل عمل النفس وهذا الحديث لا يلوح الا من البطن بمكاشفة نور الحق . فهذا الحق ومثله ما قد استطار في البلاد شرره وعظم في العوام ضرره حتى من نطق بشيء منه فقتله افضل في دين الله من احياء عشرة[1] انتهى

وهذا آخر كلامنا في كبار فرق المسلمين التي ظهرت في صدر الاسلام وقد ضربنا صفحاً عن فرقهم الحديثة العهد لان مصنفيهم لم يلتفتوا اليها او قل ما ذكروها فليست مما نحن فيه ولا بأس مع ذلك ان نلمع ههنا بما لم يزل الى يومنا هـذا بين السنية والشيعة من الشقاق العظيم الذي يقويه كل واحد من الفريقين ببغض شديد وغيرة ما عليهما من مزيد . وهـذا الشقاق قد نشأ في اول الامر عن اختلاف في امور مصلحية[2] ثم خامره حب المراء والمماحكة والمشاحة فانتقل من طور الى طور حتى اصبح كل من الفريقين يشنأ الآخر ويضلله بل يكفره ويقول عن اصحابه انهم ابعد عن الحق من النصارى واليهود

---

[1] احياء علوم الدين [2] «في الاصل سياسية»

اما اهم المسائل التي يختلفون فيها فهي اولاً ان الشيعة يتبرأون من الخلفاء الثلاثة الاولين اعني ابا بكر وعمر وعثمان ويعدونهم دخلاء غاصبين والسنية يعدونهم خلفاء وائمة بالحق ويعظمونهم . ثانياً ان الشيعة يجعلون علياً نداً لمحمد حتى لا تقول انهم يقدمونه عليه والسنية ينكرون ان علياً او احداً من الانبياء كائناً من كان يمكن ان يكون نداً لمحمد . ثالثاً ان السنية يقرفون الشيعة بتحريف القرآن واهمال اوامره ونواهيه والشيعة يقرفون السنية بمثل ذلك. رابعاً ان السنية يعتبرون السنة وهي الاحاديث التي تروى عن محمد حجة يرجع اليها في امور الدين والدنيا والشيعة ينبذونها ظهرياً وهي عندهم موضوعة فلا يعتمد عليها . فهذه المشاحات وغيرها من المماحكات التي هي اقل منها اهمية قد نشأ عنها ما نراه اليوم من المشامسة والمناوأة بين الترك الذين هم سنية والفرس الذين هم من الشيعة العلوية

ومما يقضي بالعجب ان شقاقاً مثل هذا بين الترك والفرس على شهرته لم يبلغ الفيلسوف اسفنوزا[1] هذا ان لم نقل انه لم يسمع

---

[1] هو فيلسوف يهودي وقد ذاع صيته جداً بين فلاسفة عصره. ولد في امستردام من بلاد هولاندا سنة ١٦٣٢ للميلاد ومات سنة

بشقاق غيره بين فرق المسلمين لكنه من البين انه لم يدر بشيء من ذلك البتة والا لما جعل السبب في ايثاره نظام الدين المحمدي على نظام النصرانية ان الاسلام لم يقع فيه شقاق منذ قام ! !

هذا ولما كان نجاح امرئ في مسعاه مما يزين لغيره ان يخطو على أثره لم يلبث ما بلغ اليه امر محمد من الشوكة وبعد الصيت بمجرد دعوى النبوة ان سوّل لنفر آخرين ان يطمعوا في البلوغ الى مبلغه اذا ادعوا مثل دعواه . فاعظم مباريه في النبوة رجلان يقال لاحدهما مسيلمة وللآخر الاسود العنسي ويلقبهما المسلمون بالكذابين . وكان مسيلمة من وجوه بني حنيفة اهل اليمامة ولما كانت سنة تسع للهجرة قدم على محمد بوفد من قومه واظهر الاسلام لكنه لما عاد الى بلده نزعت نفسه الى مشاطرة محمد الملك فادعى النبوة في السنة التالية وزعم انه بعث مع محمد لرد الناس عن الوثنية والشرك الى عبادة الاله الحق وجعل يسجع مضاهياً للقرآن لكن لم يبق مما لفقه من الوحي سوى فقرة واحدة وهي قوله لقد انعم الله على الحبلى اخرج منها نسمة تسعى

١٦٧٧ وله مصنفات كثيرة في الفلسفة والتاريخ

من بين صفاق وحشا[١] ولما صارت له فئة كبيرة من بني حنيفة حسب نفسه نداً لمحمد فكتب اليه في المشاطرة هكذا من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله اما بعد فان الارض نصفها لي ونصفها لك غير ان محمداً وجد نفسه ارسخ قدماً في الملك من ان يحتاج الى شريك فيه فكتب اليه من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب اما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[٢] الا ان شوكة مسيلمة قويت في الاشهر التي مرت بين هذه الحادثة وموت محمد واستفحل امره فاضطر ابو بكر خليفة محمد ان يوجه اليه جيشاً كثيفاً عقد عليه لخالد بن الوليد وهو قائد ماهر في فنون الحرب فالتقى الفريقان واشتد القتال بينهما حتى احمرت الارض بالدماء وقتل مسيلمة قتله عبد اسود اسمه وحشي بحربة كان قد قتل بها حمزة عم محمد يوم

---

[١] من تاريخ ابن العبري [٢] انظر سورة المائدة :٥٩ وتفسيرها للبيضاوي . قال المعرب مسيلمة اصل اسمه مسلم فصغره محمد للتحقير ويبعد ان يكون صاحب الاسم رضي بذلك ودعا به نفسه ويترتب على هذا ان قصة المراسلة كلها موضوعة كغيرها من حكاياتهم الباردة الواهية ولو انهم استعملوا في تلفيق الاكاذيب شيئاً من البراعة التي استعملوها في التمييز بين نواقض الوضوء لكانت مصنفاتهم اقل سخفاً

احد وكانت الكرة للمسلمين فقتلوا من اصحاب مسيلمة عشرة آلاف رجل ورجع من بقي منهم الى الاسلام[1] واما مباريه الثاني فهو عيهلة العنسي الملقب بالاسود كان زعيماً على عشيرته وغيرها من عشائر بني مذحج[2] وكان مسلماً فارتد وادعى النبوة في السنة التي قبض فيها محمد وكان يقال له ذو الحمار لانه قال يأتيني ذو حمار . ثم زعم انه كان يأتيه بالوحي ملكان اسم احدهما سحيق (كذا) واسم الآخر شريق (كذا) وكان يشعبذ ويري الناس الاعاجيب ويخلبهم بمنطقه فعظم بذلك امره عند العامة وقويت شوكته حتى غلب على نجران وعمل الطائف . ولما مات باذان وكيل محمد على اليمن استولى على ملكه وقتل ابنه وتزوج بامرأته وكان قد قتل قبل ذلك اباها خال فيروز الديلمي فلما بلغ ذلك محمداً ارسل الى الابناء يأمرهم بالبطش بالاسود غيلة او مصادمة وان يستنجدوا رجالاً من همدان وكان لقيس بن عبد يغوث على الاسود ترة فاجتمع به جماعة ممن راسلهم محمد وانضم اليهم فيروز الديلمي وزوجة الاسود التي كان قد قتل اباها كما

---

[1] تاريخ ابن العميد المعروف بالشيخ المكين [2] وفي رواية البيضاوي مدلج

قلنا فتحالفوا ونقبوا عليه البيت ليلاً فاخذه فيروز واحتز رأسه وكان الاسود في اثناء ذلك يخور خوار الثور فسمع الحرس خواره وابتدروا الباب فردتهم زوجته وقالت ان النبي يضطرب لهبوط الوحي عليه ! [1] وكان مقتله في الليلة التي قبض محمد من غدها . فلما لاح الفجر امر المتحالفون المؤذن فقال اشهد ان محمداً رسول الله وان عيهلة كذاب ووجهوا من ساعتهم رسلاً الى محمد يخبرونه بما تم الا ان رسولاً من السماء سبقهم واخبر النبي بالامر فاخبر به اصحابه [2] وكان ذلك قبل موته بقليل ولم يصل الكتاب بقتل الاسود الا بعد ان بويع لابي بكر بالخلافة وكان من اول خروج الاسود الى ان قتل اربعة اشهر. وجاء في الحديث ان محمداً قال للذين كانوا عنده لما انبأه الملاك بقتل الاسود لن تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالا غير مسيلمة والاسود كل منهم يزعم انه نبي

---

(1) «اذ كان لا بد للنبي عندهم من الاضطراب وغير ذلك من الاحوال التي تحاكي احوال الصرع وستقف في التذييل على السبب الذي ساقهم الى الزعم ان كل نبي ينزل عليه الوحي فلا بد له ان يضطرب ويخور» (2) كذا زعم ابو الفداء وغيره من المؤرخين

وفي هـذه السنة ايضاً وهي الحادية عشرة للهجرة تنبأ طليحة بن خويلد وسجاح بنت المنذر وذلك بعد موت محمد وكان طليحة بن بني اسد فتبعه قومه وانضم اليه كثير من غطفان وطي فسار خالد بن الوليد لقتالهم وهزمهم حتى اضطر طليحة وفل عسكره ان ينصرفوا الى الشام ولم يزل طليحة مقيماً بالشام الى وفاة ابي بكر ثم اتى الى عمر بن الخطاب فبايعه ورجع الى بلاده وقومه . وكانت سجاح وتكنى بام صادر تميمية زوجة مخرق من اليمامة اسمه كهدلة فتنبأت وتبعتها قبيلتها وآخرون . ولما رأت ان اليق البعولة بها من كان نبياً مثلها صارت الى مسيلمة وتزوجت به واقامت عنده ثلاثاً ودار بينهما من بذيء الحديث ما عدلنا عن نقله[1] ثم انصرفت الى قومها ولم اجد من ذكر آخر امرها

وظهر في السنين التالية جم غفير من الدجالين فصار امر معظمهم الى البوار سريعاً الا ان بعضهم عظم شأنه وصارت له شيعة بقيت دهراً بعد موته وانا ذاكر لك بالايجاز خبر نفر من اشهرهم مراعياً في ذلك ترتيب زمان ظهورهم

---

[1] وقد اورده ابن الشحنة في تاريخه

في خلافة المهدي وهو ثالث الخلفاء العباسيين خرج الحاكم[1] ابن هاشم واصله من مرو بخورستان كان كاتباً لعاملها ابي مسلم ثم صار في جملة الجند بها وذهب منها الى ما وراء النهر فادعى هنالك النبوة وهو الذي يدعوه منصفوا المسلمين بالمقنع والبرقعي لانه اتخذ قناعاً من ذهب او برقعاً يستر به وجهه وذلك لانه كان دميما اعور طارت احدى عينيه في الحروب الا ان اصحابه يزعمون ان السبب الذي حمله على تقنيع وجهه هو عين السبب الذي حمل موسى على ذلك اي حتى لا يبهر بسنى طلعته ابصار الناظرين . فاتبعه خلق كثير من نخشاب وكش ممن غلب على عقولهم بسحره وشعبذته حتى انزلوها منزلة الخوارق . وكان ادهى ما خدعهم به انه اطلع لهم قمراً من بئر رأوه عدة ليال ولذا دعي بالفارسية سازند ماه اي صانع القمر . ولم يكتف هـذا المخرق الفاجر بدعوى النبوة حتى زاد عليها دعوى الربوبية فقال ان الالهية حلت فيه استناداً الى ما تقوله الغلاة المتقدم ذكرهم فان مذهبهم ان الالهية حلت في الانبياء والصالحين متنقلة في واحد واحد منهم من لدن آدم فنازلاً .

(١) واسمه عطاء

وكان ابو مسلم نفسه من اهل هذا المذهب لكن المقنع انفرد بان زعم ان آخر من حلت فيه الالهية ابو مسلم هـذا ولما مات ابو مسلم انتقلت اليه . ثم قويت شوكته بما فتحه من الحصون والمعاقل وكان امر شيعته يستفحل من يوم الى يوم حتى اضطر الخليفة ان يوجه اليه جيشاً فاعتصم منه باحصن قلاعه وكان قد احسن تهيئتها للحصار ثم بث دعاته في البلاد يقولون للناس انه يحيي الموتى ويعلم الغيب . فلما اشتد عليه الحصار وايقن بالهلاك دس في الخمر سماً وسقى اهله ومن كان معه في القلعة فماتوا واضرم ناراً عظيمة فاحرق جثثهم وثيابهم وكل ما في القلعة من زاد ودابة ثم القى نفسه في النار مخافة ان يظفر العدو بجثته وقيل بل القى نفسه في وعاء نفط او غير ذلك من السوائل المفنية فتلاشى جسده كله الا شعر رأسه ولما دخل عسكر المهدي القلعة لم يجدوا فيها سوى حظية من حظايا المقنع كانت قد شعرت بما دبره فتوارت وهي التي اخبرت بالامر . وكان لهذه الحيلة من التأثير في شيعته ما قدره وتحراه وذلك انه كان يقول لهم ان روحه اذا فارقت جسده تحولت الى قالب رجل اشمط على برذون اشهب وانه يعود اليهم بعد كذا سنة ويملكهم الارض .

فتوقع نجاز هذا الوعد هو الذي ابقى الشيعة في الوجود دهراً طويلاً بعد هلاك صاحبهم . وكانوا في ايام ابن العبري المؤرخ يدعون بالمبيضة لانهم كانوا يلبسون البياض مخالفة فيما يقال للخلفاء العباسيين الذين كانت راياتهم وملابسهم سوداء[١] وكان هلاك المقنع سنة ١٦٢ او ١٦٣ للهجرة على خلاف بين المؤرخين[٢]

وفي سنة ٢٠١ للهجرة خرج بابك الخرمي ولقب بذلك اما نسبة الى خرم وهي رستاق اردبيل باذربيجان او لانه وضع دين مرحٍ وبطر وهذا تفسير خرم بالفارسية فزعم انه نبي ولا ادري اي دين جاء به وانما يقال انه لم يكن في شيء من الاديان المعروفة في المشرق وقتئذ . ثم دعاة هذا الملحد باذربيجان والعراق العجمي واستفحل امره حتى قوى على حرب المأمون فهزم عسكره غير مرة وقتل من قواده جماعة ومنهم واحد قتله بيده وعظم امره بالنصر حتى اضطر المعتصم لما افضت الخلافة

(١) وكانت هذه الشيعة باقية الى ايام ابي الفرج المطبب المعروف بابن العبري صاحب التاريخ وذلك بعد موت المقنع بزهاء خمسمائة سنة

(٢) ابن العبري وابن الشحنة والطبري وابن الاثير وصاحب لب التاريخ

اليه بعد المأمون ان يجهز عليه جيوش المسلمين باسرها ويعقد عليها للافشين فاستظهر عليه الافشين وفتح حصونه واحداً بعد واحد بالمصابرة بعد ان لقي من مدافعة حماتها ما لقي . ثم انتحى بابك الى اكبر حصونه فحصره فيه الافشين وفتحه فاحتال بابك وهرب منه الى بلاد الروم في زي التجار ومعه اهله ونفر من خواصه فاخذ منها غدراً. وذلك ان البطريق سهل بن سنباط الارمني عرفه فغره بما عرضه عليه من الخدمة وابداه له من امارات التبجيل حتى استرسل اليه وصار في يده فحياه بتحية الملوك . ثم جلس بابك للطعام فجلس الارمني الى جانبه فسأله بابك وهو متعجب من فعله كيف تؤاكلني ولم يؤذن لك فقال سهل لقد اخطأت ايها الملك العظيم فمن انا حتى اؤاكلك. وامر في الحال باحضار قين فلما حضر قال لبابك بتهكم قبيح امدد رجليك ايها الملك العظيم كي يقيدهما هذا الحداد . فافتدى نفسه بمال طائل فلم يقبله منه واشخصه الى الافشين بعد ان ركب الارمن من امه واخته وامرأته الفاحشة بين يديه كما كان يفعل بحرم اسارا‌ه . فلما حصل عند الافشين حمله الى المعتصم فعذب وقتل اشنع قتلة

وكان قد تأتى لهذا الرجل ان يقاوم الخلفاء ويقوم في وجه جيوشهم مدة عشرين سنة وكان فتاكاً مولعاً بالتمثيل وبلغ عدد الذين قتلهم مئتين وخمسين الفاً او يزيدون وكانت عادته ان لا يدع رجلا ولا امرأة ولا صبياً ولا طفلا مسلماً او ذمياً الا قتله[1] اما شيعته فيظهر انهم تشتتوا بعد مقتله وصار امرهم الى البوار لانه قل ما يذكرهم بعد ذلك احد من المؤرخين

وفي سنة ٢٣٥ للهجرة ظهر رجل اسمه محمود بن فرج فادعى النبوة وزعم انه موسى الكليم وقد نشر من الموت واحسن المخرقة والتمويه على الناس حتى صدقته جماعة ثم جيء به الى الخليفة واصحابه معه فاستنطقه وسمع سفاهة حديثه فامر اصحابه ان ان يصفعه كل واحد منهم من عشراً ثم ضربه حتى مات وحبس اصحابه فلم يزالوا في المحبوس حتى ارتدوا عن غيهم[2]

اما القرامطة فهم شيعة شديدة العداوة للمسلمين وكان اول هرج احدثوه سنة ٢٧٨ وذلك في اواخر خلافة المعتمد. اما اصلهم فلا يعرف حق المعرفة وانما دار على ألسنة الناس ان

---

(1) ابن العبري (2) ابن الشحنة

فقيراً اسمه قرمطة قدم من ناحية خوزستان الى ضواحي الكوفة واظهر الزهد والتقشف وزعم ان الله فرض عليهم خمسين صلاة في اليوم بليلته وكان يدعو الناس الى امام من آل البيت اي من ذرية محمد فلم يزل على ذلك حتى استجاب له جمع كثير فاختار منهم اثني عشر نقيباً بعدد الحواريين وامرهم ان يدعوا الناس الى مذهبه . فلما رأى والي تلك الناحية ان الناس اشتغلوا عن اعمالهم ولا سيما عن الفلاحة بما فرضه عليهم قرمطة من الصلوات الخمسين كل يوم قبض عليه وحبسه في حجرة من داره واقسم ليقتلنه فسمعت جارية له بالقسم فرقت للرجل ولما نام مولاها اخذت مفتاح الحجرة واطلقته ثم اعادت المفتاح الى مكانه فلما اصبح الوالي طلب محبوسه فلم يجده وشاع الخبر في الناس وافتتن به اهل الناحية اذ قالت شيعته ان الله رفعه . ثم ظهر في ناحية اخرى ولقي جماعة من اصحابه وغيرهم فزعم انه لا يمكن ان يناله احد بسوء لكنه خاف مع ذلك على نفسه فخرج الى الشام ثم لم يوقف له على خبر

اما اصحابه فكان عددهم يتزايد واخذوا يزعمون ان قرمطة نبي حق وانه وضع لهم ديناً جديداً غير فيه رسوم الصلاة

وكيفية قضائها وسن لهم صوماً جديداً واباح لهم الخمر وحلل لهم كثيراً مما حرم القرآن وحملوا اوامر القرآن على غير ظاهرها فقالوا ان الصلاة رمز الى الطاعة وان الصوم رمز الى الصمت اي طي قواعد دينهم عمن ليس منهم وان الزنى رمز الى الكفر فمن باح منهم باسرار دينه او لم يطع زعيمه طاعة عمياء فقد كفر. وجاءوا بكتاب من جملة ما فيه بسم الله الرحمن الرحيم يقول الفرج بن عثمان وهو من قرية نصرانة ان المسيح تصور له في جسم انسان وقال له انك الداعية وانك الحجة وانك الناقة وانك الدابة وانك يحي بن زكريا وانك روح القدس[١] ثم اخذ امرهم بعد تلك السنة يفشو ولقي الخلفاء والمسلمون كافة من قادتهم شديد العناء دهراً طويلا وبغوا واعتدوا في العراق وبلاد العرب والشام والجزيرة وصار لهم دولة ضخمة كان اوجها اي معظم شأنها ايام زعيمهم ابي طاهر وهو الذي اشتهر باستيلائه على مكة وشنيع افعاله بالكعبة[٢] ثم اخذوا من بعده في الانحطاط حتى انقرضوا بتة

اما الاسماعيلية ويعرفون بالملاحدة ايضاً ويدعوهم مؤرخو

---

[١] ابن العبري [٢] كما تقدم في الفصل الرابع

حروب الصليب بالحشاشين فهم قريب من القرامطة ان لم يكونوا منهم وقد وافقوهم في اشياء كثيرة منها شديد عداوتهم لمن خالفهم في الدين ولا سيما للمسلمين ومنها شدة انقيادهم لزعيمهم حتى صاروا يقدمون بامره على القتل غيلة[1] ولا يحجمون عن فعل ما يأمرهم به من ذلك مهما كان فيه من الخطر ومنها تشيعهم لامام من ذرية علي ابن ابي طالب وغير ذلك

وفي سنة ٤٨٣ للهجرة استولى زعيمهم الحسن بن صباح على الناحية المعروفة بالجبل من العراق العجمي وبقيت في يد ذريته مئة واحدى وسبعين سنة حتى اهلكهم السلطان هولاكو التتري[2]

واما الباطنية وهذا اسم القرامطة والاسماعيلية عند بعض المؤرخين فهم فرقة دانت بدين القرامطة وانتشرت في جهات كثيرة من المشرق وانما دعوا بالباطنية لما ادعوه من علم الباطن

وممن يذكر في هذه الطبقة ابو الطيب احمد المتنبي الجعفي فانه بسبب شعره اشهر من ان نهمل ذكره وهو في شعراء

---

(١) «ولذا صار الافرنج يدعون كل القتلة غيلة Assassins»

(٢) ابن العبري

المولدين من الطبقة الاولى فصاحة وبلاغة ولا مباري له في ذلك سوى ابي تمام ولشدة ما كان لخاطره من الحدة ولمعانيه من علو الطبقة توهم انها الهام او ظن انه يقدر ان يحمل العامة على عدها الهاماً فزعم انه نبي ولقب لذلك بالمتنبي وبه عرف واشتهر وكان له في العلم والادب باع طويل ونجح في ما ادعاه من النبوة بعض النجاح واتبعه اناس من عرب البادية وخصوصاً قبيلة كلب فخرج اليهم لؤلؤ عامل الاخشيد صاحب مصر والشام وصدهم عما كانوا فيه وحبس نبيهم طويلاً ثم استتابه واطلقه فلم يشتغل بعد ذلك بغير الشعر ورزق به السعادة التامة لما كان له من المكانة والحظوة عند كثير من الامراء وفي آخر امره قصد بلاد فارس ومدح سلطانها عضد الدولة بن بويه الديلمي فاجزل جائزته ولما رجع من عنده قاصداً الكوفة عرض له بعض الاعراب في موضع يقال له الصافية بالقرب من النعمانية على شاطئ دجلة يريدون سلب ما معه من الاموال فوقعت بينه وبينهم مقاتلة اجلت عن قتل المتنبي وابنه محسد وغلامه مفلح وكان ذلك سنة ٣٥٤ للهجرة [١]

---

[١] ابن خلكان

وآخر من اذكره من المتنبئين رجل تركماني ظهر في اماصية سنة ٦٣٨ ودعا نفسه بابا فاستغوى جماعة من الرعاع بما كان يخيل اليهم من الحيل والمخاريق وكان له تلميذ اسمه اسحق فانفذه ليدعو التركمان الى الانضمام اليه فوافى رستاق سميساط واظهر الدعوة لبابا فاتبعه خلق كثير من التركمان خاصة وكثف جمعه حتى بلغ عدد من معه ستة آلاف فارس سوى الرجالة فشرعوا يحاربون من خالفهم ولم يقل كما يقولون لا اله الا الله بابا رسول الله[1] وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين والنصارى فتحالف هؤلاء آخر الامر على قتالهم فقاتلوهم وكسروهم ووضعوا فيهم السيف فلم ينج منهم سوى الشيخين اعني بابا واسحق فاخذوهما ثم قتلوهما صبراً

ولولا خوفي من ان يكون المطالع قد مل كما مللت انا لذكرت من المتنبئين الذين ظهروا في الاسلام بعد محمد ما يتم العدد الذي انبأ به وهو ثلاثون ولكني اكتفي بهذا القدر في هذه المقدمة فلعلها قد طالت طولاً يخرجها عن حد المقدمات

---

(1) ابن العبري

تذييل

على الثلاثة فصول الاولى من المقالة

﴿ للمعرب ﴾



تذييل

على الثلاثة فصول الاولى من مقالة في الاسلام

(للمعرب)

تذييل الفصل الاول

لما كانت مقالة المصنف التي مرت انما يراد بها مجرد الخبر لا البحث والنظر لم يتصدَّ فيها لتخطئة ما جاء به مؤرخو المسلمين ومفسرو القرآن من اخبار العرب البائدة والمستعربة مما هو محض اقاصيص يهودية تهافتوا عليها من غير استثبات وتناقلها خلفهم عن سلفهم وشحنوا بها تواريخهم وتفاسيرهم حتى صارت لا يخلو منها كتاب ولكنه اوردها على سبيل الحكاية في جملة ما نقله عنهم واكتفى بان نبه المطالع في الفصل الاول من المقالة الى ان ما يذكره من انساب العرب ان هو سوى زعم مؤرخيهم وان العهدة به عليهم اذ ليس عن العرب البائدة اخبار يركن اليها وليس لمن يسمونهم بالعرب المستعربة ما يثبت

دعواهم انهم من ذرية اسمعيل

ولولا ان القرآن ذكر تلك الاقاصيص تلميحاً وجاء المفسرون بعده لتأييد مزاعمه بحكايات تزيد تلك الاقاصيص سخفاً وتلقي على حقائق التاريخ ستاراً من الباطل لم يكن هناك ما يدعو الى الرد عليهم وبيان ما في اقاويلهم من الوهن والشطط[1] فلا تثقن بما يلقونه اليك من اخبار اعرابهم البائدة ولا بما يدعونه للمستعربة من الاصل الاسمعيلي فذلك كله بعيد عن الصحة عريق في الوهم ينقض بعضه بعضاً وكثيراً ما يعارض حديث نبيهم بل القرآن نفسه وما كان اغناهم عن تلك الحكايات الواهية والخرافات الباطلة التي لجأوا اليها لتحقيق ما جاء في كتابهم من الاخبار المبهمة فزادوا تلك الاخبار على

[1] لما رأى المفسرون ما جاء به القرآن من ذكر اصحاب الكهف وارم ذات العماد وناقة صالح ومسخ القردة وجنود سليمان من الجن والطير وقصة النمل وما اشبه ذلك من الاساطير ظنوا انهم اذا حذوا حذوه لم يأتوا شيئاً فرياً فاطلقوا العنان لاقلامهم وتاهوا في بيداء الخيال حتى موهوا التاريخ بل شوهوه وضربوا دون الحقائق حجاباً كثيفاً من الخزعبلات والترهات التي لا ترضي سوى الصبيان ولا يرتاح اليها سوى العجائز

وهنا وهناً ودلوا على انها لم تكن الا من مختلق الحديث وقد كان في التأول مندوحة لهم عن ذلك وهم بحمد الله من اقدر الناس عليه واطولهم فيه باعاً .

فمن المغالط الفاضحة التي سقطوا فيها ما ورد لهم من الكلام على قبيلة عاد حيث ادعوا ان عاداً هذا من ذرية إرم بن سام وانه متقدم على اسمعيل بزمن طويل وان ابنه شداداً سمع بوصف الجنة فرام ان يضاهيها واقبل يبني ارم ذات العماد في بعض صحاري عدن وهو وقتئذ ابن تسعمائة سنة واقام في بنائها ثلاثمائة سنة وهذا يلزم منه ان شداداً عمر الفاً ومائتي سنة . لكن الذي نعلمه من التوراة ان ارم الذي زعموا انه جده لم يولد الا بعد الطوفان فيكون بين الطوفان ومولد شداد[1] لا اقل من مائة سنة ويكون موت شداد بعد الطوفان بنحو الف وثلاثمائة سنة . ونعلم من التوراة ايضاً ان اسمعيل مات بعد الطوفان بخمسمائة وعشر سنين[2] وعليه فيكون شداد متأخراً

---

(١) هو على ما في كتبهم شداد بن عاد بن عوض بن ارم بن سام بن نوح (٢) وذلك انه ولد بعد الطوفان بثلاثمائة وثلاث وسبعين سنة وعمر مائة وسبعاً وثلاثين سنة فذلك خمسمائة وعشر سنين

عن اسمعيل بزهاء ثمانمائة سنة لا متقدماً عليه كما زعموا [١]

والذي ذكرناه من عدد السنين انما هو بحسب تقويم النسخة العبرانية من التوراة وهو التقويم الاصح الذي عليه علماء العصر. واذا اطرحنا هذه النسخة واخذنا بتقويم النسخة المعروفة بالسبعينية وهي النسخة التي اخذ عنها مؤرخو المسلمين كافة ولم يكادوا يعرفون نسخة سواها نجد ان بين الطوفان وموت اسمعيل الفاً ومائتين وخمسين سنة. وبناء على الحساب المتقدم لمولد شداد وموته نجد بمقتضى هذا التقويم ايضاً ان شداداً قد عاصر اسمعيل كل حياته ومات اسمعيل قبله بزهاء خمسين سنة

اما مدينة ارم التي زعموا ان شداداً ضاهى بها الجنة فقالوا في وصفها انه جعل قصورها من الذهب والفضة واساطينها من الياقوت والزبرجد وزينها بالحدائق والجنان وشق فيها

[١] ولا مناص لهم من هذه النتيجة لانهم حرصوا على تدوين نسب شدادهم حرصاً يقطع عليهم طريق التأول ولولا ذلك لما اعجزهم ان يقولوا انه واحد او ابن واحد من الثمانين الذين زعموا انهم نجوا مع نوح ولم يكونوا من اهل بيته كما جاء في تواريخهم

الجداول والانهار ولم يدخر في تزيينها نفقة ولا عناء حتى جاءت مدينة لم يخلق مثلها في البلاد[١] فلما تم بناؤها سار اليها باهل مملكته حتى اذا كانوا منها على مسيرة يوم وليلة سلط الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية عصفت سبع ليال وثمانية ايام حسوماً[٢] فهلكوا جميعاً. الا ان الجنة التي رام شداد ان يضاهيها لم يسبق وصفها بتلك الصفات في كتاب غير القرآن وهو متأخر عن شداد بكثير فمن اين لباني ارم باساطين الياقوت الذي ليس منه في الارض كلها الا ما لا يكاد يكفي للحلي فضلا عن ان تعظم قطعه حتى تنحت منها اعمدة تقل قصوراً من الذهب ان يعلم وصف الجنة فيضاهيها وهو في زعمهم متقدم جداً على الكتاب الذي وصفت فيه. فان قيل انه نبي عرف ما سينزل به القرآن من قبل نزوله قلنا ان كان نبياً فقد فعل ما قد فعله الهاماً لا تجبراً وطغياناً كما قالوا لان النبي لا يتفرعن على ربه ولا يضاهي جنته وان لم يكن نبياً بل كان ملكا ذا ثروة ونعمة ودنيا عريضة وبنى تلك المدينة على ما وصفوا وجاء فيها بصفة الجنة وهو لا يعلم فليس فعله هذا مضاهاة ولا مما يسخط الله عليه

(١) سورة الفجر : ٦و٧ (٢) سورة الحاقة وتفسيرها

حتى يقضي بهلاكه وهلاك اهل مملكته جميعاً نساء ورجالا شيوخاً واطفالا ابرياء ومجرمين لانه سبحانه اذا انعم على عبد نعمة احب ان ترى نعمته عليه كما جاء في الحديث

واغرب ما في هذه القصة التي كلها غرائب انهم يوردونها في كتب التفسير التي تكاد تكون من كتب الدين عندهم ويعضدونها باحاديث معنعنة تتصل بكعب الاحبار فيقولون ان رجلا اسمه عبد الله ابن قلابة ضلت له ابل فخرج في طلبها فوقع على تلك المدينة فحمل منها ما قدر على حمله مما ثم ولعل هـذا الرجل لم يدع هـذه الدعوى الا تفادياً من ان يتهم بانه سرق او سلب ما كان بيده من الجواهر التي لا توجد عادة بايدي رعاة الابل فبلغ خبره الخليفة معاوية فاستحضره فقص عليه القصة فلم يصدقها ولا بدع ولذلك استحضر كعب الاحبار يسأله عنها فقال له كعب هي ارم ذات العماد وسيدخلها في زمانك رجل من المسلمين اسمه عبد الله بن قلابة احمر اشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب ابل له ثم التفت فابصر ابن قلابة فقال هـذا والله ذلك الرجل واسمه

وصفته في التوراة ولا يدخل المدينة احد بعده الى يوم القيامة[1]
وهـذا الكلام يترتب عليه اربعة امور جديرة بان تتأمل فيها.
اولها ان كعب الاحبار لم يكن له سابق معرفة بابن قلابة . ثانيها
انه لم تقع عينه عليه من اول وهلة ولم يبصره الا بعد ما التفت
وكلا الامرين مستبعد . ثالثها ان هـذا الخليفة لما اراد ان يتحقق
ما قيل له ولم يجد في قومه من يستخبره لجأ الى يهودي متمسلم
يسأله عما كان منه في شك كما امره كتابه وان هـذا الافاك
كذبه كذباً لا يقبله سوى اجلاف العرب وعزى الى التوراة
ما ليس فيها عالماً انه ليس فيها فصدقه معاوية وفي ذلك دليل
من ادلة جمة على تصديقهم بالكذب لا سيما اذا اتاهم من المدراس.
رابعها وهو نكتة القصة كلها هذا الاحتياط الاخير وهو قوله
انه لا يدخل المدينة احد بعد ابن قلابة الى يوم القيامة الا ترى
انه لولا هـذا الاحتياط لطولب ابن قلابة ان يقود الى تلك
المدينة نفراً من جلاوزة الخليفة ليحملوا الى بيت المال ما كان
متراكما فيها من الذهب والفضة والياقوت والزبرجد ولافضى

[1] الزمخشري وغيره من المفسرين والمؤرخين

ذلك الى افتضاح المدعي والشاهد كليهما وان شئت قلت اللص واللغيف

ولعل مصنف القرآن لم يحمله على ذكر ارم ذات العماد سوى ما كان متشبثاً بمخيلته من الخواطر المعتكرة عن الجنة التي وعد بها اعرابه وما قد كان قد سمع به او رآه من بقايا تدمر وبعلبك والحجر اي بترا مدينة ثمود الآتي ذكرها فاختلط في ذكره الياقوت والزبرجد والدر والمرجان والفاكهة والرمان بالصروح الشامخة والهياكل الباذخة الاروقة التي تناطح السحاب وغير ذلك مما يروع الامم التي ألفت النظر الى هذه الاشياء فضلا عن اعراب الحجاز الذين لم يألفوا النظر الى شيء سوى خيام الشعر او بيوت الآجر السخيفة[١] حتى تصور له من هـذا الاختلاط مدينة عظيمة هي ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد

اما ثمود فقد قالوا عنها وذكروا من نسبها ما يترتب عليه

---

[١] لم تعرف عرب الحجاز بناء في بلادها اعظم من كعبة مكة ولا يزيد سمكها مع ذلك على ثماني وعشرون ذراعاً بذراع اليد في مثل ذلك طولاً وعرضاً

انها كانت محاصرة لعاد او متأخرة عنها بقليل وذلك انهم الحقوا كلتا القبيلتين بجد واحد هو ارم ابن سام وزعموا انها انقرضت بصيحة من السماء لعقرها ناقة صالح وذلك من قبل الميلاد باكثر من الفي سنة لكنهم عينوا موضع بلدها وصرحوا بانه الحجر اي بترا فكان ذلك حجة عليهم تبطل ما ادعوه من قدمها. وذلك ان الحجر موضع معروف وآثاره باقية اليوم وقد ذكره كل اصحاب المعجمات وتقاويم البلدان وجزموا انه بلد ثمود وانه خرب على اثر هلاكها ولم تعمر بعدها. ونحن نعلم من التاريخ الصحيح انه كان عامراً باهله الى صدر القرن الثاني للميلاد بدليل ان الروم غزوا تلك الناحية من بلاد العرب سنة ١٠٥ للميلاد وتغلبوا على اهلها وهم ثمود وفتحوا مدينتهم العظمى وهي الحجر اي بترا وشادوا فيها المباني العظيمة ونقشوا في حجارتها ذكر هذا الفتح على ما جرت به عادتهم وهذه النقوش باقية الى يومنا هذا ويتهيأ لكل احد ان يراها. فاذا تقرر ان ثمود كانت في صدر المائة الثانية للميلاد قبيلة وافرة في مدينة عامرة بطلت دعوى المؤرخين بانقراضها قبل اسمعيل وبما يترتب على ذلك من توغلها في القدم

(الحجر مدينة بطليموس بترا وهي واقعة في القسم الشمالي من بلاد العرب بين الحجاز والشام وهو القسم الذي دعاه بتريا نسبة الى بترا المذكورة لانها مدينته العظمى وانما سمى المدينة بهذا الاسم لانه سمع اهلها يقولون لها بلغتهم سلع او سالع وتفسيره صخرة (انظر ما جاء في سفر الملوك الثاني ١٤:٧ ونبوة اشعياء ١:١٦) فنقل معنى هـذا اللفظ الى لغته اليونانية فقال بترا اي صخرة وسمي الناحية كلها بتريا نسبة الى حاضرتها

وكان لهذه المدينة من قبل الميلاد ومن بعده ايضاً شهرة وكانت ذات خطر وشأن لانها لما كانت واقعة بين فلاتين معطشتين على طريق قوافل التجارة بين المغرب والمشرق صارت منزلا للراحة وامتيار الزاد للتجار الذين يضربون في الارض اما في ايامنا هذه فهي خاوية على عروشها لا يكاد يرى فيها ديار وقد زعم بعض العلماء المحدثين ان سبب خرابها تحول التجارة بين المشرق والمغرب عن طريق البر الى طريق البحر وكان ذلك في الفترة التي بين عيسى ومحمد ولعل هـذا ما حدا محمداً الى ان يقول ما قاله في سورة سبأ (آية ١٤ الى ١٩) بالابهام الذي اعتاده

وقد تقدم انها واقعة من بلاد العرب بين الحجاز والشام وبالتدقيق بين العقبة وبحر لوط في فرجة طولها ميل وعرضها نصف ميل ويحيط بها جبال وعرة اعلاها جبل هور وهو الذي قبض فيه هرون (سفر العدد ٣٣: ٣٨) ولذلك كان اليهود يدعون اهلها الاولين هوريين ويعنون بذلك انهم سكان كهوف لانهم رأوا بيوتهم منقورة في الصخر وهذا ما اشار اليه القرآن بقوله وتحتون من الجبال بيوتاً . ثم فتح هذه المدينة بنو آدوم لكنهم لم يتبوأوها دار ملك ثم صارت بعدهم وذلك قبل الميلاد باربعة قرون الى جيل من اهل تلك الناحية يعرفون بالنبط وهم الذين اختلطت بهم ذرية اسمعيل قديماً في قول من يقول بدخول اسماعيل الى بلاد العرب والقرائن كلها تدل على ان هؤلاء النبط هم ثمود المزعوم انقراضهم قبل ذلك بزمن طويل فلما استقروا بها تركوا البيوت المنقورة في الصخر وجعلوها مقابر وبنوا مساكنهم وسط الفرجة المتقدم ذكرها فهي المدينة التي عظمت بعد ذلك واشتهرت ولم يزل ثم من خربها وآثارها ما يستدل به على عظمتها الاولى . وكل سائح يشاهد رسومها واطلالها وينظر الى موقعها بين الجبال ويرى بيوتها او مقابرها

المنقورة في الصخر لا يتعجب من تسميتها صخرة بل لو لم تكن قد سميت بذلك لكان هذا الاسم لها اول ما يبادر الى ذهنه قال احد السياح المتأخرين وقد عرج عليها انه لا يتهيأ الدخول اليها الا من شعب لا يزيد عرضه اولاً على اثنتي عشرة قدماً بحيث لا يتأتى لفارسين ان يعبراه صفاً ثم يأخذ في الانفراج شيئاً فشيئاً حتى اذا افضى الى المدينة كان عرضه نصف ميل وهو الشعب الذي يدعوه المفسرون صدع الصخرة ويزعمون ان ناقة صالح نبي ثمود خرجت منه. نعم ان ابا موسى الاشعري يقول ان عرضه ستون ذراعاً فلعله بالغ في عرضه توجيهاً لما قيل عن الناقة من انها كانت من الضخامة بحيث لا تستطيع ان تخرج من صدع يكون عرضه اقل من ستين ذراعاً لانهم لولوعهم بالغريب الخارق لم تكن ناقة من النياق المألوفة لترضيهم وتجعل لهم المزية على سواهم)

(ثمود)—اما طسم وجديس فقد ادعوا لهما من القدم ما ادعوه لعاد وثمود وجعلوهما متقدمتين على اسماعيل بكثير الا انهم ناقضوا بذلك انفسهم وحديث نبيهم على ما جرت به عادتهم وذلك انهم بعد ان اسندوا الى نبيهم حديثاً يقول فيه

ان اسماعيل اول من نطق بالعربية[١] وجزموا بانه لم يسمع للعرب بسبعة ابيات على قافية واحدة قبل امرئ القيس معاصر محمد ووصفوه بانه اول من احكم القوافي[٢] اثبتوا لمغيرة الجديسية التي بسببها اقتتلت القبيلتان حتى تفانتا قصيدة بالعربية من عشرة ابيات على قافية واحدة فيترتب على ذلك ان قائلة هذه الابيات متأخرة عن اسماعيل بل عن امرئ القيس نفسه فاين هذا من توغل تينك القبيلتين في القدم وانقراضهما قبل الاسلام بالوف من السنين

هذا ما ذهبوا اليه من امر العرب البائدة واما ما جاءوا به من امر اسماعيل فهو كذلك مردود بجملته وتفصيله من اوجه متعددة . وذلك انهم قالوا انه سكن مكة والتوراة التي لم نعلم بوجود هذا الرجل الا منها تقول بصريح العبارة انه لما طرد من بيت ابيه سكن في برية فاران[٣] وهي ببرية سيناء بين مصر وبلاد ثمود وتبعد عن مكة بعداً شاسعاً . وتقول في موضع آخر

---

(١) حديث اخرجه الحاكم عن جابر وعليه اعتمد صاحب المزهر وآخرون من اصحاب اللغة (٢) الجامع الصغير وابو عروة في الاوائل وابن عساكر وابن الاثير وغيرهم (٣) تكوين ٢١:٢١

انه نزل امام اخوته[١] وهؤلاء كانوا بارض كنعان من الشام ولم يكن امامهم مما يلي جزيرة العرب سوى بلاد ثمود المتقدم ذكرها وبينها وبين مكة مراحل . وتقول في موضع ثالث انه لما مات ابوه اتى فدفنه في مغارة المكفيلة[٢] بقرية اربع من حبرون التي بارض كنعان[٣] وبين هـذه القرية ومكة مسافة لا يقدر الراكب المجد ان يقطعها في اقل من عشرة ايام . فلو كان اسماعيل في مكة عندما اتاه نعي ابيه لما استطاع ان يمضي فيدفنه الا بعد عشرين يوماً من موته وهـذا مستبعد جداً فلا بد من التسليم بما قالته التوراة من انه كان نازلاً بالقرب من منازل ابيه واخوته لا بمكة

وقالوا انه تزوج بابنة مضاض بن عبد المسيح امير العرب الجرميين اصحاب مكة وقتئذ وهـذا مردود بقول التوراة ان امه اتخذت له زوجة مصرية[٤] وانما اتخذتها له مصرية لانهما كانا بالقرب من مصر ولعلها اخذت له امة مثلها اذ لا يصلح للعبيد غير الاماء لان بنات الامراء لا يتزوجن بغير اكفائهن

[١] تكوين ٢٥:١٨

[٢] تكوين ٢٥:٨—١٩ [٣] تكوين ٢٣:٢ [٤] تكوين ٢١:٢١

وكيف لا تأبى نخوة العرب ان يصاهر اميرهم عبداً هجيناً طريداً لا مال له سوى سبع اعنز تصدقوا بهن عليه[١] وهم الذين أنفوا من مصاهرة ابن خليفة لانه كان هجيناً[٢] ومن مصاهرة كسرى ابرويز لانه لم يكن عربياً[٣] ومن المحتمل ان يكون اسمعيل قد تزوج ايضاً بامرأة من سوقة العرب على امرأته المصرية الا انها لم تكن ام بنيه ولم يجئ ذكرها في التوراة ولا في تاريخ يوسيفوس. لكنه من المستحيل ان يكون قد اصهر في جرهم لان هؤلاء متأخرون عن سيل العرم وهو متقدم عليه بزهاء الفي سنة كما قاله اشد مؤرخيهم تدقيقاً في قضية السنين[٤] وقد تطسوا وتحذلقوا في ضبط اسماء الامراء الذين صاهروا ذلك الهجين حتى ذكروا ان جد زوجته منهم كان يدعى عبد المسيح وهذا الاسم لا نعلم ان احداً دعي به قبل ميلاد عيسى ويترتب على ما قالوه من ذلك ان اسماعيل المتقدم على

---

(١) كتاب المعارف لابن كتيبة (٢) المبرد في الكامل (٣) وهذا ما احفظه على النعمان ملك عرب الحيرة ثم بعثه على قتله خبر يطول كما جاء في النقائض ومروج الذهب وتاريخ الزنجاني

(٤) حمزة الاصفهاني وابو الفداء صاحب حماة

الميلاد بالفي سنة قد تزوج بامرأة متأخرة عن الميلاد ولو ببضع سنين . أفتراهم يهزلون . وكذلك لم يتنبهوا انهم بادعائهم لحمة النسب بين اسماعيل والعرب يناقضون كتابهم اذ يقول خطاباً لمحمد لتنذر قوماً ما اتاهم من نذير من قبلك[١] فلو كان اسماعيل صهراً للعرب وهو عندهم نبي وبالضرورة نذير لما ساغ للقرآن ان يقول انه ما اتى العرب نذير قبل محمد .

فان قالوا اننا انما نحتج عليهم بالتوراة وهم لا يقبلون حجتها لان الربانيين والقسيسين قد حرفوها لاغراضهم قلنا ان دعوى التحريف هذه مردودة ايضاً من اوجه. فاولاً ان كتابهم نفسه يشهد تضميناً بسلامتها من التحريف اذ يقول وعندهم التوراة فيها حكم الله[٢] ولو كانت محرفة لم يكن فيها حكم الله كما قال[٣] ولذا اضطر من لا يماري منهم ان ينبذ دعوى التحريف ظهرياً ويقول ان ما وقع في القرآن من نسبته اليها فانما المعني به التأويل[٤] فلا تحريف اذاً في متنها اما تحريفها بالتأويل فمسألة

---

(١) سورة القصص :٢٦

(٢) سورة المائدة :٤٧ (٣) انظر كتاب «ابحاث المجتهدين»

(٤) ابن عباس وهو عندهم حجة في التفسير والحديث

اخرى ليس هذا موضع النظر فيها والمسلمون ولا سيما مفسرو القرآن منهم اولى الناس بغض الطرف عنها تفادياً من ان يفتحوا على انفسهم هذا الباب

ثانياً ان هذه الدعوى لا يدعيها عاقل لان الربانيين لم يكن لهم مصلحة ولا غرض في مواطأة القسيسين على تحريف التوراة في ما يتصل بامر اسماعيل لانهم كانوا وقتئذ يتوسلون بكل الوسائل لحمل العرب على التصديق بلحمة النسب أفتراهم يحذفون من كتابهم ذكر تزوج عمهم بابنة امير العرب وهو اعظم شاهد لما يدعونه من القرابة هذا خلف

ثالثاً ان التوراة كانت قد نقلت الى اكثر لغات البشر الذين لهم حظ من الحضارة وانتشرت في كثير من اقطار الارض فلا يحتمل والحالة هذه تواطؤ اليهود والنصارى على تحريف سائر نسخها على نمط واحد بحيث لا تبقى نسخة سالمة منه ويخفى الامر مع ذلك عن الناس كافة . وهب انهم تمكنوا من التحريف على تعذره ولم يعارضهم فيه احد لانه في كتاب خاص بهم ولا يعني امره احداً غيرهم فتاريخ يوسيفوس وهو

عبارة عن ملخص التوراة كان قد انتشر في الروم واليونان (١) وهم اعرق الامم في الحضارة والعلم حتى امتلأت ايديهم من نسخه وذلك منذ المائة الاولى للميلاد وليس فيه مع ذلك ذكر لتزوج اسماعيل بابنة امير العرب ولا لسكناه مكة بل ان يوسيفوس يصرح فيه ان زوجة اسماعيل ام بنيه الاثني عشر كانت مصرية الا ان يقال ان الامم كافة يهودها ونصاراها رومها ويونانها قد اتفقت على تحريف التوراة وتحريف ملخصها على نمط واحد في جميع اللغات وسائر الاقطار وكل ذلك حتى لا يبقى فيهما ذكر لاستيطان اسماعيل مكة وتزوجه بامرأة من العرب وما شا كل ذلك من الترهات التي لا تهم احداً ولا يحفل بها احد غير المسلمين وهو مما يستنكف عن القول به صبيان المكاتب

وعلى فرض ان التحريف قد وقع في قصة اسمعيل منها فلا يخلو ان يكون قد وقع قبل الاسلام او بعده فان قالوا قبله قلنا لم يكن ثم ما يدعو اليهود والنصارى الى التواطؤ عليه مع ما

(١) وذلك ان يوسيفوس كان قد كتبه لهم ليوقفهم على تاريخ امته بلغة يفهمونها اي اليونانية كما يقول في المقدمة

بينهم من المشاحة لانه لم يكن بسابق علمهم ما كان محمداً مزمعاً ان يأتي به من امر اسمعيل وان قالوا بعده قلنا انه مستحيل في النسخ التي كانت بايدي غيرهم ولا سيما في ما كان منها بايدي المسلمين انفسهم اللهم الا ان يكون هؤلاء ايضاً قد دخلوا في حلف المتواطئين على التحريف

ومن الغريب انهم مع قوة ما اوردناه من البراهين على نفي وقوع التحريف في التوراة لا يزالون مصرين على دعواهم التحريف فيها مكابرة وعناداً ولو قيل لهم ان قرآنهم قد حرف بالزيادة والحذف لانكروا ذلك واكبروا دعوى من يقول بتحريفه حتى يأتي بحجة لاثبات ما ادعاه مع انهم ليس لهم من الادلة على سلامة كتابهم منه مثل ما لليهود والنصارى على سلامة التوراة وها هي اليوم بايديهم كما هي بايدينا فليبينوا لنا اين ذكر فيها ان اسماعيل سكن مكة وتزوج بابنة اميرها . ثم انهم مع شدة حرصهم على الحاق نسب نبيهم بهذا الرجل قد عجزوا عنه وخلطوا فيه تخليطاً مضحكاً فذكروا في مواضع من مصنفاتهم ان بين نبيهم واسماعيل الذي هو جده الاعلى ثلاثين اباً اسم احدهم قحطان وذكروا في غيرها ان جرهم الذين اصهر

فيهم اسماعيل هم ذرية قحطان المذكور. وهذا يترتب عليه نتيجتان احداهما ان بين كل واحد من اولئك الآباء الثلاثين والذي يليه ما يزيد على ثمانين سنة اذ كانت المدة التي بين محمد واسماعيل تنيف على الفين وخمسمائة سنة وانت تعلم ان هذا غير مألوف من اعمار البشر بعد الطوفان. والاخرى ان اسماعيل قد تزوج بامرأة من بنات ولده وذلك من قبل ان تولد بل من قبل ان يولد ابوها وجدها بمئين من السنين. وما اوقعهم في هذا التخليط الا ولوعهم بلهو الحديث واعتمادهم على مجرد النقل غثاً كان او سميناً فنقل الخلف ما هذى به السلف من عدد الآباء واسمائهم ولم يفطنوا لما فيه من الوهم. بل ان محمداً نفسه وهو في زعمهم نبي مؤيد بالالهام لم يسلم من هذا الغلط وذلك انه تصدى ذات يوم لالحاق نسبه بالاصل الاسماعيلي فاخطأ فيه خطاء ردته عليه العرب فاضطر ان يعتذر ويقول ان النسابين كذبوا عليه ونهى قومه ان يتجاوزوا في نسبه معد بن عدنان[1] لكنه لم يعدل مع ذلك عن الانتماء الى ذلك الاصل وكان يقول متبجحاً انا ابن الذبيحين يريد باحدهما اباه عبدالله المفدي بمائة

[1] الآثار الباقية وصبح الاعشى وعيون المعارف

من الابل في قصة يطول شرحها[١] وبالاخر اسماعيل توهماً منه انه هو الذبيح المفدي بالكبش لا اخوه اسحاق[٢] وكان يجهل ايضاً اسم ابي ابراهيم فدعاه آزر وهو تارح فهل يليق بالنبي الملهم الموحى اليه ان يجهل هذا من امر البيت الذي ينتمي اليه والرجل الذي يدعو الى ملته

ولم يكف المؤرخين تزويج اسماعيل بابنة مضاض امير جرهم حتى زادوا عليه ان جرهم نزلوا عن الملك لابنه قيدار ودخلوا في طاعته لكن يتحصل من كلامهم انهم لم ينزلوا له عن الملك الا بعد ان بلغ من العمر ثلاثمائة سنة او فوقها[٣] فزادت القصة بذلك سخفاً وغرابة .

[١] تاريخ ابن الشحنة [٢] تكوين ص ٢٢

[٣] وذلك أنهم لشدة ولوعهم بما يجعل للعرب مزية على غيرهم زعموا ان مضاضاً وهو حمو اسمعيل ملك مائة سنة ثم خلفه ابنه عمر فلك مائة وعشرين سنة ثم خلفه اخوه الحارث فلك مائتي سنة (مروج الذهب وغيره) فان فرضنا ان المصاهرة لم تقع الا في آخر يوم من ملك مضاض وان النزول عن الملك لم يتأخر ولا يوماً واحداً عن موت الحارث فيكون قد مر مع ذلك ثلاثمائة وعشرون سنة بين هذين الحادثين. فليتأمل

ومن الغريب انهم على ما بهم من السخاء في بذل المئين من السنين للغرباء قد ضنوا على جدهم اسماعيل فلم يسمحوا له الا بمائة وسبع وثلاثين سنة من العمر ولو انهم زادوه عليها ليساووه باصهاره وابنه لم يكن في ذلك من بأس بل كان اشد وفاقاً لما بهم من حب الكثرة في كل شيء حتى في المكروه [١] لا يقال انهم لو فعلوا لخالفوا التوراة فانهم لدعواهم التحريف فيها لم يعودوا يبالون بالوقوف عند نصوصها فاطلقوا لانفسهم عنان التصرف في النقل عنها بما يوافق اهواءهم فبدلوا فيها واخترعوا ما شاءوا تارة عن تعمد وتارة عن جهل على ما مرت بك مثله وسيمر بك من ذلك ما يقضي بالعجب العجاب . وحسبنا هنا ان نذكر ما وقع لهم من تحريف النقل عنها فيما يتصل بقصة اسماعيل الذي نحن بصدد الكلام عنه. فقد قالوا ان اباه ابرهيم نكح امه هاجر نكاحاً ليلزم من ذلك ان مولاتها اعتقتها وان ابنها ولد منها حراً والتوراة تقول انها بقيت جارية لسارة بعد ميلاد اسماعيل كما كانت قبله بدليل هربها معه من وجه

---

(١) كجعلهم عدد فرق الاسلام اكثر مما في سائر الاديان على ما مر في الفصل الثامن من المقالة

مولاتها وهـذا يلزم منه ان ابنها المذكور عبد هجين لانه ابن أمة . وقالوا انه هو الذبيح متابعة لنبيهم على وهمه والتوراة تصرح بان الذبيح اخوه اسحق وقالوا ان زوجته ام بنيه عربية والتوراة تشهد انها مصرية. فما كان عليهم لو تسامحوا مرة اخرى في مسألة عمره أيبلعون الجمل ويغصون بالبقة لا جرم ان كل هذه الاشياء عجيبة الا ان اعجب ما فيها انهم يكتبونها ويقرأونها ويتحاورون فيها ولا يضحكون

وحقيقة الامر في قصة اسمعيل انها دسيسة لفقتها قدماء اليهود للعرب تزلفاً اليهم وتذرعاً بهم الى دفع الروم عن بيت المقدس او الى تأسيس مملكة جديدة لهم في بلاد العرب يلجأون اليها فقالوا لهم نحن وانتم اخوة وذرية اب واحد. وهـذا سنن مألوف لليهود فانهـم متى رأوا المصلحة في التودد الى قوم قالوا لهم انتم اخوتنا ونحن وانتم صنوان وقد حاولوا مرة ان يخدعوا اليونان بهذه الحيلة ليتعصبوا لهم فخابوا[1] ثم استأنفوها مع

---

[1] جاء في سفر المكابيين الاول (ص ١٢) ان اليهود ارسلوا الى اهل اسبرطة رسلا يقولون لهم ان عندهم كتاباً قديماً قد كان اريوس ملك اسبرطة كتب به الى حونيا امام اليهود وفيه يقال ان كلتا الامتين

العرب لما زحف عليهم تيطس بجيش الروم ليقمع عصيانهم فتذرعوا اليهم برحم القرابة وقالوا لهم نحن وانتم ذرية ابرهيم وعده الله ولن يخلف وعده ليقيمن من سلالته ملكاً على الارض حتى الانقضاء(١) وطمعوا ان يجروهم بذلك الى قتال الروم فلم يظفروا بمرادهم . ثم نكبوا فهاجر كثير منهم الى جزيرة العرب وتوطد فيها امرهم كما ذكر المصنف ولم يألوا جهداً مذ ذاك الى ظهور الاسلام في اشراب العرب ان بينهم وبينهم قرابة من النسب حتى نجمت فيهم هذه الاكذوبة آخر الامر لانهم كانوا اجهل من ان يردوها(٢) ولان الوثنيين منهم لما رأوا اليهود

من ذرية ابرهيم . وانما رام اليهود بذلك ان يخدعوا اليونان ليتعصبوا لهم وتوهموا ان في ما قالوه لهم من وحدة الاصل ضرباً من الاطراء وانه يروق لليونان ان ينتفوا من اصلهم الذي يعدونه من مفاخرهم وينتموا الى ابرهيم وانهم يجهلون انه ليس بينهم وبين اليهود قرابة ولا عصبية على حين كانوا اعظم الناس ارتقاء في ذروة المعارف (١) اوسابيوس وغيره من قدماء المؤرخين (٢) من غريب نقلهم في هذا الباب ما ذكره ابن خلدون في نسب العدنانيين قال ونقل القرطبي عن هشام بن محمد فيما بين عدنان وقيدار نحواً من اربعين اباً وقال سمعت رجلا من اهل تدمر من مسلمة اليهود ممن قرأ كتبهم يذكر نسب معد بن عدنان الى اسمعيل من كتاب ارميا النبي عليه السلام وهو من افحش الكذب واقبحه

والنصارى على ما بينهم من الاختلاف متفقين على تعظيم ابرهيم لم يشق عليهم ان يكونوا هم ايضاً فرعاً من هذا الجذم اذ كان سواء عليهم ان ينتموا الى هذا الآب القديم او الى غيره ولعهم كانوا قبل ذلك يجهلون اسمه بتة فاقبلوا هم ايضاً يعظمونه وتناقلت ذريتهم امر هذا النسب بينهم وبين ابنه اسمعيل الذي قالت لهم اليهود انه جدهم حتى رسخت هذه القصة في اذهانهم بتمادي الزمان ولما ظهر محمد رأى المصلحة في اقرارها فاقرها وقال للعرب انه انما يدعوهم الى ملة جدهم هذا الذي يعظمونه من غير ان يعرفوه [1] الا ان قدماء مؤرخيهم لم يتنبهوا لما تبطنه هذه الدسيسة من الخداع اليهودي فصدقوها واثبتوها في تواريخهم ثم تداولها الخلف عن السلف حتى صارت عندهم اخيراً من الحقائق التاريخية الراهنة التي لا يسع احداً انكارها. وانت قد رأيت مع ذلك ان للكلام في ردها مجالاً متسعاً بل

---

[1] وقد اقتفى في ذلك اثر الرسول بولس فانه حاول تنصير اهل اثينا بمثل هذه الذريعة وذلك ان رآهم يعبدون الهاً ويعظمونه ويشيدون له الهياكل ويدعونه مع ذلك بالاله الذي لا يعرف فقال لهم هذا الذي تعبدونه وانتم لا تعرفونه هو الاله الذي ادعوكم اليه (اعمال الرسل اصحاح ١٧)

لم يبق اليوم احد من جهابذة العصر ومحققيه الا ويجزم بانها خرافة وبان التصديق بها حماقة فان ابى المسلمون بعدها الا ان يكون نبيهم وامته منتمين الى ذلك المحتد الكريم فهم وما اختاروه لانفسهم

ونحن لا ننكر ان العرب امة قديمة في بلادها ولا نشك في ان كثيراً من قبائلها قد بادت وان التي لم تبد منها ستبيد يوماً ويخلفها غيرها الى ما شاء الله هذه حال الامم كلها سنة لله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً وانما ننكر صحة ما يقصونه من اخبارها وندعي ان اصل هذه الاخبار اساطير وخرافات قديمة تلقنها اليهود من المصريين والكلدانيين ايام اسرهم في مصر ثم في بابل وما زالوا يتناقلونها خلفاً عن سلف حتى لجأوا الى بلاد العرب على اثر نكبتهم فرأوا من المصلحة ان يحولوها الى نفعهم فجعلوا اسماء الاشخاص فيها عربية وكانت اعجمية ونسبوا الوقائع نفسها الى العرب المتقدمين تودداً الى المتأخرين فليس عاد ولا ثمود ولا طسم ولا جديس سوى اسماء لا مسمى لها ان اريد بها قبائل من العرب الاولى التي يزعمونها قبل اسماعيل ولا اسماعيل نفسه باب للعرب المستعربة

ولا تملك احد من بنيه على امة من الامم وانما كان قصارى امرهم انهم دخلوا وهم عدد قليل في قبائل العرب العديدة المجاورة لمنازلهم فاختلطوا بها وما كانوا منها الا كحصاة في فلاة

اما اصل العرب فلا سبيل اليوم الى معرفته على طريق الجزم لكن يترجح عند محققي العصر ان العاربة منهم قوم اتوا في غابر الزمان من الحبشة وعبروا الى اليمن من بحر القلزم بالقرب من الموضع الذي فيه عدن اليوم فاستوطنوا تلك الناحية ثم صارت لهم بها مملكة ولم تزل دار ملكهم الى ان خربت بسيل العرم فصارت صنعاء دار ملكهم[1] لكن انفصل عنهم على اثر تلك النازلة قبائل منهم اهمها غسان وعرب الحيرة. اما المستعربة وهم اهل الحجاز الذين يزعم المؤرخون انهم ذرية اسماعيل فهم كذلك من افريقية لكنهم عبروا الى الحجاز من خليج العقبة وانتشروا في البلاد حتى تاخموا العراق من جهة والشام من اخرى وخالطوا السريان والفرس واليهود[2] الا ان عرب اليمن

---

[1] ومما يدل على اصلهم الحبشي شكل جماجمهم وما في لغتهم من الفاظ الحبشة كنبع من اسماء ملوكهم وتفسيره القوي وكحمير وتفسيره الاحمر

[2] ولذلك كانت لغتهم الى السريانية اقرب واختلط بها شيء

كانوا في اول الامر احكم نظاماً من عرب الحجاز فلذا تغلبوا عليهم ولم يزالوا قاهرين عليهم الى ان نبغ في هؤلاء بطل مشهور اسمه كليب بن ربيعة فخرج بهم على اليمانية يروم خلع ربقتهم وجرت بين الفئتين مواقع مذكورة وكانت الكرّة آخر الامر لاصحاب كليب فظهروا على اليمانية وكسروهم وهزموهم وسوّدوا على انفسهم كليباً[1] فلم يزل يلي امرهم حتى قتله رجل منهم اسمه جساس في خبر مشهور فاصبحوا من بعده فوضى وطفقت قبائلهم تحارب احداهن الاخرى وتحاول كل واحدة منهن ان تكون لها السيادة على البواقي واستمروا على ذلك من اوائل القرن السادس للميلاد الى اواخره وهي المدة التي كانت فيها اكثر ايامهم التي ذكروها في اشعارهم وجرت بها امثالهم ابلى فيها ابطالهم بلاء حسناً وتمرّن سائرهم في حمل السلاح وممارسة الحرب فلما علموا ذلك من انفسهم اشرأبوا الى التغلب على اليمن واستولوا على كندة منه وكادوا يتغلبون من الجهة الاخرى على غسان والحيرة لو لم يشغلهم عن ذلك شاغل من امر محمد والاسلام

من الفاظ الفرس واليهود

(1) وذلك يوم خزازى في اواخر القرن الخامس للميلاد وهو من ايامهم المشهورة

اما المشهور من قبائلهم فخمس وهي ربيعة وقيس عيلان وهوازن وتميم وقريش اهل مكة الا ان القرشيين كانوا اعظمهم شأناً لما اتصفوا به من الدهاء والبطش فكان من اشهر صفاتهم المكر حيث لا ينجع العنف والعنف حيث لا ينجع المكر وهم الذين احتالوا على خزاعة حتى انتزعوا منها سدانة الكعبة فلما صارت خزانتها بيدهم اثروا ثم نمت ثروتهم بالتجارة وكانوا من الدهاقين فيها فاصبح لهم بذلك ضرب من السؤدد وعلو الكلمة على باقي القبائل وزادهم مكانة ان سوق عكاظ المشهورة كانت تقام ببلدهم مكة وكانت العرب تأتيها من كل فج لا للتجارة فقط بل للمفاخرة واثارة الحرب وابرام الصلح وفصل ما يشجر بينها

اما نسبهم فيلتحق بجد متقدم اسمه معد بن عدنان وهو الذي نهى محمد قومه ان يتجاوزوه في نسبه ولهم على عمود هذا النسب تسعة اصول آخرها عبد المطلب جد محمد واليه انتهت سيادة قريش وكان له اثنا عشر ابنا منهم ابو طالب وعبد الله

اما محمد نبي المسلمين فهو ابن عبد الله المذكور وامه آمنة بنت وهب من بني زهرة ولد بمكة سنة ٥٧٠ للمسيح ومات في

يثرب وهي المدينة سنة ٦٣٢ ودفن في بيت زوجته عائشة وقبره ثم الى اليوم ويترجح عند المؤرخين ان اباه توفي قبل ميلاده بايام او بعده بايام فدفعته امه الى ظئر اسمها حليمة بنت ابي ذؤيب السعدية فاخذته ومضت به الى بادية بني سعد وكان بنو سعد هؤلاء فصحاء كقريش فلذلك كان محمد يقول متبجحاً انا افصح العرب مبداي من قريش ونشأت في بني سعد. ولم يزل في حجر ظئره الى ان بلغ من العمر ثلاث سنين وكان يتواتر عليه الاغماء[1] فظنت انه يصرع وكانت كغيرها من العرب تعتقد ان الصرع من فعل الجن فخافت وردته الى امه ولو علمت ان ربيبها سيصير نبياً وان اغماءه سيعزى الى تأثير هبوط الوحي عليه لما خافت. فلما كان له من العمر تسع سنين ماتت امه فكفله جده عبد المطلب ثم عمه ابو طالب. فلما ترعرع انف من ان يكون كلاً اي عيالاً على عمه فجعل يرعى الغنم لاهل مكة ليقوم بمعاش نفسه[2] ثم صحب عمه في احدى رحلاته الى

---

[1] وهو علة تشبه الصرع واكثر ما يصاب به الصغار ولذلك تسميه العامة ام الصبيان. [2] ولما عيره بهذه المهنة بعض العرب رد عليه وقال ما من نبي الا وقد رعى الغنم

الشام. ولما بلغ خمساً وعشرين سنة من العمر خدم خديجة فكان يخرج في تجارتها الى الشام وقيل بل كان يصحب غلامها ميسرة يسوق جمالها[1] ومهما يكن من هذا فانه لم يمض على دخوله في خدمتها شهران حتى رأت منه ما زين لها ان تتزوج به فعرضت نفسها عليه فتزوجها وصار يتعاطى التجارة بمكة ولم يزل كذلك حتى بلغ سن الاربعين فادعى النبوة

---

(١) ويترجح عند قوم ان طريقه في هذه الرحلة كانت على بصرى بالشام فلقي بها الراهب بحيرا الآتي ذكره وتعرف به وقيل بل كان قد تعرف به في رحلته الاولى مع عمه فجدد عهده به في هذه الرحلة الثانية



تذييل الفصل الثاني

كان محمد من اهل البيوتات وان لم يكن متصل النسب باسمعيل ولو لم يمت ابوه قبل جده لم يكن من المستبعد ان سيادة قريش التي ذكرنا انها انتهت الى جده كانت تصير اليه . وكان ولا شك قد تنبه لذلك بعدما بلغ اشده فكان يتلهف على ما فاته منه ويلتمس الذرائع الى الحصول عليه لانه لم يكن في طاقته ان يناله عنوة فتفتق له ذهنه ان يتوسل اليه بذريعة الدين لانها كانت سهلة عليه بالنظر الى ما كانت عليه حالة قومه وبلاده لذلك العهد . وذلك ان العرب كانت قد سئمت من الوثنية ونزعت نفوسها الى الدخول في دين آخر كائناً ما كان وقد ادرك ذلك منها من قبل محمد رجال كثيرون يدعون بالحنفاء (وانما دعوا بذلك لحنفهم اي ميلهم عن الوثنية) فكانوا يحرضون قومهم على اطراح عبادة الاصنام والكف عن الحج الى مكة والطواف بكعبتها عراة ونبذ ما يتبع ذلك من الرسوم القبيحة ويدعونهم الى التدين بدين لا شرك بالله فيه فنجع تحضيضهم

في كثير حتى تنصر منهم من تنصر وتهود من تهود وفي الجملة كانت الوثنية قد هرمت وذهب ما كان لها من الحرمة عندهم ولم يبق من يتمسك بها سوى الرعاع وسدنة الكعبة لما كان لهم في المحافظة على الحج ورسومه من المصلحة الدنيوية. فركن محمد بما فطر عليه من ذكاء الفؤاد ونفوذ البصيرة ان في هذه الحالة فرصة مواتية يسترد بها ما فاته من السؤدد فانتهزها ونوى ان يحذو حذو الحنفاء. الا انه كان يعوزه امر لا بد منه لمن يقوم مقام الواعظ النصيح وهو معرفة شيء من امر الدين الذي كان يروم ان يدعو اليه فلذا كان يتطلب من يفقه عليه واتفق ان قدم في تلك الاثناء الى مكة راهب نسطوري اسمه عند موٴرخي المسلمين بحيرا وعند غيرهم سرجيوس وكان قد احدث في بلاده حدثاً انكره عليه اصحابه فاخرجوه من الجماعة وقطعوه وامتنعوا من مخاطبته على ما جرت به العادة منهم في مثل هذا الضرب. فندم على ما فرط منه واراد ان يفعل فعلاً يكون كفارة عن ذنبه ووسيلة له عند اصحابه فصار الى بلاد العرب حتى انتهى الى مكة فرأى غالب اهلها على صنفين من الدين وهما اليهودية وعبادة الاصنام فشرع يفكر في ما يفعله

لرد اهلها عن الشرك ويتطلب رجلاً منهم يستعين به على غرضه حتى عثر بمحمد ولا يبعد انه كان بينهما سابق معرفة. فلما وقف على ما يضمره وتيقن نزوع نفسه الى الانخراط في سلك الحنفاء وتبين له ما هو عليه من فصاحة اللهجة وبلاغة المنطق ظن انه ظفر بضالته فاخذ يتلطف به حتى استماله الى مراده وسمى نفسه نسطوريوس لانه رام بتغيير اسمه ان يثبت بدعة النساطرة ويبثها في جزيرة العرب ومازال يخلو به ويكثر مجالسته ويلقي عليه الشيء بعد الشيء ويفقه على ما كان يجهله حتى ادبه وفقهه بمقدار ما يستطاع تأديب الامي وتفقيهه فرسخ في ذهنه من اصول النصرانية ما كان مشوباً ببدعة النساطرة وهذا سبب ما في الاسلام من عقائدهم وما في القرآن من ذكر النصرانية بما يحاكي مقالتهم فيها ومن ذكر القسيسين والرهبان بخير ومن تزكية النصارى عموماً والشهادة لهم بانهم اقرب الناس مودة الى المسلمين. فلما ظن كل واحد من هذين الرجلين انه وجد عند صاحبه ما كان يلتمسه تواطآ على الشروع في ما كانا يتوخيانه لاول فرصة تسنح

وكان لمحمد عادة ان يعتزل عن زوجته في حراء مرة كل

عام فلما صار هذه المرة الى معتزله نابته فيه نوبة من مرض عصبي كان قد مني بشيء منه وهو طفل ثم افضى تواتره عليه الى اختلال في ما يدعوه الاطباء بالجهاز العصبي فلذلك كان كلما عرض له ما يوجب تهيج هذا الجهاز تنبهت من ذلك مشاعره تنبهاً يجسم في حسه ما كان متصوراً في ذهنه حتى ليجزم بل يحلف انه رأى او سمع او لمس ما لا وجود له على الحقيقة في غير وهمه فلذا كان كثيراً ما يخاطب من لا يراه غيره ويسمع من الخطاب ما لا يسمعه غيره[1] وكان على الجملة يحلم وهو مستيقظ وهذا سبب نسبتهم اياه الى الجنة والوسواس والهوس وهـذا ايضاً سبب جزمه بصحة ما توهمه من امر ارم ذات العماد وما تخيله او حلم به من امر الاسراء والمعراج وكانت هذه الحالة تجهده جداً كلما عرضت له حتى ليتفصد جبينه عرقاً ويضطرب ويرعد كالمقرور فيزملونه ويدثرونه[2]

---

[1] روي عنه وقد سئل عن الوحي انه قال يأتيني احياناً مثل صلصلة الجرس وهو اشـده علي فيفصم عني وقد وعيت عنـه ما قال واحياناً يتمثل لي الملك رجلا يكلمني فاعي ما يقول

[2] انظر سورة المزمل والمدثر وتفسيرهما. وهذا المرض من جملة الاشياء التي حولها الى نفعه فزعم انه من اضطرابه لهبوط جبريل بالوحي

فلما افصمت عنه تلك النوبة وكان قد صمم على الشروع فيما واطأ عليه نسطوريوس اخبر زوجته بما توهم انه وقع له فعلاً اي ان جبريل هبط عليه بالوحي وضغطه وانبأه بان الله اختاره نبياً وبعثه الى قومه رسولاً ومبشراً ونذيراً فلم يشق عليها ان تصدقه في ما قال لان لفظ الوحي والنبي والرسول وما جرى هذا المجرى لم يكن له من المعنى عندها ولا عند غيرها من مشركي قريش ما صار له من ذلك عندهم بعد توطد الاسلام بل كان النبي عندهم رجلا صالحاً ينصح لقومه في امر الدين والمعاد كما كان يفعل الحنفاء ومن البين ان محمداً لم يرد في اول الامر غير هذا المعنى ولذلك كان يقول تكراراً هل كنت الا

عليه وقد انتدب ابن خلدون مع علمه وفلسفته لتأييد هذا الزعم فجعل الاغماء من علامات النبوة وانه من لقاء الملك الروحاني وحاول ان يثبت ذلك من قول القرآن انا سنلقي عليك قولا ثقيلا وغاب عنه ان القرآن انما اراد بالثقل معناه المجازي اذ ليس للقول زنة في الحقيقة حتى يثقل او يخف وغاب عنه ايضاً ان هذا الاغماء كان يعتري محمداً من قبل دعواه النبوة ومن قبل لقاء الملك الروحاني وليس ابن خلدون وحده هو الذي قال ذلك بل ان علماءهم كافة تهافتوا على هذه الحجة السخيفة لينفوا عن نبيهم ما كان مصاباً به من المرض الطبيعي افتراهم يعتقدون ايضاً ان صحة الجسم من شرائط النبوة !

بشراً رسولاً [1] وانما انا بشر مثلكم [2] وغير ذلك مما يفيد هذا المعنى . بل ان التوراة نفسها قالت عن هرون انه نبي موسى [3] ولم ترد بذلك سوى انه المتكلم عنه لانه كان ألكن وكذلك دعت المغنين في المعابد متنبئين [4] وقالت عن الخداعين انفسهم انهم كانوا يتنبأون [5] ولم يكن هؤلاء ولا اولئك من النبوة في شيء . ثم ان اليونان انفسهم كانوا يدعون شعراءهم انبياء ملهمين وتابعهم على ذلك بولس الرسول فدعا اراتوس الشاعر الكريتي وقد تمثل ببيت من شعره نبياً [6] ولم يعن بذلك سوى انه حكيم . اما النبي بالمعنى الذي صار محمد يريده آخر الامر فلم يكن معلوماً عند زنادقة قريش ولذا سهلت عليه دعوى النبوة بادئ بدء بينهم لانه امن ان يطالبوه بمصداق عليها كما طولب بعد ذلك فوقف معهم عند حد النصح والوعظ مدة متطاولة ثم رأى ايضاً انه لا بأس من استعمال الوعد والوعيد

---

(1) سورة الاسرى :٩٥ (2) سورة الكهف :١١٠ (3) سفر الخروج ٧:١ (4) سفر الايام الاول ٢٥:١ (5) سفر الملوك الاول ٢٩:١٨ (6) تيطس ١٢:١ وعرف انه الشاعر اراتوس لانه هو صاحب ذلك البيت

احياناً فاستعملهما و نصب نفسه مبشراً ونذيراً[1]

اما الوعد فانه عرف من شدة انهماكهم على الملاذ الشهوانية ونهمهم وتشوقهم الى ما لا يكادون يظفرون به في بلادهم من المياه الدافقة والرياض الظليلة والفواكه الغضة ان هذه الاشياء قد حببت اليهم حتى صار الحصول عليها منتهى السعادة عندهم وغاية الترف لا يعلمون وراءها نعيماً آخر وهذا ولا جرم مما يعقل من قوم ينكرون البعث وهم فوق ذلك يسكنون بلاداً واقعة في المنطقة الحارة من الارض بحيث تشوي شمس الصيف ادمغتهم وتحرق الرمضاء اقدامهم وبين ذلك السموم تلفح وجوههم فوعدهم بما كانوا يحبونه وقال لهم انهم ان اصاخوا الى وعظه ونصحه في الدنيا فثوابهم في الآخرة جنات تجري من تحتها الانهار فيها من كل فاكهة زوجان ولهم فيها ازواج مطهرة حور عين كامثال اللؤلؤ المكنون متعففات مقصورات في الخيام لم يطمثهن قبلهم انس ولا جان يحلون فيها من اساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك والنمارق المصفوفة والزرابي

---

(٢) سورة الفرقان : ٥٨

المبثوثة والسرر الموضونة متقابلين ويطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب واباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا يصدعون عنها ولا ينزفون ولحم طير مما يشتهون وفاكهة مما يتخيرون وغير ذلك من اصناف التنعم والملاذ الجسدانية [١]

واما الوعيد فانه نحا فيه الى ما هو اشد اذى لهم وابلغ نكاية عليهم فاوعدهم ان نبذوا نصحه بنار جهنم الشديدة الزفير يخلدون فيها ويكون اهونهم عذاباً بها من ينتعل بنعلين منها يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل حتى ليتمنى الموت فلا يجده وانهم ان يستطعموا يطعموا من الزقوم والغسلين وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ويصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود وان لهم مقامع من حديد كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق . وعدد لهم زيادة على ذلك ما احاق في الدنيا نفسها من العقاب بالذين كفروا قبلهم فذكر لهم مما جاء من ذلك في التوراة طوفان نوح وهلاك قوم لوط وبلايا قوم فرعون ومما

---

[١] وقد ذكر المصنف في الفصل الرابع من مقالته جملة وافية في وصف الجنة المحمدية وما اعد فيها للمؤمنين من اصناف التنعم

جاء منه في خرافاتهم هلاك عاد وثمود . وهو انما كان في ذلك كله يخاطب قومه من قريش ولا يتعرض لغيرهم ولو انه بقي معهم على هـذا النهج من الوعظ والنصح لم يضطهدوه الا انه تخطاه الى الطعن في آبائهم والقدح في عقائدهم وسب معبوداتهم وشرع ايضاً يعرض نفسه على غيرهم مما كان لهم خلطة باهل الكتاب ويصرح لهم بانه رسول الله اليهم ونبيه فلقي من ذلك عنتاً لانهم طالبوه بحجة تؤذن برسالته لما سبق في معلومهم من ان للرسل والانبياء بالمعنى الذي اراده علامات تشبه مدعاهم اهمها وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم مما لا تقدر عليه العباد وانما تقع للنبي والرسول منهم في غير محل قدرته وليس له فيها الا التحدي بها باذن ربه اي الاستدلال بها على صدق مدعاه من قبل وقوعها فتنزل منزلة القول الصريح من الله انه صادق . فاقترحوا عليه ان يأتيهم بمثل ما اتى به الانبياء الذين تقدموه ممن جعل يقص عليهم اخبارهم وما فعلوه من الآيات والخوارق وقد عد اقتراحاتهم عليه في القرآن فذكر منها قولهم له لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً او تسقط السماء علينا كسفاً

او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه فيشهد انك رقيت بالجسم وفي اليقظة لا في الحلم واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن وقالوا ايضاً اللهم ان كان هذا الذي يدعيه محمد هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء وائتنا بعذاب اليم لتكذيبنا بما يدعيه وانما قالوا ذلك لانهم كانو يرون من العدل لو كان محمد رسول الله اليهم ان يظهر الله لهم على يده آية فان اصروا على الكفر بعدها قضى بهلاكهم عن بينة اذ كان في نفوسهم انه تعالى ما كان معذباً حتى يبعث رسولاً [1] ويؤيده بما يؤذن ببعثه. الا ان محمداً والحق اولى ان يقال لم يدع المعجزات بادئ بدء بل كان ينفيها عن نفسه [2] وينهى اصحابه عن نسبتها اليه [3] وما ادعى ما ادعاه منها آخر الامر الا مضطراً

---

(١) سورة الاسرى : ١٦ (٢) كما جاء في احاديث كثيرة من جملتها قوله ما من الانبياء الا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي اوتيته وحياً اوحي الي وفي هذا نفي بين لسائر المعجزات الاخرى (٣) وذلك انه لما مات ابنه ابرهيم واتفق كسوف الشمس ذلك اليوم قال اصحابه انها كسفت لموت ابرهيم فنهاهم عن قول ما يترتب

وهـذا ظاهر من اول القرآن الى آخره وان كره المفسرون والمؤرخون [1] ولذا كانت اجوبته في اول الامر مرتبكة يلجأ فيها الى المراوغة والمعاريض حيث اقبل يعدد لهم اصناف الخوارق التي يقدر عليها خالق العالمين ومبدع الاكوان الذي لا يعجزه شيء فقال لهم انه تعالى يعلم ما تحمل كل انثى وهو عالم الغيب والشهادة وسواء عنده من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ولعمري انهم على جهلهم واميتهم لم يكونوا ليجهلوا ان الاله الذي زعم محمد انه رسوله اليهم يقدر على هذه الخوارق وعلى اعظم منها بل على كل شيء وانما كانوا يطالبون مدعي تلك الرسالة ان يكون هو نفسه قادراً على شيء منها باذن ربه وان يأتي بها مصداقاً لما يدعيه

فلما الجموه بهذا الاحتجاج واعيته الحيل اضطر ان يدعي معجزة ما فقال ان معجزته القرآن فعارض بذلك نفسه لانه كان

عليه نسبة المعجزات اليه وقال ان الشمس والقمر لا يكسفان لموت احد ولا لحياته (١) اذ لا داعي لولاه الى بسط الاعذار وتكرار القول ان الآيات عند الله وانه لم يمنع من الارسال بها الا ان كذب بها الاولون وانها اذا جاءت لا يؤمنون وغير ذلك مما يترتب عليه انه لم يأت بشيء منها

قد نفي الاعجاز عن القرآن تضمينا في مواضع متعددة من الكتاب نفسه وهذا بين لمن لا يماري ألا ترى ان خصومه لم يفتروا عن مطالبته باية كما يقر هو نفسه في غير ما موضع من كتابه وانه لم يفتر قط عن مجاوبتهم بان الايات عند الله لا عنده ولو كان من اول الامر معتقداً ان القرآن معجزة بل ان كل جملة منتظمة منه معجزة وان كانت من كلمة او كلمتين[1] لكان من اسهل الاشياء عليه ان يسكتهم بقوله لهم هاكم المعجزات التي تطالبوني بها وهي ما يتلى عليكم كل يوم من آي القرآن وسوره فصمته عن هذه الحجة مدة متطاولة يدل دلالة قطعية على انه لم يكن من اول الامر يعتقد ان القرآن معجزة ولذلك لم تبادر الى ذهنه ولا خطرت بباله الا بعد ان مضى على دعوى النبوة حين من الدهر وبعد ان اعيته الحيلة في صرفهم عن اقتراح الايات وكان قبل ذلك تقنعه منهم ان يعتقدوا ان القرآن نزل على قلبه لا بحروفه والفاظه بل بمعناه فقط وذلك وحياً والهاماً على حد ما كان يتوهمه من نزول التوراة على قلب موسى والانجيل على قلب عيسى[2]

(١) كما قال القاضي عياض في الشفاء (٢) سورة آل عمران : ٢

الا ان خصومه لم يروا شيئاً من المعجز في هـذه المعجزة فردوها عليه وهم انما كانوا عرباً فصحاء مثله فلا عجب ان لا يظهر لهم شيء يفوق قدرة البشر في قوله والتين والزيتون وطور سينين وقوله هل اتاك حديث الغاشية ولذلك نسبوا قائل امثال هـذه الفقرات الى الجنون[١] ووصفوا غيرها بانها اساطير الاولين وزعموا انهم لو شاؤا لقالوا مثل ما قال وجزموا انه ان كان قد اصاب في بعض المواضع بما قصه من نبأ الاولين وشرعهم فقد تعلمه من اهل الكتاب لشهرتهـم بالدراسة وان كان قد اتى في غيرها بشيء من الفصاحة فانما يعلمه بشر[٢] الا ان ذلك لم يصده عن الاصرار على هذه الدعوى ولذلك صارت عند المسلمين من بعده برهاناً ساطعاً تثبت به نبوته وعدوها من اعظم المعجزات واشرفها واوضحها دلالة

(قال ابن خلدون في المقدمة السادسة من تاريخه ان اعظم المعجزات واشرفها واوضحها دلالة القرآن لان الخوارق تقع احياناً مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي وتأتي المعجزة شاهدة به.

وسورة الشعراء : ١٩٤

[١] سورة الحجر : ٦ [٢] سورة النحل : ١٠٥

والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجز ودلالته في عينه ولا يفتقر الى دليل اجنبي عنه كسائر الخوارق مع الوحي فهو اوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه (انتهى) وهـذا منقوض بنص القرآن نفسه وذلك قوله وما يعلم تأويله الا الله وكيف يكون اوضح المعجزات دلالة وهو بلغة لا يفهمها غير العرب ولو نقل الى غيرها لم يكن له معنى ينسق وكان اكثره ضرباً من المعاياة . بل هو بالنظر الى العرب انفسهم مفتقر الى التأويل الرباني لانه لا يتأتى لهم بدونه ان يفهموا معانيه المستغلقة فيدركوا ما فيه من المعجزات اللهم الا من كان منهم ذا سجية فائقة كالمفسرين وليس لكل الناس بل ليس لكل العرب انفسهم هذه السجية . على ان الناس كلهم علماءهم وجهلاءهم عربهم وعجمهم يقدرون ان يدركوا ما في احياء الموتى مثلاً من المعجزة لانها وان كانت في زعم المفسرين دون معجزة القرآن في العظم والشرف فان لها عليها مزية وضوح الدلالة لان الناس كافة حتى اجلاف العرب انفسهم قادرون على ادراكها اما القرآن فلا يستطيع ان يقدره حق قدره غير الراسخين في العلم وهذا اذا كانوا مسلمين وكان لسانهم عربياً واتاهم تأويله من السماء)

ثم ادعى معجزة اخرى فقال انه أسري به من المسجد الحرام اي الكعبة التي بمكة الى المسجد الاقصى اي هيكل سليمان الذي بيت المقدس[1] وعرج به من هناك الى السماء فشافه ربه . الا ان صحابته انفسهم فضلاً عن سائر الناس لم يصدقوا بهذه المعجزة وصرحت ام هانئ وهي بنت عمه وكان مبيته عندها تلك الليلة ببطلانها فقالت انه لم يفارقها ولم تفقد جسده . فهذا مع ما جاء في القرآن نفسه من وصف القصة بانها رؤيا هو الذي حدا بعض فرق المعتزلة الى القول انه اسري به في النوم لا في اليقظة فكفرهم اهل السنة والجماعة وجزموا انه اسري به فعلا بالجسم مستندين في ذلك الى ما جاء من تفاصيل المعراج في الحديث المشهور الذي مر تلخيصه في احدى حواشي الفصل الثاني من مقالتنا وهو حديث لا يشك احد منهم في صحته وكيف يرتابون منه والبخاري لم يثبته في صحيحه الا بعد ان توضأ وصلى ركعتين. لكن محمداً لما استتب له الامر واوحي

[1] وكان قد خرب وعفت آثاره من قبل هذا الاسراء بزهاء خمسمائة وخمسين سنة قال ابن الشحنة خربه تيطس بعد رفع المسيح باربعين سنة وهذا لا يجهله احد سوى الراسخين في العلم

اليه ان الحديد فيه بأس شديد تناول السيف باحدى يديه والقرآن بالاخرى واكره العرب على التصديق بمعجزتيه هاتين[1] وانت قد رأيت اني احداهما وهي القرآن لم تكن حسية اي مما يدرك بشيء من الحواس الطبيعية وستقف على ردها بعيد هذا اما الاخرى فلم تكن سوى وهم جسمته له مشاعره ولم يعاينها احد غيره ولم يكن له عليها من شاهد سوى نفسه فان كان نبياً فهو بلا نبوة وان كان رسولاً فهو بلا معجزة

---

[1] الا ان العلماء لم يرضهم ان لا يكون له سوى معجزتين فلذلك اختلقوا له معجزات تربي في كثرتها وغرابتها وخرقها العادة على كل معجزات موسى وعيسى وسائر الانبياء



تذييل الفصل الثالث

زعم اهل السنة والجماعة متابعة لنبيهم ان القرآن كلام الله نفسه لفظاً ومعنى وانه معجزة في الفصاحة والبلاغة الا ان ذلك باطل ولنا على بطلانه ادلة متعددة. فاولا ان في طريقة كتابته وجمعه [١] دليلا على انه قد سقط منه شيء وانه ليس اليوم بايدينا كل ما زعم محمد انه نزل عليه منه [٢] فقد جاء في حديثه قوله رحم الله فلاناً لقد اذكرني كذا وكذا آية كنت اسقطتهن ويروى انسيتهن [٣] فثبت بهذا من نفس لفظه انه كان قد اسقط او انسي بعض آيات القرآن ويؤيد ذلك قوله في سورة الاعلى سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله ولنا من هذا الاستثناء ان نزعم انه قد اسقط او انسي آيات لم يتفق له من يذكره اياها

[١] جاء في الكامل وتاريخ الخلفاء ما تلخيصه : ان ابا بكر ارسل الى زيد بن ثابت يأمره بجمع القرآن خوف استحرار القتل بالقراء فيذهب معهم كثير منه فتتبعه زيد وجمع ما قدر عليه من الرقاع والعظام وصدور الرجال [٢] انظر كتاب «هل من تحريف في الكتاب الشريف؟»

[٣] الشفاء للقاضي عياض

وكذلك قد ثبت ان الصحابة حذفوا من القرآن كل ما رأوا المصلحة في حذفه[1] فمن ذلك اية المتعة اسقطها علي بتة وكان يضرب من يقرأها وهذا مما شنعت عائشة به عليه فقالت انه يجلد على القرآن وينهي عنه وقد بدله وحرفه . ومنه ايضاً ما كان يرويه ابن ابي كعب ولا نجده اليوم فيه وهو قوله اللهم انا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونتوكل عليك [2] الى آخر الوتر ثم ان كثيراً من اياته لم يكن لها من قيد سوى تحفظ الصحابة لها وكان بعضهم قتلوا في مغازي محمد وحروب خلفائه الاولين وذهب معهم ما كانوا يتحفظونه من قبل ان يوعز ابو بكر الى زيد بن ثابت بجمعه فلذلك لم يستطع زيد ان يجمع سوى ما كان يتحفظه الاحياء . اما ما كان مكتوباً منه على العظام وغيرها فانه كان مكتوباً عليها بلا نظام ولا ضبط وقد ضاع بعضها وهذا ما حدا العلماء الى الزعم ان فيه ايات قد نسخت حرفاً لا حكماً وهو من غريب المزاعم وحقيقة الامر فيها انها

---

(1) مقدمة الشاطبية (2) رسالة عبد المسيح الكندي وانظر ايضاً ما قاله المصنف عن آية كانت تقرأ في سورة التوبة على عهد محمد لكنها لا توجد اليوم في القرآن

قد سقطت بتة بضياع العظم الذي كانت مكتوبة عليه ولم يبق منها سوى المعنى محفوظاً في صدورهم ولما قام الحجاج بنصرة بني امية لم يبق مصحفاً الا جمعه واسقط منه اشياء كثيرة كانت قد نزلت فيهم وزاد فيه اشياء ليست منه وكتب ستة مصاحف جديدة بتأليف ما اراده ووجه بها الى مصر والشام ومكة والمدينة والبصرة والكوفة وهي القرآن المتداول اليوم وعمد الى المصاحف المتقدمة فلم يبق منها نسخة الا اغلى لها الخل وسرحها فيه حتى تقطعت وانما رام بما فعله ان يتزلف الى بني امية فلم يبق في القرآن ما يسوءهم

وهذا الكتاب كما اعتراه النقص تطرقت اليه الزيادة ايضاً وذلك ان الخلفاء الذين امروا بجمعه اولاً لم يكفهم انهم حذفوا منه كل ما رأوا المصلحة في حذفه حتى زادوا فيه ما ليس منه وتصرفوا في ما دعوه كتاب الله تصرف المالك في ملكه [١] وهم الذين نهجوا السبيل للحجاج حتى فعل به ما فعل فكيف

---

[١] قال ابن عباس عن المعوذتين انهما ليستا من القرآن ولما رآهم يثبتونهما فيه عند جمعه قال لهم لا تكتبوا في القرآن ما ليس منه وستقف بعد هذا على ما ضم اليه من كلام ابي بكر وغيره

يكون كل ما بين دفتيه كلام الله وقد رأيت ان فيه باقرار المسلمين انفسهم نقصاً في مواضع وزيادة في غيرها وشيئاً كثيراً من كلام المخلوقين . وهذا الذي قلناه انما هو مقول عن رواتهم العدول الثقات عندهم المأخوذ بقولهم المعول في الدين على ما نقلوه ونحن لما وقفنا على ما في الكتاب من كلام مبتور لا نظام له ولا تأليف ولا معنى ينسق صح عندنا ان الذي نقلوه الينا من خبره هو على ما حكوه

ثانياً—ان تعارض كلامه يدلنا على انه ليس من الله في شيء لان الله لا يعارض نفسه ولا ينقض بعض كلامه بعضاً ومصنف القرآن نفسه يقول عن كتابه انه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ونحن نجد فيه اختلافا كثيراً فهو اذاً من عند غير الله . وحسبنا لتأييد حجتنا ذكر لمع من تناقضه. قال في سورة النحل انه اي القرآن لسان عربي مبين . والمبين ما لا يحتاج الى تأويل فنقض ذلك بقوله في سورة ال عمران انه فيه آيات متشابهات وانه لا يعلم تأويله الا الله . وقال في سورة الاعراف ان الله لا يأمر بالفحشاء وقال في سورة الانعام ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم واهلها غافلون فنقض هاتين

الايتين بقوله في سورة الاسرى واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً. والامر بالفسق هو امر بالفحشاء واهلاك اهل قرية عن بكرة ابيهم من اجل مترفيهم فقط فسقوا فيها كما امروا ظلم محض. وقال في سورة يونس خطاباً لفرعون وقد اتبع بني اسرائيل بغياً حتى ادركه فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ويترتب على هذا الكلام ان الله نجى فرعون من الغرق فنقض ذلك بقوله في سورة الاسرى فاغرقناه ومن معه جميعاً وبقوله في سورة الزخرف فاغرقناهم اجمعين وبقوله في صورة القصص فاخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم. (ولما وقف المفسرون على هفوة القرآن في هذه الاية تأولوها تأولاً يخجل من مثله صبيان المكاتب فقالوا معنى ننجيك ننقذك من قعر البحر ونجعلك طافياً او نلقيك على نجوة اي مكان مرتفع من الارض ليراك بنو اسرائيل ويصدقوا عما اخبرهم به موسى من غرقك ان عاينوك مطروحاً على ممرهم من الساحل لانه كان في نفوسهم من عظمة فرعون ما خيل لهم انه لا يهلك وهكذا ظن المفسرون انهم تخلصوا من الاقرار بالتناقض اذ جعلوا لقوله ننجيك معنى غير معناه المتبادر الى الذهن

وهو التنجية من الغرق فقالوا انه القى بدنه مجرداً من الروح على نجوة ليكون اية لمن خلفه اي لبني اسرائيل ولكن فاتهم انه ليس في ذلك اية لبني اسرائيل لانهم كانوا قدامه لا خلفه فلا يتأتى لهم ان يعاينوه مطرحاً على ممرهم من الساحل بل ليس في ذلك من اية لاحد البتة لان هذه حال اكثر الغرقى تطفو جثثهم على الماء او يلقيها البحر بالساحل وانما الاية في نجاة فرعون وحده من الغرق بعد ما اشرف عليه حتى يكون اية لمن خلفه من المصريين وهذا هو المعنى الذي اراده القران وان كره المفسرون)

وقال في سورة المؤمن ولقد ارسلنا موسى باياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان وقارون[1] قالوا ساحر كذاب فلما

---

[1] كلام القرآن ههنا يوهم ان قارون من قوم فرعون وان موسى ارسل اليه كما ارسل الى فرعون الا انه في موضع آخر (سورة القصص : ٤٦) انه كان من قوم موسى وهو الصواب وزعم المفسرون انه ابن يصهر فهو اذاً قورح بن يصهر المذكور في التوراة (سفر الخروج ٦:٢١) فذكره ههنا مع هامان وفرعون مجلبة للغلط لانه يتبادر منه الى الذهن انه كان مصرياً من قوم فرعون مع انه اسرائيلي من قوم موسى

جاءهم بالحق من عندنا فقالوا اقتلوا ابناء الذين امنوا معهم . فالظاهر من هـذا الكلام ان فرعون لم يأمر بقتل ابناء اليهود الا من بعد ما جاءه موسى بالحق من عند الله .لكن ذلك منقوض بقوله في سورة طه خطاباً لموسى اذ اوحينا الى امك ما يوحى ان اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم وهذا يترتب عليه ان فرعون امر بقتل ابناء اليهود وموسى اذ ذاك طفل ولم يجئه بالحق من عند ربه اذ لا باعث على قذفه في اليم وهو في التابوت الا الخوف عليه من ان يقتله فرعون كما كان يقتل غيره من اطفالهم . وقال في سورة البقرة ان الذين امنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الاخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وهـذا تصريح بان من عمل صالحاً من اهل الكتاب فهو ناج . وقال فيها ايضاً لا اكراه في الدين وهـذا حظر صريح عن اكراه الناس على الدخول في دين لا يريدون الدخول فيه . فنقض ذلك بقوله في سورة آل عمران ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين . وبقوله في سورة براءة وسورة التحريم جاهد الكفارة والمنافقين واغلظ عليهم . وبقوله

في سورة البقرة وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله والمراد بالفتنة هنا كل دين خالف الاسلام. وقال في سورة مريم عن لسان عيسى ابنها والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا. وهذا اثبات لموت عيسى وبعثه لكنه منقوض بقوله في سورة النساء وما قتلوه وما صلبوه بل رفعه الله اليه. وهذا نفي لموته وبعثه وهو المعنى الذي اراده القران والا فقد كذبه عما تنبأ به عن نفسه ولا اظنه اراد ذلك. وقال في سورة فصلت أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين الى ان قال وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً او كرها قالتا اتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين. فهذا الكلام يحصل منه امران احدهما انه خلق الارض والسموات في ثمانية ايام والاخر انه خلق السماء بعد الارض لا قبلها لكن الاول منقوض في سبعة مواضع من القرآن بما معناه انه خلقهما وما بينهما في ستة ايام لا في ثمانية[1]

---

[1] الاعراف : ٥٢ ويونس : ٢ وهود : ٩ والفرقان : ٦٠ والسجدة : ٤ وق : ٣٧ والحديد : ٤ وقد تنبه المفسرون لهذا التناقض

والثاني منقوض بقوله في سورة النازعات أأنتم اشد خلقاً ام السماء بناها رفع سمكها فسوّاها واغطش ليلها واخرج ضحاها والارض بعد ذلك دحاها

وعد في جملة هـذه المناقضات مائة وخمساً وعشرين آية متفرقة في ثلاث وستين سورة منـه تأمر بالصفح والتولي والاعراض والكف عمن لم يكن مسلماً وقد نقضتها كلها آية السيف وهي قوله في سورة التوبة فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد . وهذا في زعمهم كلام الله يأمرهم في مائة وخمسة

فتأولوه بما تلخيصه انه عنى بقوله في اربعة ايام في تتمة اربعة ايام اي انه خلق الارض في يومين وجعل فيهـا رواسي وقدر اقواتهـا في يومين آخرين فتلك اربعة أيام وانه قال اربعـة ايام ولم يقل في يومين اشعاراً باتصال الايام وتصريحاً على الفذلكة الا ان هذا التأول من عبث الولدان ولو صح للزم منه ان يقول بعـد ذلك عن السموات فقضاهن سبع سموات في ستة ايام اي في تتمة ستة ايام لا في يومين كما قال فـالي اراه يريد الاشعـار باتصـال ايام الابداع والتصريح على الفذلكة في توسط الكلام ولا يريد ذلك في آخره مع ان الفذلكة موضعها آخر الكلام لا وسطه الا ان يقال هذا من الفصاحة التي بذت فصاحة كل منطق والبلاغة التي افحمت كل خطيب مصقع

وعشرين موضعاً من كتابه بالصفح عمن خالفهم في الدين ثم يبطل ذلك كله اعتباطاً حاشا لله ان يفعل ذلك وانما هذا يفعله رجل كان في اول امره مستضعفاً فلما قوي اخذ بالثار او كان مظلوماً ثم حكم فجار

ومما يقضي بالعجب ان يناقض القرآن نفسه في القدر الذي هو من الايمان وركن مهم من اركان الاسلام فقال ليلة القدر خير من الف شهر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر. اي من كل امر قدر في تلك السنة كما عليه جمهور المفسرين. وقال ايضاً انا أنزلناه في ليلة مباركة وهي عندهم ليلة القدر التي تفصل فيها الاقضية ويفرق اي يقدر كل امر يقع ذلك العام من حياة او موت او غير ذلك الى مثلها من قابل وهذا يترتب عليه ان امور الخلق تقدر عاماً عاماً. لكن ذلك منقوض بقوله في سورة الحديد ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في نفوسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها اي الا مكتوبة في اللوح المحفوظ مثبتة في علم الله من قبل ان تخلق وانت تعلم ان هذا اللوح قد كتب فيه بزعمهم كل الامور وقدرت من قبل ان تكون ليلة القدر. وزاد ذلك ايضاحاً فقال وكل انسان

الزمناه طائره في عنقه اي الزمناه عمله وما قدر له وعليه منذ ميلاده حتى لزمه لزوم الطوق للعنق ويترتب على هذا انه قدر على الانسان دفعة كل ما يعمله في عمره لا ما يعمله في عامه فقط وهذا تناقض بين في اركان الايمان لا يصح وقوعه في كتاب جميع ما فيه كلام الله

ولما تنبه المفسرون لما في القرآن من التناقض الظاهر ولم يجدوا له تأولا يرضيهم على ما بهم من التساهل في قبول التأول الذي يأباه العقل لجأوا الى حجة النسخ فدعوا الناقض ناسخاً والمنقوض منسوخاً وهي حجة واهية وان قلنا تساهلا انها قد تجوز في الاحكام بالشروط التي ستقف عليها فلا تجوز في الاخبار ابداً لان الخبر لا يقبل النسخ وانما هو امر جرى على وجه واحد معين فان جعلته على وجهين مختلفين فلا بد من ان يكون احدهما كاذباً [1] اذا علمت هذا فاعلم ان لجواز نسخ الاحكام شروطاً اهمها ان يبين للناس ما هو الناسخ وما هو

[1] قال السيوطي في الاتقان لا يقع النسخ الا في الامر والنهي اي في الاحكام اما الخبر فلا يدخله النسخ اذا عرفت ذلك عرفت فساد صنع من ادخل في كتب النسخ كثيراً من آيات الاخبار.

المنسوخ وذلك بنص الشارع نفسه وبالتضمين حيث لا يمكن التصريح ومنها ان لا ينسخ حكم الا اذا دعت الى ذلك ضرورة من تغير الزمان او العادات وهذا لا يكون في الغالب الا بعد مضي مدة متطاولة اذ ان نسخ الحكم بعد قليل من وضعه بحكم ثان يدل على قلة بصيرة الشارع في وضعه الحكم الاول او قلة حكمته في وضعه الثاني. ومنها ان يكون الناسخ تاليًا للمنسوخ لا متقدماً عليه وهذا من البديهيات. لكن القرآن لم يراع شيئاً من هذه الشروط. فاولا لا يعلم احد من نصه نفسه ان آية السيف مثلا قد نسخت كل ايات الصفح والتولي بل هذا ما قاله المفسرون عند ما وقفوا على التناقض ولم يجدوا الى تأويله سبيلا ولكن لا يمكن ان يعتبر قولهم بمنزلة قول القرآن. ثانياً—لم تقع فسحة كافية بين الناسخ والمنسوخ بل رب آية نسخت ولم يمض على تنزيلها سوى ليلة [1]. ثالثاً—ان الناسخ كثيراً ما يكون متقدماً في النسق على المنسوخ فمن ذلك قوله في الاية الحادية والاربعين بعد المائتين من سورة البقرة والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً وصية لازواجهم متاعاً الى الحول فقد امر ههنا

[1] انظر ما ذكره المصنف في الفصل الذي نحن بصدد تذييله

بالعدة ان تكون حولا اي عاماً تاماً لكن هذه الاية منسوخة باية متقدمة عليها في النسق وهي الرابعة والثلاثون بعد المائتين من السورة نفسها يقول فيها والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا يتربصن بانفسهن اربعة اشهر وعشراً. فمن ذلك قوله في الاية الحادية والخمسين من سورة الاحزاب خطابا لمحمد لا يحل لك النساء من بعد ولا ان تبدل بهن من ازواج ولو اعجبك حسنهن. فقد نهي محمد بهذه الاية عن ان ينكح بعدها كل امرأة اعجبه حسنها الا انها منسوخة في زعمهم باية متقدمة عليها وهي التاسعة والاربعون يقال له فيها انا احللنا لك ازواجك الى قوله وامرأة مؤمنة الخ. قالوا ان هذه الآية ناسخة لتلك وانما قالوا ذلك لان نبيهم نكح ازواجا جداً من بعد ذلك النهي ولما لم يسعهم الانكار لجأوا الى هذه التعلة السخيفة [1]

واعجب ما في قضية النسخ ان ينسخ الله حكم آية ويبقى حرفها كقوله في سورة النساء واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن في

---

[1] نعم ان التقدم في النسق لا يلزم منه ضرورة التقدم في التاريخ الا انه ينافي حسن النظام الذي هو من شروط البلاغة

البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن سبيلا فهذه الاية حرفها باق كما ترى لكن حكمها منسوخ باية الرجم [١] وهي اية قد نسخ حرفها فلا توجد اليوم في القرآن لكن حكمها باق كما عليه جمهور العلماء والفقهاء وهي مستندهم في اقامة حد الرجم على من زنى وكان محصنا [٢] فان قلنا ان نسخ آية باية مثلها او اقوى منها له وجه فلا وجه لنسخ الحرف وابقاء الحكم لانه من عبث الولدان وهذا لا يجهله احد من الناس خلا الراسخين في العلم . وانما حملهم على الجزم ببقاء الحكم من آية الرجم وان كان حرفها منسوخاً قول القرآن ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها الا انه نسخ آية الرجم ولم يأت بخير منها ولا بمثلها فلذلك احتاجوا في اقامة حد الزنا على المحصن الى حكم آية لا تجدها في القرآن بل لو اعدتها اليوم اليه اذ كانت بزعمهم كلام الله لاقاموا عليك القيامة . وما الحكمة ياليت شعري في نسخ آية والاتيان بخير منها في كتاب هو كلام الله الا ان يقال ان الله كاتب قصير الباع في فن الكتابة فيحتاج الى التسويد

---

(١) وقد ذكرها المصنف في موضعها

(٢) اطلب كتاب آية الرجم بغرش صاغ

اولاً ثم يعيد النظر في ما كتبه فيهذبه وينقحه ويحرره ثم يبيض تصنيفه كحال الكتبة من البشر فان كان الامر كذلك فالقرآن في قضية آية الرجم باق على المسودة لان هذه الاية قد نسخت ولكن لم يؤت بخير منها

ثالثاً — ان غلطه في الحوادث التاريخية واسماء مشاهير رجالها وجهله من امور الطبيعة ما لا ينبغي جهله كل ذلك يدل على انه ليس من الله في شيء لان الخطأ مستحيل في موضع العصمة والجهل ممتنع على من احاط بكل شيء علماً . فقد زعم مصنف القرآن ان كتابه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وانه جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب المنزلة اي ما تقدمه من التوراة والانجيل لكنه خالفهما في مواضع كثيرة فدعا ابا ابرهيم آزر[1] وهو في التوراة تارح. ودعا مريم العذراء بنت عمران واخت هرون وهي في الانجيل بنت هالي[2] وابن مريم من عمران ابي موسى وهو متقدم عليها بالف وستمائة سنة

ومن غلطه ايضاً انه جعل هامان وزيراً لفرعون ولم يكن احدهما من الاخر في شيء لان هامان متأخر عن فرعون بزهاء

---

(1) سورة الانعام : ٧٤ (2) لوقا ٣: ٢٣

الف سنة وكان وزيراً لاحسويروش في بابل لا لفرعون في مصر . ومن ذلك قوله خطاباً لموسى قد فتنا قومك من بعدك واضلهم السامري واراد بذلك ان هذا السامري هو الذي صنع عجل الذهب لبني اسرائيل ودعاهم الى عبادته لما كان موسى غائباً عنهم وانت تعلم انه لا يمكن ان يكون في بني اسرائيل سامري على عهد موسى لان هذا النعت لم ينعت به احد الا بعد موسى بقرون عديدة اي بعد جلاء بابل . ومن ذلك ما جاء في سورة البقرة من قوله فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده (آية ٢٥٠) فقد عزا هنا الى شاول وقومه ما جاء في التوراة عن جدعون وقومه (سفر القضاة ٧:٥—٧) ومن ذلك انه تعرض لتاريخ اسكندر فدعاه ذا القرنين وقال عنه انه بلغ قوماً لا يفقهون قولاً وانه بنى سداً من زبر الحديد وغير ذلك مما لا حقيقة له اصلا اذ تاريخ الاسكندر معروف وقد كتبه الثقات قبل القرآن بكثير وليس فيه ذكر لهؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا ولا

للسد[1] ومن ذلك قوله انه اسري به الى المسجد الاقصى اي هيكل سليمان وزعم في حديثه انه زاره وصلى فيه مع الانبياء ووصفه وصفا يقضي بانه عاينه مع انه كان قد خرب وامحت اثاره من قبل هذا الاسراء بخمسمائة وخمسين سنة . ومن ذلك قوله ثم يأتي من بعد ذلك عام يغاث فيه الناس اي يعطرون والاشارة هنا الى القحط الذي اصاب اهل مصر سبع سنين متوالية ايام يوسف والكلام تبشير لهم بالخصب بعد الجدب ويترتب عليه ان خصب مصر مسبب عن المطر وهذا خلاف الواقع فالمطر قلما يقع في ذلك القطر ولا دخل له في خصبه بل ذلك مسبب عن فيض النيل وهذا لا يجهله احد من اهل البلاد النازحة عن مصر فضلا عن العرب المتاخمين لها

ويترتب على ما مر من التناقض والغلط والجهل ان القرآن كلام البشر لا كلام الله وانه من حيث المعنى تصنيف

---

[1] سورة الكهف : ٩٢ وما يتلوها . ولعل مصنف هذه القصة من القرآن قد سمع بسور بلاد الصين الشهير فنسب بناءه الى الاسكندر لكنه غلط من وجهين احدهما ان الاسكندر لم يبلغ تلك البلاد قط حتى يبني فيها السور والآخر ان هذا السور متأخر عن زمان الاسكندر نحو مائة سنة

رجال مختلفي المقاصد والمذاهب من عرب ومجوس ونساطرة ويهود(١) وان بعضهم كان اميا لا معرفة له في شيء فلذلك كان فيه الغث والسمين وكثر تلونه حتى لم يبق له لون يعرف

رابعا — ان وجود اللغو فيه يدحض دعواهم له بانه كله بيان وهدى وانه كلام الله وانظر اي بيان ام اي هدى في قوله الم وقوله كهيعص بل هذه الاحرف وامثالها في غاية البعد عن الهدى بدليل انه لم يهتد احد منهم حتى ولا الراسخون في العلم لادراك معناها فالخطاب بها اذاً كالخطاب بالمهمل وانما هي مما وضعه كتبة محمد من اليهود تنبيها على انقطاع كلام واستئناف

(١) لما مات الراهب بحيرا وثب ثلاثة من اليهود اشتهر منهم واحد اسمه عبد الله بن سلام وقد اشتهروا بالمكر والدهاء فتوددوا الى محمد وتلطفوا به واظهروا له انهم تابعوه على رأيه وقالوا بقوله ولم يزالوا على ذلك بالختل وكتمان ما في انفسهم يلقنونه او يدسون اليه ما يوافق غرضهم لعلمهم بعجزه عن دفع قولهم في اشياء توهم انهم اعلم بها منه وهذا سبب ما في القرآن من مذهب اليهود وقصص التلمود زيادة على ما فيه من عقائد النساطرة. اما ما فيه من مذاهب المجوس فقد تلقاه محمد عن سلمان الفارسي الذي ذكر المصنف قصته في الحاشية . واما سائر ما فيه من جهل ما لا ينبغي جهله فسببه امية محمد نفسه وامية صحابته

اخر ومعناها اوعن الي محمد وهكذا امر كما ذكر المصنف ذلك في محله وفي هذا اشارة الى انهم كانوا يتبرأون من الايمان بما يأمرهم بكتابته ولا معنى فيها لغيرهم. اذا علمت هذا جزمت بانها وما يشاكلها ليست من كلام الله ولا يمكن ان تكون من كلامه لانه سبحانه لا يخاطب عباده بما لا يقدرون على فهمه

خامساً — قد زعموا انه معجزة من حيث الفصاحة لفظاً والبلاغة معنى حتى لو اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثله لعجزوا. وهذا مردود من وجهين احدهما ان الكتاب نفسه قد نفى بالتضمين صفة الاعجاز عن كلامه فذكر في مواضع متعددة كلاماً يأخذ منه قائله ما كان يرى القرآن معجزة. والاخر ان محمداً نفسه جاء بكلام يضاهي في فصاحته كلام القرآن وذلك انه قرأ ذات يوم سورة النجم التي ادعى انها نزلت عليه فلما بلغ منها الى قوله افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى بدره في زعمهم لسانه فقال تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى. وهذا الكلام كفر محض وانما قاله محمد تألفاً لقلوب قريش كما كان دأبه في اول الامر اذ كانت هذه الطواغيت من معبوداتهم وقد جاء به فصيحاً من جنس فصاحة

القرآن غير ان المفسرين يزعمون انه من كلام الشيطان القاه في نفس النبي المعصوم وهذا يؤيد ما قلناه قبلا من ان محمداً كان يسمع من الخطاب ما لا يسمعه غيره وما لا يخاطبه به غير وهمه اذ ليس الشيطان ههنا سوى مخيلته المتنبهة او دماغه المحتد. ولكن هب انه كلام الشيطان نفسه كما زعموا فيترتب عليه ان ابليس الجني لا محمداً الانسي قد جاء بكلام يضاهي فصاحة القرآن ولم يتنبه لذلك محمد حتى نبهه جبريل كما زعموا بل ان مستمعيه انفسهم وكانوا عرباً فصحاء مثله لم يجدوا فرقاً في الفصاحة بين الكلام المنسوب الى الله وكلام محمد او الشيطان

وكم وكم في القرآن من كلام لا ينبغي ان يتردد احد في الجزم بانه لمحمد نفسه وانه قاله تواً من عند نفسه. فمن ذلك قوله في سورة الانعام قد جاءكم بصائر من ربكم فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما انا عليكم بحفيظ. وقوله فيها افغير الله ابتغي حكماً وقوله في سورة النمل انما امرت ان اعبد رب هذه البلدة. وقوله في سورة حم عسق ذلكم الله ربي عليه توكلت واليه انيب. وقوله في سورة براءة لا تحزن ان الله معنا وغير ذلك من الايات التي يظهر منها ظهوراً جلياً انها من كلام محمد نفسه وقد

ضاهت فصاحة القرآن

بل كم وكم فيه من كلام لكتبة محمد يعده المفسرون من كلام الله الذي يفوق قدرة البشر فصاحة. فقد جاء في الصحيح عن انس ان نصرانياً كان يكتب الوحي لمحمد وكان يقول لا يريد محمد الا ما كتبت انا. وجاء عن عبد الله بن سعد بن سرح وكان من كتبة الوحي ايضا انه قال كنت اصرف محمداً حيث اريد كان يملي علي عزيز حكيم فاقول عليم حكيم فيقول نم كل صواب حتى قال له آخر الامر اكتب كيف شئت[١] وكان يوما يكتب له قوله ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين الى قوله ثم انشأناه خلقا آخر فلما بلغ الى هذا الموضع من الكلام وقف يتفكر في فاصلة تليق بالمقام فقال عبد الله بن سعد تبارك الله احسن الخالقين تعجبا من تفصيل خلق الانسان فقال له محمد اكتبها فكذلك نزلت . فشك عبد الله وقال لئن كان محمد صادقا لقد اوحي الي كما اوحي اليه ولئن كان كاذبا لقد قلت كما قال[٢] ولعمري انه نطق بمثل الجيد من كلام القرآن وجاء بفاصلة جعلت لما تقدمها

(١) الشفاء للقاضي عياض (٢) تفسير المؤمنين : ١٤

من الكلام رونقا وكان لولاها ركيكا لكن ذلك احفظ محمداً عليه فاهدر دمه يوم فتح مكة ولم يعف عنه الا لشفاعة عثمان فيه[٢]

وجاء فيه ايضا من كلام ابي بكر قوله في سورة آل عمران وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين . قال ذلك ابو بكر يوم مات محمد وكادت تنشق لذلك عصا امته لانه كان في نفوسهم انه لا يموت ثم لما جمع القرآن ضم اليه هـذا الكلام . وكذلك جاء فيه من كلام عمر لفظا قوله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ومعنى اشياء كثيرة حتى ان محمداً نفسه قال ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه وانه ما نزل بالناس امر قط فقالوا وقال الا نزل القرآن على ما قال[١] وعليه فان كان في قوله واتخذوا الخ معجزة فهي له للقرآن

---

[١] انظر كتاب « هل من تحريف في الكتاب الشريف ؟ »

[٢] وكان عمر نفسه يقول وافقت ربي في ثلاث في الحجاب (سورة الاحزاب : ٥٣) وفي اسارى بدر (سورة الانفال : ٦٨) وفي مقام ابراهيم (سورة البقرة : ١١٩) وانظر تفسير هـذه الآيات للبيضاوي وغيره من المفسرين

وقد شط بعض الائمة في دعوى الاعجاز لكتابهم حتى قالوا ان كل جملة منتظمة منه معجزة وان كانت من كلمة او كلمتين[١] وان كل ما بين دفتيه كلام الله وهذا يترتب عليه ان كل ما ورد فيه من حكاية قول الآخرين هو معجزة لهم ضاهوا بها فصاحة ما زعم انه كلام الله فان قالوا انه نقل اقوال الاخرين بمعانيها لا بالفاظها فلا معجزة لهم فيها بل المعجزة لمن سبك تلك المعاني في قوالب اللفظ الفصيح قلنا اولا ان القرآن عندهم معجزة باعتبار المعنى كما هو معجزة باعتبار اللفظ[٢] ثانيا انه ليس ثم دليل على نقله المعنى دون اللفظ الا اذا كان القائل اعجميا فيدخل في ذلك كلام كثير من العرب ورد ذكرهم في القرآن ونقل كلامهم فيه حتى المشركين والكفرة والمستهزئين الذين كانوا يناصبون محمداً ويجادلونه في دعوى النبوة[٣]

---

[١] الشفاء للقاضي عياض [٢] انظر تفسير سورة النحل : ١٠٥ للبيضاوي وغيره [٣] (مثال ذلك الترجمة الى اللغة الانكليزية التي اغلب سورها وآياتها بلا معنى للطالب الانكليزي فنادر من يصبر على قراءتها بتلك اللغة)

سادساً—ان فيه مضامين لا يمكن ان تكون مما اوحى به الله فمن ذلك قوله واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً. هذا لا يقوله ولا يوحي به اله عادل رؤوف بعباده تنزه الله عن ان يأمر بالفسق او ان يهلك اهل قرية ظلماً ليقتص من مترفيها لانهم فسقوا فيها بامره وكذلك الشارع الحكيم لا يأمر الناس بالكذب بل ينهاهم عنه الا انه جاء في القرآن ان الله امر مريم ام عيسى ان تقول كذباً انها نذرت للرحمن صوماً فلن تكلم انسيا وهي لم تكن صائمة بدليل امره اياها في العبارة نفسها ان تهز اليها بجذع النخلة تساقط عليها رطباً جنياً فتأكل وتشرب وتقر عيناً. وبعد فان امره اياها ان تقول انها صائمة لا تتكلم كلام متناقض لان الصائم لا يتكلم فان قالت ما امرها بقوله فقد تكلمت. وكذلك الشارع الحكيم لا يحلل نكث العهد والحنث بالايمان فضلاً عن انه لا يأمر به الا ان القرآن امر بنكث العهد في اول سورة براءة وحلل الحنث في سورة التحريم وغيرها ودعاه تحلة الايمان. ويا ليت شعري اي رئيس امة حكيم بصير يقول ما قاله القرآن في سورة النور ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصناً

لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم[1] فذكر الغفران والرحمة حيث ينبغي ذكر سرعة الحساب وشدة العقاب اغراء على الذنب الذي رام ان ينهي عنه ولذا استمرت العرب من بعد هذه الاية على ما جرت به عادتهم من اكراه امائهم على البغاء ولا عجب من ذلك لان كتابهم اطمعهم في الغفران والرحمة من ربهم وان لم يقفوا عند نهيه. ومثل هذا الكلام لا يمكن ان يكون كلام الله او موحىً به منه بل هو كلام رجل يتزلف الى قومه ويتألف قلوبهم ولا يكلفهم ما يشق عليهم فلذلك كان يدعو طواغيتهم الغرانيق العلى ويقول ان شفاعتهن لترتجى ويصرح ان من جاء بالحسنة منهم فله عشر امثالها بل سبعون بل سبعمائة ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها[2] ويقول ان شفاعته لاهل الكبائر من امته وان من مات منهم لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ولو زنى او

---

[1] سورة النور : ٣٢ وتفسيرها لسائر المفسرين وقد تمحلوا كافة تأويلا لهذه الآية فقالوا غفور رحيم للمكرهات وهو من اغرب التفاسير واسخفها فان المكرهة المضطرة غير آثمة ولا حاجة بها الى الغفران

[2] سورة الانعام : ١٦١

سرق او شرب الخمر فصاحب هذه الاحاديث وامثالها هو صاحب ذلك الكلام المنسوب الى الله

سابعاً—ان القرآن مشحون بامور محمد نفسه وكثيراً ما نزلت سور منه برمتها في ما لا يهم احداً غيره ولو كان كلام الله كما زعموا لما صلح ان يتنزل بارئ الاكوان وخالق الخلق الى ان يوحي بما لا يهم احداً من خلقه سوى محمد وازواجه وشواهد هذا كثيرة نكتفي بالقليل منها لاقامة حجتنا. فمن ذلك ان محمداً استصحب في احدى غزواته زوجته عائشة فاذن ليلة بالرحيل فمشت عائشة لقضاء حاجة ولما عادت الى الرحل لمست صدرها فاذا عقد من جزع ظفار قد انقطع فرجعت لتلتمسه فظن الذي كان يرحلها انها دخلت الهودج فرحله على مطيتها وسار ولم ير انها لم تكن فيه. وهذا يدلنا على ان تلك الليلة كانت حالكة الظلام ويترتب عليه بحكم الضرورة انه يصعب فيها التماس حبات من الجزع الاسود قد انتثرت في البرية فرجوع عائشة لالتماسها عجيب واعجب منه انها لما عادت الى حيث كان هودجها ومرحاها لم تجد ثم احداً كأن قد خسف بالعسكر والابل والخيل وسائر مهمات الحرب مع انه لم يمض

سوى هنيهة بين ذهابها لالتماس العقد وعودتها الى مكانها ولم اجد في المفسرين من ذكر السبب الذي ثبطها عن ان تسير قليلاً فتدرك قومها وقد كانوا منها عن كثب مع انهم اخترعوا لتخلفها عن العسكر معاذير مضحكة . ومهما يكن من هـذا فانها لما رأت انه لم يبق في المحلة احد فوضت امرها الى الله وقعدت في البرية تنتظر احدى خلال ثلاث اما الهلاك جوعاً وعطشاً او ان يفترسها سبع من سباع البر او ان يرجع اليها منشد . وكان شاب من معارفها اسمه صفوان قد عرّس وراء العسكر وذلك بتقدير العزيز الحكيم لا بتواطؤ معها كما اتهمها الذين في قلوبهم مرض مستندين في ذلك الى انها كانت وقتئذ فتاة صغيرة السن وكان بعلها شيخاً ابن ست وخمسين سنة وكان له ثمان نسوة غيرها فهذا ان انطبق حكمه على سائر بنات حواء لا يمكن ان ينطبق على ام المؤمنين لانها زوجة نبي معصوم وليست كاحد من النساء[1] ولا تشبه احداً منهن اللهم الا زوجة قيصر في تنزهها من ان تكون محلاً للتهمة . فلا بد لك اذاً من ان تؤمن من كل قلبك ان صفوان انما عرس وراء

[1] سورة الاحزاب : ٣٢

العسكر من غير علمها وانه بالهام رباني ادلج فاصبح عند منزلها فعرفها فاناخ راحلته فركبتها فقادها حتى اتيا الجيش. غير انه فيما كان يقودها مرّ ببعض الكفرة وفيهم عبد الله بن أبي الذي كان محمد يدعوه رأس النفاق فقال من هذه فقيل له عائشة زوج النبي مع صفوان فقال والله ما نجت منه ولا نجا منها وقال امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى اصبحت ثم جاء يقودها. وانما قال ما قال لانه لم يكن مؤمناً يصدق بعصمتها فاتهمها هو والناس افكاً وبهتاناً وخاضوا في هذا الحديث فكبر الامر على محمد لكنه لم يشأ ان يطلقها لانها كانت احب نسائه اليه ولانها كانت بنت ابي بكر زعيم صحابته الذي لم يكن لولاه ليفوز بمرامه فلم يجسر على احفاظه بتطليق بنته بحيث يثبت التهمة عليها والعار على ابيها فلما اعيته الحيل استنزل جبريل من السماء بثماني عشرة آية من سورة النور في براءتها. قال الزمخشري في تفسير هذه الآيات لو فليت القرآن كله وفتشت عما اوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في افك عائشة ولا انزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف ما انزل في افك عائشة على طرق مختلفة

واساليب مفتنة فاوجز في ذلك واشبع وفصل واجمل واكد وكرر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الاوثان الا ما هو دونه في الفظاظة (انتهى). فالمشركون عبدة الاوثان هم اذاً عند المفسرين اقل كفراً من قارفي عائشة وكل الذنوب تغفر عندهم لمن يتوب منها الا ذنب من يخوض في امر عائشة وان الله جل وعلا قد تنزل الى تبرئة هذه المرأة بكلام لم يقع مثله في المبالغة عندما برأ يوسف وموسى ومريم من التهمة[1] واوعد متهميها باغلظ مما اوعد به العصاة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فما هذا كلامه وانما هو كلام رجل قد غضب مما قيل في زوجته او مما دعا الى ان يقال فيها ما قيل

اما ما جرى لمحمد مع مارية القبطية فقد اقتضى نزول خمس آيات من اول سورة التحريم واربع آيات من آخرها وذلك انه خلا بمارية المذكورة في يوم زوجه حفصة بنت عمر على فراشها اذ كانت غائبة فلما علمت بذلك مضها وكبر عليها ولا عجب فوبخته اشد التوبيخ فقال لها ليسترضيها اكتمي الامر عليّ وقد حرمت مارية على نفسي فما كتمته بل اسرته الى عائشة

(١) انظر تفسير سورة النور للزمخشري

وكانت صديقتها مع انها ضرتها . فرأى محمد من هذه ما اثبت عنده ان سره قد ذاع فوبخ حفصة وادعى ان الله هو الذي انبأه بافشائها السر ثم طلقها واعتزل باقي نسائه شهراً اقامه ببيت مارية تسلياً عنهن واستنزل الوحي من السماء يحلل له الحنث بما عاهد به من تحريم مارية على نفسه وجعل الله يخاطبه هكذا يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبتغي مرضاة ازواجك والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم . واذ اسر النبي الى بعض ازواجه حديثاً فلما نبأت به واظهره الله عرّف بعضه واعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من انبأك هذا قال نبأني العليم الخبير . ولم يكفه هذا حتى شبه حفصة وعائشة في الخيانة لبعلها بامرأة نوح وامرأة لوط وضرب لهما مثلاً في الايمان والاحصان من امرأة فرعون ومريم ام عيسى

اما سورة الاحزاب فقد نزل اكثرها في امور محمد وازواجه وضيفانه ونحن ذاكرون لك شيئاً من الحوادث التي اقتضت نزول بعض آياتها فمن ذلك ان محمداً غزا بني قريظة فتحصنوا فغرهم واستنزلهم على حكم يهودي خائن متمسلم اسمه

سعد بن معاذ وكان قد واطأه عليهم وهم لا يعلمون فقبلوا بحكمه فحكم هذا الغدار بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم ونسائهم ولما سمع محمد بهذا الحكم كبر ليوهم انه لم يسبق له به علم وقال لسعد لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة ارقعة وذبح منهم سبعمائة رجل واسترق مثل ذلك واستأثر باموالهم زاعماً انها جعلت له طعمة دون الناس. فلما علمت نساؤه بذلك سألنه ان يوسع عليهن الكسوة والنفقة فكره ذلك واستنزل جبريل يقول له عن لسان ربه يا ايها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحاً جميلاً وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجراً عظيماً . فلم يقنعهن هذا الوعد الآجل عما سألنه في العاجل واقبلن ينغصن عليه عيشه فنزل جبريل يقول لهن يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين فالكلام هنا في الفاحشة المبينة اي الظاهر قبحها وهذا مطابق لما جاء في الحديث من قوله الخطيئة اذا اخفيت لم تضر الا صاحبها فاذا اظهرت اضرت بالعامة ويترتب على ذلك ان الخطب في المعصية المستترة اهون

وكان يكره من نسائه ان يجلن في الشوارع متبخترات مترنحات يخضعن بالقول اي يجئن به ليناً خنثاً لمن يخاطبهن مثل قول المريبات فيطمع فيهن الذي في قلبه مرض وهذا ما لا يرضاه بعل فما رضيه محمد واستنزل جبريل من السماء يقول لهن يا نساء النبي لستن كاحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى. وروي انهن قلن له يا رسول الله ذكر الله الرجال في القرآن بخير فما فينا خير نذكر به فنزل جبريل من عند الله يتألف قلوبهن ويقول لهن ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات اعد الله لهم مغفرة واجراً عظيماً. فهذا الكلام يستلفت نظرنا من جهتين احداهما ان فصاحته قد بلغت غاية يعجز عن مثلها الانس والجن ولو كان بعضهم لبعضهم ظهيراً. والاخرى ان محمداً بعد ان ابى مراراً ان يأتي بالمعجزات من

النوع الذي اقترحته عليه قريش كما زعم المفسرون لم يأب ان يأتي بالوحي من النوع الذي اقترحته عليه نساؤه

وكان له غلام ذليل اسمه زيد وكان قد آمن به لما ادعى النبوة فاعتقه لذلك وتبناه حتى صار يدعى زيد بن محمد ثم خطب له يوماً امرأة شريفة اسمها زينب فابت وابى اخوها ايضاً ولا غرو ان يأبى الاشراف مصاهرة العبيد الا ان محمداً كان يكره ان ينكح هذه المرأة غريب لا ينزل له عنها عندما يريدها هو لنفسه فابرم ان ينكحها زيد واستنزل جبريل من السماء يقول لها ولاخيها عن لسان الله وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان تكون لهم الخيرة من امرهم. فاضطرت هذه الشريفة ان تتزوج بالغلام ريثما يتهيأ للمولى ان ينكحها فلما تهيأ له ذلك اظهر لها انها وقعت في نفسه وقال لها يوماً سبحان مقلب القلوب وقيل ان الريح كشفت له يوماً من محاسنها ما ينبغي ستره الا عن البعل فقال لها ما قال ففهمت مراده وكل لبيب بالاشارة يفهم وذكرت ذلك لزوجها ففهم هو ايضاً مراد النبي فاتاه كاتماً من تلقاء نفسه اذ لا يسعه غير ذلك وقال اريد ان افارق صاحبتي فتجاهل محمد وقال ما لك أرابك منها شيء

قال لا والله ما رأيت منها الا خيراً ولكن لشرفها تتعظم علي.
وكان الاحرى ان يقول قد علمت مزيتك علي وما دار بينكما
من الكلام ورأيت منها ما اثبت عندي انها تؤثر ان تكون
زوجة نبي ملك رفيع على ان تكون زوجة دعي او غلام وضيع
فاريد ان افارقها حتى تكون لك غنيمة باردة. فقال له محمد
امسك عليك زوجك وكان في ذلك يخفي في نفسه ما الله
مبديه ويحاول ان يظهر للناس انه لم يتزوج بامرأة زيد الا
طاعة لامر الله فنزل الوحي مصدقاً لما ادعاه وخاطبه الله بهذه
الكلمات واذ تقول للذي انعم الله عليه وانعمت عليه امسك
عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى
الناس والله احق ان تخشاه. فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها
لكيلا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا
منهن وطراً فتزوجها ولم يجتنب ورود هذا الماء. فكبر ذلك على
الناس وخاضوا في الحديث وانكروا على محمد تزوجه بامرأة
رجل كان قد تبناه حتى صار له بمنزلة الابن وهذا عيب فاضح
عند العرب فاضطر ان يستنزل الوحي من السماء ثانية في هذه
النازلة فنزل جبريل يقول لهم عن لسان الله ما كان محمد ابا احد

من رجالكم وهكذا تبرأ في زعمه من ابوة زيد وتنصل من العار الملتحق بمن يتزوج بمطلقة ابنه

وكان عنده في هذا الوقت ثماني نسوة فنزعت نفسه الى التزوج بتاسعة فعظم ذلك على سائر نسائه وتصدين لكفه عنه بحجة انه مغاير للدين الذي جاء به فافحمهن بآية من عند ربه يقال له فيها يا ايها النبي انا احللنا لك ازواجك اللاتي آتيت اجورهن وما ملكت يمينك مما افاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ان اراد النبي ان يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين. فنكح هذه المؤمنة ووجد عندها طلاوة الجديد فانقطع اليها وهجر سائر نسائه دهراً او لعله كان اميل اليها منه اليهن فما كان يساوي بينهن في ما يحق للمرأة على بعلها فتشكين منه فاسكتهن بآية قرآنية يقال له فيها ترجي من تشاء منهن اي تؤخرها وتعطلها حقها وتؤوي اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت اي طلقت فلا جناح عليك ذلك ادنى ان تقر اعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن. فالله هو الذي يخاطب محمداً بهذا الكلام ويحل له بل يغريه ان لا يساوي بين

نسائه وان يعطيهن حقوقهن وان يراجع من كان قد طلقها منهن لان هذا جميعه ادنى ان تقر اعينهن وما كنا نعلم قبله ان هـذا مما تقر به اعين النساء . ومهما يكن منه فان محمداً رأى المصلحة في استرضاء ازواجه وتألف قلوبهن على اثر تلك النازلة فوعدهن انه لن يتزوج عليهن احداً من الحرائر بعدها واستنزل جبريل بآية يؤكد الله فيها هـذا الوعد بقوله لا يحل لك النساء من بعد . ولعلمه تعالى بضعف نبيه وشدة استعداده للافتتان بجمال النساء ولا سيما اذا كشفت له الريح ما كان خافياً من محاسنهن وبما فطر عليه من حب التبدل بهن نهاه عن ذلك بقوله ولا ان تبدل بهن من ازواج ولو اعجبك حسنهن . غير انه ما اراد وهو اللطيف الخبير ان تثقل على حبيبه وطأة هـذا النهي بحيث لا يبقى له من النساء سوى تسع حرائر فاباح له التسري او التمتع بالاماء ما شاء بقوله الا ما ملكت يمينك

وكان في المدينة قوم يتحينون طعامه فيدخلون بيوته للطعام والحديث وكان ذلك يؤذيه لاسباب لا تخفى على اللبيب لكنه استحى ان يقول لهم فيه فكلف ربه بذلك فنزل جبريل يقول لهم عن لسان الله يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت

النبي الا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا اي تفرقوا ولا تمكثوا مستأنسين لحديث بعد الطعام كعادة الناس فتشغلوا النبي عما حبب اليه من دنياكم ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق

وكان شديد الغيرة على نسائه شأن الشيوخ المتزوجين بالفتيات فكان يكره ان يسألهن الناس متاعاً الا من وراء حجاب حتى لا تمس ايديهم ايديهن وكان عمر قد اشار عليه بهذا الحجاب فنزل جبريل من عند الله يقول لهم. اذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن. ومن فرط غيرته عليهن صار يكره ان ينكحهن احد بعده وحكم عليهن ان يقضين عمرهن من بعده في ترمل لا انقطاع له واستنزل جبريل يقول للمؤمنين عن امر الله وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده ابداً ان ذلكم كان عند الله عظيماً ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة واعد لهم عذاباً مهيناً

ومن امثلة غيرته لقلة تسترهن اذا برزن لحاجة ما نزل به

جبريل من السماء يقول له عن لسان الله يا ايها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين

ولما دارت عليه الدائرة في احدى سراياه شمت به اعداؤه واذاعوا اخبار السوء عن سراياه وارجفوا بذلك في المدينة فنزل جبريل من السماء يرشقهم عن لسان الله بسهام اللعن ويقول لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ملعونين اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا اي ان الله سن ان يقتل من يسعى في وهن الانبياء بالارجاف اينما ثقف .

هذه اهم الحوادث التي اقتضت ان ينزل هذا المسكين جبريل مراراً كثيرة من السماء بشيء من آيات سورة الاحزاب وقد رأيت ان هذه الحوادث كلها زمنية بل لا تعني احداً سوى محمد وازواجه وضيفانه ولم تكن تلك الآيات لتنزل لولاها الا انهم يدعون مع ذلك ان السورة باسرها قد كتبت منذ الازل بالفاظها وحروفها في اللوح المحفوظ بجانب عرش

الله وليست من قول محمد في مصالح نفسه . فهذا لعمري هو المعجز اي ان يكون في عقلائهم من يعتقد من بعدها وبعدما مر بك من غيرها ان القرآن كلام الله نفسه وانه لذلك يعد معجزة . وقد تقدم من الاحتجاج النظري ما هو كاف لان يدحض دعواهم هذه فبقي علينا ان ندحض دعواهم الاخرى وهي ان القرآن معجزة باعتبار فصاحة اللفظ وهذا ما نقصد الآن اليه وستكون حجتنا فيه نقلية اي مأخوذة من القواعد التي وضعوها هم انفسهم لمعرفة الكلام الفصيح

واعلم اننا لسنا ننكر ان القرآن فصيح في بعض المواضع وانما ننكر دعواهم انه من حيث الفصاحة معجزة تفوق قدرة العباد كما انكر ذلك قبلنا بعض فرقهم . اما فصاحته في بعض المواضع على طريقة فصاحة العرب فنسلم بها ولا غرو ان يكون فيه شيء منها لان مصنفه من قريش افصح قبائل العرب ونشأ فضلا عن ذلك في بني سعد وكانوا في الفصاحة كقريش فاجتمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة الفاظ الحاضرة ورونق كلامها وهذا ما حداه الى ان يقول متبجحاً انا افصح العرب واعطيت جوامع الكلم ثم انه اقام في تصنيف كتابه

ثلاثاً وعشرين سنة يختار في اثنائها من كلام قبيلته واظآره ابلغ اساليبهم ويتلقف افصح الفاظهم ويعبر بها عما يقع في خلده كلما تهيأ له ذلك فجاء كتابه فصيحاً في كثير من المواضع لكن لا يلزم من هذا انه معجزة كما ان اشعار زهير وخطب قس بن ساعدة والفاظ سحبان لا تعد معجزة مع انها من البلاغة والفصاحة والنصاعة بحيث لو قيس بها القرآن لفاتته بمراحل. ولو كان القرآن كلام الله نفسه وكان الله يروم ان يتحدى العرب بفصاحته لكان ينبغي ان يكون افصح مما نراه واحسن نظاماً بكثير ولوجب ان يتنزه عما نراه فيه من اللحن والخطأ والركاكة وغير ذلك من معائب الكلام التي ما قدر الله حق قدره من نسبها اليه

ثم ان الذين يدعون له الاعجاز في الفصاحة لما وقفوا على ما فيه من مخالفة قواعدها مما لو تمكن منه منكرو الاعجاز لكان لهم حجة دامغة حرصوا اشد الحرص على طيه عن غير اهل ملتهم مع انه بزعمهم معجزة نبيهم التي تصدق نبوته ورسالته والمعجزة التي هذه صفتها يجب ان تعلن للناس كافة ليؤمنوا بصاحبها ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة[1]

[1] سورة الانفال : ٤٤

وذلك ان واضع الشريعة اذا لم يبين للناس شريعته حتى يقفوا عند اوامرها ونواهيها كان متعنتاً مكلفاً ما لا يستطاع بل عد ذلك منه من اظلم الظلم فان كان واضع الشريعة كذلك فما ظنك بواضع الدين الذي يترتب على الجهل به هلاك النفس افتراهم يرومون من الناس ان يؤمنوا بمعجزة صاحبهم والكتاب الذي يتضمنها مطوي عنهم الا يعلمون ان ذلك يدعو الى الارتياب فيما يدعون له من صفة الاعجاز لان السلعة اذا بيعت بشرط ان لا يكشف مشتريها حقيقة حالها كانت محلاً للشك الا انهم لم يفطنوا لهذه النكتة وما ذلك الا لشدة حرصهم على طي كتابهم عمن يخالفهم اذ انهم علموا يقيناً انه لا شيء من الاعجاز فيه وانه مشحون بما لو اطلع عليه من لم يعمه الغرض لازداد انكاراً لاعجازه المزعوم ولم يكفهم ذلك حتى طووا عنهم ايضاً كل كتاب غيره اذا كان يشتمل على شيء من آياته[1]

ثم ان للفصاحة في العربية قواعد واصولاً وضعوها هم انفسهم وعدوا في جملتها سلامة الكلام من ضعف التأليف ومن الغرابة والتنافر ومخالفة القياس وسترى ان في القرآن من ذلك

[1] وذلك من كتب علوم اللغة مثل سيبويه

ما يخالف قواعدهم ونحن لا نذكر لك منه الا ما كانت المخالفة فيه بينة لا تحتمل التأول على علم منا ان المفسرين قد تمحلوا لكل من غلطاته تأولا وعزب عنهم ان مجرد احتياجه الى ذلك هو حجة عليه ولو سلمنا لهم بما حاولوه من الحذف والتقدير لستر غلطه تارة وكشف معناه اخرى لم يبق ثم من داع لوضع ما وضعوه من القواعد ولاصبح كل لحن وتأوله بل عده من انواع البديع ممكن على طريقتهم[1]

واذ قد تقرر هذا فلنشرع في تعقب خطئه قال في سورة البقرة (آية ١٧٢) ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلوة وآتى الزكوة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء. وكان الوجه ان يقول والصابرون لانه عطف على

---

[1] كما فعلوا في تأول غلطته اذ قال قاب قوسين والوجه قابي قوس لان القوس لها قابان فعدوا هذه الغلطة من انواع البديع وهو القلب الذي يتعب القلب ·

قوله والموفون لكن المفسرين قالوا انه نصب الصابرين على المدح ولا ادري لماذا استحق الصابرون هذا المدح ولم يستحقه الموفون بعهدهم مع انهم مقدمون في النسق على اولئك ومع ان السورة نفسها متقدمة النزول على سورة براءة التي سن فيها نبذ العهد وعلى سورة التحريم التي أحل فيها الحنث بالايمان. ثم ان في هذه الاية خطأ آخر في التركيب لانه قال ليس البر ان تولوا وجوهكم الخ ولكن البر من آمن بالله الخ وكان الوجه ان يقول ولكن البر ان تؤمنوا وتؤتوا وتقيموا الخ لان البر هو الايمان لا المؤمن ولذلك لجأ المفسرون الى التقدير فقالوا ولكن البر الذي ينبغي ان يهتم به بر من آمن بالله الخ فلعل الكاتب اسقط ست كلمات واذهب بذلك ما في القرآن من وضوح الدلالة فقدرها المفسرون والا فالتركيب فاسد

وقال في سورة النساء (آية ١٦٠) لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلوة والمؤتون الزكوة والمؤمنون بالله واليوم الاخر. وكان الوجه ان تقول والمقيمون الصلوة كما قال بعده والمؤتون الزكوة هذا ما تقتضيه القاعدة الا ان المفسرين زعموا

انه نصب المقيمين الصلوة على المدح ايضاً فلم استحق هؤلاء المدح ولم يستحقه المؤمنون بالله واليوم الآخر مع انهم احق به واولى اذ كل مؤمن بالله واليوم الاخر مقيم للصلوة ولكن ليس كل مقيم للصلوة مؤمناً بالله واليوم الاخر اذ يحتمل ان تكون صلاته رياء او خوفاً او طمعاً او لعلة اخرى وهي ايضاً من الطاعات الظاهرة ولذا يحرص المراؤون اشد الحرص على قضاء هذا الفرض اما الايمان بالله واليوم الاخر فامر باطن لا يقدر الناس ان يعلموه او يطلعوا عليه وقصارى ما يقدرون عليه هو انهم اذا رأوا واحداً منهم يغدر ويخون وينهب ويقتل الاسرى حتى يثخن في الارض ساغ لهم ان يرتابوا في صحة ايمانه بالله واليوم الاخر

وقال في سورة المائدة (آية ٧٣) ان الذين امنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الاخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وكان الوجه ان يقول والصابئين كما قاله في سورة البقرة (آية ٥٩[1]) وسورة الحج (اية ١٧)

[1] لما وقف المفسرون على هذا اللحن تمحلوا له تأويلاً فقالوا انه

وقال في سورة الاعراف (آية ١٦٠) وقطعناهم اثنتي عشرة اسباطاً فانث العدد وجمع المعدود والوجه التذكير في الاول والافراد في الثاني كما هو ظاهر

وقال في سورة المنافقين (آية ١٠) وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتني الى اجل قريب فاصدق واكن من الصالحين بجزم اكن والوجه واكون بالنصب

وقال في سورة آل عمران (آية ٥٢) ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون والوجه

كلام مرفوع على الابتداء وخبره محذوف وان النية به تأخيره عما في حيز ان اي عن قوله والنصارى وما بعده حتى يصير الكلام هكذا ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون كذلك . لكن القرآن لم يقل هكذا وهذا التمحل من المفسرين يزري بالعلم ويشين العلماء وهم قد علموا انه يستحب العدول بالكلام عن الجهة التي تلزمه مستثقل الاعراب فان كان تأولهم صواباً ولا اخاله صواباً فقد اثبتوا على صاحب القرآن انه عدل بكلامه الى الجهة التي الزمته مستثقل الاعراب لا عنها وذلك على عمد منه اذ لم يكن ثم ما يمنعه ان يقول والصابئين كما قال في سورة البقرة وهو بزعمهم كلام خالق اللغة الذي كل شيء يستطاع له

فكان لكن هذا يخل بالروي فآثر الاخلال بالمعنى ليستقيم له الروي والا فقد ساقه اليه ما الفه لسانه حتى كرره في ستة مواضع من كتابه وذلك قوله كن فيكون[١] لكن المعنى في تلك المواضع يقتضي الجزء الثاني من الجملة بصيغة المضارع وفي هذا الموضع يقتضيه بصيغة الماضي

ومما اخطأ فيه مراعاة للروي قوله سلام على الياسين والوجه الياس. وقوله وطور سينين والوجه سيناء. وما كان

---

[١] ومن امثلة تكرار الجمل بعينها من غير ضرورة ولا زيادة نكتة قوله فبأي آلاء ربكما تكذبان كرره احدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن وحدها مع انها من اقصر السور. وقوله ان الذين آمنوا والذين هادوا الخ. كرره ثلاث مرات. وقوله ان اتبع الا ما يوحى الي كرره اربع مرات بالفاظه ومراراً متعددة بمعناه. وقوله ما اسألكم عليه من اجر كرره خمس مرات في سورة واحدة وهي سورة الشعراء وكرر فيها قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم مراراً متعددة بل لو حذفت من هذه السورة ما تكرر فيها من الجمل لذهب نصفها. وقوله يا ايها النبي جاهد الكفار واغلظ عليهم كرره مرتين. وقوله ويوم يناديهم فيقول اين شركائي الذين كنتم تزعمون كرره في سورة واحدة بلا ضرورة. وهذا فضلا عن تكريره مراراً كثيرة ذكر الجنات تجري من تحتها الانهار وغير ذلك مما لا يكاد يحصى حتى سمج كلامه وسئم

من المحتمل لولا الروي ان يقول عن حملة العرش انهم ثمانية لا اكثر ولا اقل وما كان لولاه وجه لقوله مرارآ جنتان وزوجان

ومن خطئه في الضمائر قوله في سورة الحج (آية ٢٠) هذان خصمان اختصموا في ربهم والوجه اختصما في ربهما وقوله في سورة الانبياء (آية ٣) واسروا النجوى الذين ظلموا والوجه واسر النجوى. وقوله في سورة الحجرات (آيه ٩) وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما والوجه اقتتلتا او بينهم

ومن اتيانه بجمع الكثرة حيث يتعين جمع القلة وبالعكس قوله في سورة البقرة (آية ٢٢٨) والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلثة قروء والوجه اقرؤ او اقراء. وقوله فيها (آية ٧٤) لن تمسنا النار الا اياماً معدودة والوجه معدودات لانهم ارادوا قلة الايام وقوله فيها (آية ١٧٩و١٨٠) كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون اياماً معدودات والوجه ههنا معدودة لانه اراد ايام الصيام وهي ثلاثون يوماً

اما الكلام المبتور فهو في القرآن كثير جداً لكننا نقتصر من امثلته على القليل. قال في سورة الحج (ايه ٢٥) ان الذين كفروا

ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد. فهذه الاية تعاب من وجهين احدهما انه عطف فيها المضارع على الماضي فقال ان الذين كفروا ويصدون وكان الاقعد في هذا الموطن ان يقول وصدوا والثاني انه لم يأت بخبر ان فلم يتم الكلام بل بقي سامعه منتظراً شيئاً. ثم اردف هذه الاية بقوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم. فهذا ايضاً كلام ناقص لانه جاء فيه بفعل متعد وهو يرد ولم يأت بمفعوله ثم قال نذقه من عذاب اليم وكان المقام يقضي ان يقول العذاب الاليم او عذاباً اليماً بحذف من البعضية. اللهم الا ان يكون اراد التبعيض فيصح حينئذ من الكلام مبناه لكن يفسد مغزاه اذ تذهب النكتة المرادة به وهي الوعيد الشديد لمن يريد فيه بالحاد بظلم فيطمع في انه لا يصيبه الا بعض العذاب الذي يستحقه. وقال في سورة القصص (اية ٤٦) وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما اتاهم من نذير من قبلك. فهذا الكلام ناقص لا يفيد معنى ولذا قال المفسرون ان بين قوله ولكن وقوله رحمة فعلاً محذوفاً تقديره علمناك فما الذي اضطره الى حذف هذا

الفعل وليس في ما بقي من الكلام دليل عليه الا ان يقال هذا من البيان الذي يعجز عنه البشر ويزيد معجزة القران وضوحاً وقال في سورة البقرة مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم. قال المفسرون ان الذي بمعنى الذين واستشهدوا لذلك لا بشاهد من كلام العرب بل بكلام القران نفسه اذ قال وخضتم كالذي خاضوا اي كالذين خاضوا وهذا احتجاج ضعيف فضلاً عن انه لو اراد بالذي في هذا الموضع معنى الذين لقال الذي استوقدوا كما قال الذي خاضوا ولكنه قال استوقد بالافراد فبقي الكلام بعد ذلك ناقصاً لا يفيد وذلك لسقوط جواب لما الا ان المفسرين الذين لا يعجزهم شيء من التأول قالوا ان الجواب محذوف للايجاز وامن اللبس فاي ايجاز اشد اخلالاً بالبلاغة من هذا الايجاز ام كيف يؤمن اللبس والسامع لا يدري ما هو المحذوف لعدم الدلالة عليه في ما بقي من الكلام [1]

[1] وقد قرر ائمة البيان منهم ان ما لا يفهم الا بذكره لا يجوز حذفه ولا سيما اذا كان هذا المحذوف مما يوقع في الكلام لبساً ويزيله عن معناه ويحيله الى غير المراد منه فان جاز تأول المفسرين لم يبق رطانة ولا سفسفة الا ويمكن عدها فصاحة

وقال في سورة يوسف فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه في غيابت الجب واوحينا اليه لتنبئنهم بامرهم هذا وهم لا يشعرون قال المفسرون ان جواب لما في هذه الفقرة محذوف وتقديره فعلوا به ما فعلوا وعندي ان الواو العاطفة في قوله واوحينا زائدة فان حذفت استقام المعنى

اما الكلام الزائد زيادة تخل بالبلاغة او تحيل المعنى الى غير مراد قائله فهو كثير جداً في القران لكننا نقتصر على القليل من امثلته فمن ذلك قوله في سورة القيامة لا اقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفس اللوامة قال المفسرون ان حرف النفي في الجملتين زائد فهو اذاً لغو في كتاب حقه ان يكون منزهاً عن اللغو ولكن يلزم من زيادته ههنا انه اقسم ولم يأت بجواب القسم فصارت الاية تعاب بالزيادة في اولها وبالنقص في اخرها.

ومن ذلك قوله في سورة الحديد يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وامنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به لئلا يعلم اهل الكتاب ان لا يقدرون على شيء فلا في قوله لئلا والاصل لان لا زائدة لان المفسرين يزعمون انه اراد ان يقول ليعلم اهل الكتاب الخ الا ان هذه الزيادة عكست معنى

الكلام واحالته الى ضد مراد قائله . ثم ان في هذه الاية نكتة يعجز عن ادراك معناها من لم يكن من الراسخين في العلم وهي امره الذين امنوا ان يتقوا الله ويؤمنوا برسوله فانهم ان كانوا حقيقة قد امنوا كما دعاهم فقد اتقوا الله وامنوا برسوله والا فما هم بمؤمنين

اما الالتفات من الخطاب الى الغيبة والعكس وعدم تعيين ما تعود عليه الضمائر اذا تعددت في الجملة الواحدة فكثير لكننا نقتصر من امثلته على اثنين احدهما قوله في سورة يونس هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتهم ريح عاصف فهذا التركيب فاسد لالتفاته من الخطاب الى الغيبة قبل تمام المعنى وكان الوجه ان يستمر على الخطاب والاخر قوله في سورة الفتح انا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة واصيلا فالمعنى ههنا قلق مضطرب لالتفاته من خطاب محمد الى خطاب غيره قبل تمام الجملة الابتدائية ولان الضمير المنصوب في قوله تعزروه وتوقروه عائد على الرسول المذكور اخراً وفي قوله تسبحوه عائد على لفظ الجلالة المذكور

اولاً . هذا ما يقتضيه المعنى ولكن ليس في اللفظ ما يعينه تعييناً تزيل اللبس فلذلك اختلف فيه المفسرون فجعله بعضهم في الافعال الثلثة عائداً على لفظ الجلالة واختار غيرهم عوده في الاولين على الرسول وفي الأخير على لفظ الجلالة كما قلناه وهو الاقرب في المعنى وان كان الاول هو الاصح في التركيب

وكثيراً ما يستعمل القرآن الالفاظ العربية في غير ما وضعت له او يأتي بالمشترك منها حيث يجب التخصيص . فمن ذلك قوله مراراً عن دين ابراهيم انه حنيف ويعني بذلك انه قويم لكن العرب تعني بالحنف الاعوجاج ولذلك تسمى عابد الوثن حنيفاً لميله عن الدين القويم[1] ولم تعرف للحنف معنى الاستقامة وانما هو مما موّه به اليهود على مصنف القرآن

---

[1] جاء في الكامل والنقائض ما تلخيصه ان عتيبة اسر بسطاما النصراني يوم غبيط المدرة فنادى القوم اخاه بجادا ان كرا على اخيك وهم يرجون ان يكر فيأسروه هو ايضاً فناداه بسطام وقد احس بمكيدتهم ان كررت يابجاد فانا حنيف فلحق بجاد بقومه . وانما اراد بسطام ان يثبط اخاه عن الكرة فلا يؤثر فقال له ان كررت فانا حنيف اي مائل عن ديني القويم وهو النصرانية الى عبادة الوثن فالحنف الميل عن الاستقامة لا الميل عن كل شيء كما زعموا

ليمرقلوه[١] فدسوا اليه ان ادع الى دين ابرهيم حنيفاً وراموا بذلك ان يفتضح عند مستمعيه منهم لان الحنيف بلغتهم هو الملتوي الضال المنحرف عن السراط المستقيم وقد يعنون به ايضاً الخب الخداع لهذه الملة فاخذ مصنف القرآن هذا اللفظ عنهم وانخدع لهم . ومن ذلك قوله في سورة الانسان هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً فالمتبادر الى الذهن من هذا انه سؤال منكر الا ان القرآن لم يقصد به سوى الاثبات والا فالفقرة كفر محض لانها تؤدي الى انكار بدء الخلق فلذلك لجأ المفسرون الى التأول فقالوا هل معناها قد الا انا لا نجد لها هذا المعنى في شيء من كلام العرب حتى لو سلمنا ان لها هذا المعنى كان يجب على صاحب حد الاعجاز ان يجتنبها في موطن يحتمل اللبس وان يؤثر قد الصريحة حتى يكون معنى كلامه في ظاهر لفظه ومن ذلك قوله في سورة البقرة تلك حدود الله فلا تعتدوها والوجه فلا تتعدوها كما قال بعد ذلك

(١) وكان من دأبهم مغالته بالالفاظ كما فعلوا في لفظة راعنا (البقرة : ٩٨) فانهم كانوا يخاطبونه بها وينوون نسبته الى الرعن او سبه فتنبه لها ونهى عن استعمالها لكنه لم يتنبه للحنيف

ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون فقوله تعتدوها غلط مزدوج اولاً لان المقام يأبى الفعل الذي أستعمله وثانياً لانه عداه بنفسه وهو لا يتعدى الا بالحرف. ومنه قوله في سورة يوسف تالله تفتؤ تذكر يوسف والوجه لاتفتؤ لان فتئ وما جرى مجراها لا تستعمل الا منفية. ومنه قوله في سورة القصص ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولي القوة والوجه لتنوء بها العصبة اي تنهض بها على تثاقل لشدة ثقلها وذلك ان مصنف القرآن اراد ان يصف قارون بكثرة المال والكنوز متابعة لليهود على ما جاء في تلمودهم فكنى عن ذلك بالمفاتح الثقيلة لكثرتها حتى لتنوء بها العصبة اولو القوة اي تنهض بها الجماعة الكثيرة على تثاقل فالعصبة هي التي تنوء بالمفاتح لا المفاتح بالعصبة. اما قارون هذا فالمظنون ان المراد به قورح الذي جاء اسمه في سفر الخروج (ص٦: ٢١) واما كثرة ماله فهي خرافة تلمودية. ومنه قوله في سورة الكهف اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت ان اعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً فهذا الكلام يعاب من وجهين احدهما انه استعمل لفظة وراء

بمعنى قدام والثاني ان تركيبه فاسد لتأخر العلة فيه عن المعلول وكان الوجه ان يقول اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر وكان قدامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً فاردت ان اعيبها او ان شاء التقديم والتأخير فيقول فاردت ان اعيبها لانه كان قدامهم ملك الخ الا انه قال وراءهم مكان قدامهم ثم قدم ما كان حقه التأخير وزعم البيضاوي انه انما فعل ذلك للعناية ففسر كلام القرآن بكلام زاده اشكالاً ومهما يكن من هذا فقد استعمل القرآن لفظة مشتركة في موطن ينبغي فيه التخصيص هذا ان سلمنا لهم ان لفظة وراء لها معنى قدام ايضاً (١)

(١) كل ما رأيته من تأول المفسرين هو تحكم محض ومخالف لما وضعه العلماء من شروط البيان لانهم قرروا ان احسن الكلام ما كان معناه في ظاهر لفظه وان اول البلاغة ان يكون الكاتب او المتكلم متخيراً للفظه متعوداً اسقاط مشتركات الالفاظ حتى يحيط كلامه بمعناه ويخرجه عن الشركة ويزيل عنه اللبس فيأتي الكلام سالماً من التكلف بريئاً من التعقد غنياً عن التأويل غير مفتقر الى الاستعانة عليه بالفكرة . وقال قدامة ما تلخيصه : اذا علمنا ان احداً اراد لفظة تقيم معنى كلامه فجعل مكانها لفظة تحيله وتفسده لم يلزمنا ان نحسب له ما توهم انه اراده ونترك ما قد صرح به ولو كانت الامور كلها تجري على هذا لم يكن

وقال اهل العلم ان تكرار اللفظ بعينه في الجملة الواحدة بلا ضرورة مما يخل بالفصاحة والقرآن مشحون بذلك فلفظة اذ كررها خمس مرات في آية واحدة من سورة المائدة فقال واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني وتبرئ الاكمه والابرص باذني واذ تخرج الموتى باذني واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات وزاد هذا التكرار سماجة لفظة اذني التي جاء بها اربع مرات في الآية نفسها واولها مثل اذ فكأنه كرر هذه اللفظة تسع مرات في جملة واحدة[1] ومن هـذا القبيل قوله في سورة براءة (آية ٤٠) الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا. وقال في سورة المائدة ايضاً

خطأ. فان كانت لفظة هل لها معنى قد ولفظة وراء لها معنى قدام فهما من مشتركات الالفاظ التي يجب العدول عنها الى الالفاظ الخاصة ولا سيما في المواطن التي تحتمل اللبس.

[1] لشدة ولوعه بهذه اللفظة جاء بها ٢٣٤ مرة في كتابه و٢٩ مرة في سورة البقرة وحدها اما لفظة حين الظرفية ومعناها قريب من اذ فلم يجيء بها في القرآن كله سوى ١٧ مرة لا غير

ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح في ما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا واحسنوا فكرر قوله وعملوا الصالحات مرتين واتقوا ثلاث مرات بلا ضرورة وقال في سورة النور يعلمون ظاهراً من الحيوة الدنيا وهم عن الاخرة هم غافلون ولا ضرورة لتكرار لفظ هم. وقال في سورة الكهف فانطلقا حتى إذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها والوجه استطعماهم . وقال في سورة البقرة يا آدم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم والوجه فلما انبأهم بها

وعدوا تنافر الحروف مما يخل بالفصاحة وعابوا امرء القيس بقوله مستشزرات وابا تمام بقوله

كريم متى امدحه امدحه والورى

معي واذا ما لمته لمته وحدي

وقد جاء من هذا شيء كثير في القرآن كقوله فسبحه وسبحه ولم يسمعها ومن يكرههن واذ سمعتموه واذ زاغت الابصار واذ صرفنا

وقالوا ايضاً ان صاحب الفصاحة باي لسان كان هو الذي لا يحتاج الى استعارة الفاظ من لغة غيره اذا وجد في لغته ما

يرادفها فان كان الامر كذلك في حق المخلوقين فما ظنك بالاله القادر على خلق الالفاظ باللغة التي كان مزمعاً ان يخاطب بها الناس ويجبرهم بالاعجاز في فصاحتها على الايمان برسوله. الا ان مصنف القرآن قد احتاج الى لسان غيره في كتاب زعم انه انزل عربياً وخاطب به اعراباً فصحاء فاتاهم فيه بالاستبرق والسندس والاباريق والنمارق .واشباه ذلك من الفاظ الفرس وبالحواريين والمائدة والمشكاة من الفاظ الحبش وبالقسطاس والفردوس من الفاظ اليونان وبالسكينة والملة وعليين والمثاني من الفاظ اليهود فهل ضاقت عليه العربية فلم يجد فيها ما يغنيه عن غيرها مع انها في زعم امته اوسع اللغات وافصحهن ومع ان كتابه منزل بها وليته فهم معنى ما استعاره فانه اخطأ في هذا ايضاً اذ السكينة التي جاء بها في قوله ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم اصلها بالعبرانية شخينة وتفسيرها المجد اي مجد الرب هذا هو معناها الذي ارادته التوراة لما ذكرت تابوت العهد فتلقف مصنف القرآن هذه اللفظة من اليهود وضمها الى كتابه من غير ان يفهم حقيقة معناها واوردها فيه على الطريقة المبهمة التي الفها فاتعب المفسرين في تأويلها حتى تأولوها بما

يضحك منه. اما الملة فمناها بالعبرانية كلمة لا دين كما اراد وعليون اسم الله بتلك اللغة لا كتاب مرقوم كما وهم

اما المعاياة وفساد المعنى فذلك في القرآن اكثر من ان يحصى لكننا نقتصر على ما جاء من امثلته في سورة البقرة، وحدها قال في الاية الرابعة والعشرين منها ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم واما الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين فهذا الكلام يوهم انه ضرب لهم مثلا من البعوضة لكننا لا نجد شيئاً من ذلك لا في هذه السورة ولا في غيرها من القرآن فكأنه سقط مع ما سقط منه واصبح ما بقي من الكلام بعده معاياة لا معنى له. ثم انه كان الوجه ان يقول، بعوضة فما دونها لانه اراد ان الله لا يستحي ان يضرب مثلا من شيء حقير كالبعوضة وما هو احقر منها والا فالفيل لا يعد حقيراً في انواع الحيوان وكذلك الاسد وهما فوق البعوضة في الضخامة لكن لو ضرب المثل من احدهما لما صح مغزى الكلام ولبطلت النكتة المرادة منه لان القياس يقتضي التنازل في هذا

المقام من الاعلى الى الادنى فيقال بعوضة فما دونها لا بالعكس.
وقال في الاية الثامنة والعشرين وما يليها واذ قال ربك للملائكة
اني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها
ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما
لا تعلمون. وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال
انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا
الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم قال يا آدم انبئهم باسمائهم
فلما انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات
والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. فهذا الكلام
لا يقوله الله عليم حكيم بل ربما يقوله عربي امي لاعراب اميين
ومعناه فاسد من وجوه. فاولا انه عنى بالخليفة آدم لكنه لم يقل
لمن اراد ان يجعله خليفة وانت تعلم انه لم يكن على الارض
مخلوق قبله حتى يخلفه فيها ويلزم من هذا ان الله اراد ان
يستخلفه فيها عن نفسه. غير انه تعالى لما عزم على خلقه نوى ان
يجعله في الجنة يأكل منها رغداً ولو لم يعصه لم يهبطه الى الارض
يكون فيها خليفة. فقوله انه جاعله في الارض خليفة وهو ينوي

ان يجعله في الجنة فيه نظر[١] ثانياً انه حكى من جواب الملائكة ما يثبت عليهم انهم اعترضوا على حكمة ربهم في خلق آدم واستخلافه واحتجوا عليه بان هذا الخليفة سيفسد في الارض ويسفك الدماء فان كانت حجتهم هذه صادقة فلا وجه لردها عليهم بقوله اني اعلم ما لا تعلمون وان كانت كاذبة فقد اثبت عليهم انهم مفترون ثلابون وهذا مناف لما خصهم به من العصمة. ثالثاً قوله وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة هو كلام فاسد المعنى لان المتبادر منه الى الذهن انه عرض عليهم الاسماء وهي لا تعرض لكن ينفي هذا المعنى قوله بعد ذلك انبئوني باسماء هؤلاء وحينئذ يتعين ما قاله المفسرون من انه عرض

---

[١] ولا يرد على هذا انه تعالى كان بسابق علمه ان آدم سيعصيه وانه سيهبطه الى الارض لاننا نقول انه عاصي ربه لا يصلح للخلافة وما كان الله ليسن للبشر مثل هذه السنة وكذلك لا يرد عليه ان جنة آدم كانت على الارض لان المفسرين يزعمون انها كانت في السماء مستدلين على ذلك بقوله اهبطوا مرتين ومدعين انه اراد بالاولى هبوطه من جنته الى السماء الدنيا وبالثانية هبوطه الى الارض. فلا شك اذاً في انهم يعتقدون ان جنة آدم كانت في السماء لا على الارض كما يترتب على كلام التوراة

المسميات وقال انبئوني باسمائهم الا ان في هذا من الاعنات
ما لا يخفى وما لا يحتمل وقوعه من اله حكيم عادل لانه لما لم
يعلمهم هذه الاسماء كما علمها ادم لم يسغ له ان يسألهم عنها وهم
يجهلونها ولذا قالوا له سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا . رابعاً انه
زعم ان الله امر آدم ان ينبئهم بالاسماء فلما انبأهم بها فاخرهم
ربهم فتفخرهم وذلك لان حجتهم قد بطلت وحجته قد ثبتت
ولذا قال انه يعلم الغيب وهذا ايضاً فيه من المغالطة ما لا يمكن
صدوره من اله عليم حكيم فانهم ما جهلوا تلك الاسماء الا لانه
طوى عنهم علمها وما عرفها آدم الا لانه علمه اياها فاي وجه
لمفاخرته اياهم ام ما وجه تقصيرهم في جهل اسماء قد طويت عنهم
واي فضل لآدم معرفتها بعد ان تعلمها ومهما يكن من هذا
فالحاصل من هذا الكلام على قدر ما يمكن تحصيله ان الله
حاول بقضية الاسماء ان يحج الملائكة ويدحض دعواهم على آدم
انه سيفسد في الارض ويسفك الدماء الا ان ما حجهم به من
ذلك ليس بحجة لان معرفة آدم تلك الاسماء لا تبطل ما قرفوه
به من الفساد وسفك الدماء ثم قوله اني اعلم ما لا تعلمون ان
كان قصده به ان يبرىء ساحة خليفته مما رموه به فقد اثبت

عليهم جريمة الشاب والبهتان مع انه يأمرنا ان نعتقد بعصمتهم وان كان اراد به انه لا جناح على من يفسد في الارض ويسفك الدماء فلم ينهى عنه ويعاقب من يفعله الا ان يقال انه قد خفي عليه ان آدم وذريته سيكونون اشراراً مفسدين ولم يخف ذلك على الملائكة. خامساً انه جاء بضمير جمع الذكور الموضوع للعقلاء حيث يتعين ضمير المؤنث وذلك في قوله عرضهم يريد الاسماء او مسمياتها نخالف في ذلك ما نطقت به فصحاء العرب لانه لم يكن وقتئذ مذكر عاقل غير آدم واسمه معروف وغير داخل في جملة الاسماء المعروضة ليصح تغليبه عليها وقد خالف القياس ايضاً في تعدية قدس بالحرف وهو فعل يتعدى بنفسه اللهم الا ان يكون المراد ان الملائكة يقدسون له شيئاً ما فيكون الخطأ حينئذ في حذف المفعول الذي لا بد من ذكره في هذا الموطن.

وقال في الآية الحادية والخمسين واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم. فقد امرهم ههنا بالانتحار وزعم انه خير لهم عند بارئهم وحاشا لله ان يأمر بذلك وهيهات ان يكون قتل انفسهم خيراً لهم عنده.

فان قالوا ان الاشارة في قوله ذلكم الى التوبة لا الى قتل النفس قلنا فما الذي منعه ان يأتي بالكلام على وجه لا يحتمل اللبس وهو مالك زمام البلاغة وقياد البيان. ثم ان قوله فتاب عليكم ظاهره انه جواب لجملة قد سقطت في ما سقط ولو قال فيتوب مكان فتاب لكان الكلام اصح. وقال في الآية الثالثة والستين وما يتلوها واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة قالوا اتتخذنا هزوا قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون. واذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون. هذا كلام غاية في المنافاة ولا يقدر احد ان يفهم معناه

سوى الراسخين في العلم من المفسرين حتى ان هؤلاء انفسهم
قد اضطروا لحل معماه ان يلجأوا الى حيلة التقديم والتأخير
والتقدير والى تلفيق حكاية واهية زعموا فيها انه كان في بني
اسرائيل شيخ موسر وان بني اخيه قتلوا ابنه طمعاً في ميراثه
وخفي امرهم عن الناس فامر الله بني اسرائيل ان يذبحوا بقرة
كما وصفها لهم ويضربوا القتيل ببعضها اي بعضو من اعضائها
فانه يحيا ويدلهم على قاتله. اما التقديم والتأخير فانهم جعلوا ابتداء
الكلام من وسطه اي من عند قوله واذ قتلتم نفساً الى قوله
تكتمون وارد فوه بقوله واذ قال موسى لقومه الى قوله يفعلون
والصقوا به قوله فقلنا اضربوه ببعضها. اما التقدير فهو قولهم
فحيي واخبرهم بالقاتل قدروا هذه الجملة بعد قوله اضربوه
ببعضها ثم عادوا الى كلام القرآن فقرأوا كذلك يحيي الله الموتى
الخ. ولكن لولا هذه الحكاية والتقديم والتأخير والتقدير لم
يفهم احد معنى هذا الكلام مع انه وارد في كتاب كله بيان
وهدى وعلى ذلك فلعل المراد باعجاز القرآن عجز الناس عن
ادراك معناه لا عجزهم عن مضاهاته. نم ان القاضي عياض قال
في الشفاء ان القرآن آية لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض

والتئام سرده وتناصف وجوهه في سرد القصص الطوال واخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب ماء البيان ولكن يشبه ان القاضي رحمه الله لم تخطر قصة البقرة بباله عندما قال هذا الكلام والا فقد رام ان يطعن على القرآن او يتهكم عليه من جانب المعنى فلجأ الى هذه الطريقة من الهرف او من مدحه بما ليس فيه وهذا يصدق ما قاله احد الفلاسفة المتأخرين من اننا كثيراً ما نمدح المرء بما ليس فيه لنكشف من عيوبه بالتلميح ما لا نجسر على كشفه بالتصريح فان المدح الكاذب هجو لا تخشى منه تباعة

وحقيقة الامر في قصة البقرة هذه ان مصنف القرآن اخذها من اليهود نقلاً عن التوراة لكنه مسخها جهلاً لا عمداً فقد جاء في سفر العدد (ص١٩) ان الله امر بني اسرائيل ان يأخذوا بقرة حمراء صحيحة لا عيب فيها ولم يعل عليها نير فتذبح وتحرق ويتطهر برمادها من مس ميتاً . وجاء في سفر تثنية الاشتراع (ص ٢٢) امره لهم اذا وجد قتيل لم يعرف قاتله ان يذبحوا عجلة من البقر لم يحرث عليها ولم تجر بالنير ليتبرأ بدمها اهل المدينة القربى من القتيل فاخذ مصنف القرآن هاتين

الفريضتين وخلطها على ما جرت به عادته وانشأ منهما قصة بقرته الصفراء

وقال في الاية السادسة والستين بعد المائة ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع. هذا التمثيل لا معنى له وكان الوجه ان يقول ومثل الذي يعظ الكفار او يدعوهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع وذلك على حد قول الشاعر

لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وقال في الآية السادسة والسبعين بعد المائتين الذين يأكلون الربوا لا يقومون الا كما يقول الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا. وكان الوجه ان يقول انما الربا مثل البيع وذلك انه لما كان البيع حلالاً مثلوا به الربا تمويهاً ليوهموا انه حلال مثله فالربا هو الممثل ويجب في هذا الموطن تقديم ذكره والبيع هو الممثل به ويجب تأخير ذكره فلما عكس القران هذا الترتيب فسد المعنى

ومما ينافي الفصاحة ان يأتي الكاتب او الخطيب في اثناء كلامه بجملة تكون اجنبية عما سبقها وهذا مما يعده العلماء

تكلفاً [١] وقد جاء به القرآن مع ذلك مراراً تكاد تفوت الحصر كثرة ونحن لا نورد لك منه سوى مثال واحد نستدل به على الباقي . قال في سورة البقرة (آية ٢٥٥) يا ايها الذين امنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون فهذا تحضيض على ايتاء الزكاة وغاية ما ما يقال فيه انه كلام اعتيادي ليس تحته كبير امر ولا يتميز عما كان جارياً وقتئذ على السنة عامة العرب . الا انه قال بعده الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم . فهذا الكلام الرائع السامي لو قلبت القرآن كله لم تجد له مثيلاً في جودة المعنى وبلاغة الاسلوب ونصاعة اللفظ لكنه اجنبي عما تقدمه ولا ارتباط له به ولا قران بينهما ثم لما لم يتسن لقائله ان يستمر على هذا النمط اردفه بقوله لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن

(١) طبقات الشعراء لابن قتيبة

بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى . فاين الليلة من البارحة ولذا قالوا ان آية الكرسي بين جارتيها كقطعة ديباج رقع بها ثوب كرباس . واكثر القرآن على هذه الصفة من عدم القران بين آياته والانتقال تواً من الاوج الى الحضيض ومن ذكر الجنة والمغفرة الى ذكر المحيض

(انتهى)



فهرست الكتاب

تذييل على الثلاثة فصول الاولى لهاشم العربي

(الشيخ اليازجي)



